ساشا ناخت

المازوخيّة

ترجمة:

مي طرابيشي



ـة علم النفس والتحليل النفسي

ص . ب ١١١٨١٣
بيروت ـ لبنان

تلفون { ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٣

مكتبة علم النفس والتحليل النفسي

ساشا ناخت

المازوخيّة

ترجمة

مي طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب :

LE MASOCHISME

Par

S. NACHT

Petite Bibliothèque Payot

TROISIÈME ÉDITION

PARIS 1976

مدخل

المازوخية حالة مرضية عصبية تتميز بطلب الألم . فالمازوخي يشعر بحاجة حقيقية ، بـ « شهية » الى التألم .

يكون الألم بدنياً أو معنوياً ، أو يكون من كلتا الطبيعتين معاً .

ينشد المازوخي الألم مباشرةً ، وعن علم ودراية ، بغية الحصول على إشباع ايروسي ،تناسلي . فيمثل هذا السلوك المازوخية الشهوية او الانحراف الجنسي المازوخي ؛ وتلك كانت الظاهرة المازوخية الوحيدة المعروفة قبل ظهور المباحث التحليلية النفسية .

لقد سلطت هذه المباحث الضوء على صورة اخرى من المازوخية ، أكثر انتشاراً ، هي المازوخية المعنوية .

ففي هذه الحالة الأخيرة ، يطلب المازوخي الألم بصورة غير مباشرة ولاشعورية ،لكن يبقى هذا الطلب غير مبوح به ، بل انه يتجاوز إطار الحياة التناسلية ليطال الشخصية بجماعها .

ان المازوخية المعنوية هي وحدها القادرة على توليد عصاب سلوكي حقيقي ، يطلق عليه عادة ، في أدبيات التحليل النفسي ، اسم « الطبع المازوخي » .

والأكثر تواتراً أيضاً ، أن نراها تتلبس صورة نوازع مازوخية ، فتسهم بقسط موفور في تكوين أغلب الحالات المرضية العصبية النفسية .

هذا التوق الى الألم ، إذا غلا وشط الى أقصى حدوده ، كشف عن وجود نزعة حقيقية ـ من طبيعة غريزية ـ إلى تدمير الذات .

إن العمومية البيولوجية لهذه النزعة قد حملت فرويد على اعتبارها دافعاً غريزياً مستقلاً سماه « غريزة الموت » . وستتاح لنا الفرصة ، غير مرة ، لكي نعود الى هذا التصور الذي حرص فرويد نفسه على وصفه ، في مناسبات عدة ، بأنه نظري محض (ميتاسيكولوجي)[1] .

أما بالنسبة إلينا . فلنوضح من الآن أننا أخذنا على عاتقنا دراسة مسألة المازوخية ، وبوجه الخصوص ، من الناحية السريرية والنشوئية النفسية .

في هذا الصدد ، يبدو أن القول بمازوخية أولية ، كتعبير عن نزعة غريزية إلى تدمير الذات ، تنقضه وقائع الملاحظة السريرية .

وبالفعل ، ستبدو هذه النزعة ، في هذه الحال ، وكأنها ستنتهي إلى تحقيق للألم في ذاته ؛ والحال أن المازوخية ـ سواء أكانت شهوية أم معنوية ـ لا تبدو أبداً ، من الناحية السريرية ، هدفاً ، بل وسيلة بالأحرى .

ونحن نعتقد أننا نستطيع في عرضنا هذا أن نثبت أن المازوخية ، تلك الاستجابة الظاهرة التناقض ، هي وسيلة للدفاع ، وعلى وجه التهديد ، للدفاع المرضي عن الذات . وعلى هذا الأساس ، يبدو لنا ـ سنثبت ذلك فيما بعد ـ أن كل شيء يجري هنا وكأن المازوخي أمام خطر احتمال خسارته كل شيء (أظهرت أكثرية المباحث التحليلية النفسية ـ كما سنرى ذلك لاحقاً ـ أن المازوخي يتصور هذا الخطر على الصعيد اللاشعوري في صورة خصاء) يرتضي بتقديم تضحية جزئية مقابل إنقاذ الباقي .

---

(١) في رسالة كتبها إليّ إ . جونز ، معلقاً على مقالتي : « غريزة موت أو غريزة حياة » ، لفت انتباهي إلى أن فرويد ، في آخر فترة من حياته ، لم يعد يعتبر غريزة الحياة أو الموت نظريةً خالصة ، بل معطىً واقعياً .

وهـذه على كـل حال صفقـة مغبون ، عـلى الأقل في نظـر المراقب الخـارجي ، وذلك مـا دامت الآلام والتضحيات التي ينـزلها المـازوخي بنفسه واقعية ، بينما ليس الخطر الذي يجهد لتـداركه سـوى وهم من أوهام اللاشعور . غير أن تنظيم الجهاز النفسي يفلح مع ذلك في اجتنـاء كسب ما من هذا الموقف .

ان يكن ث . رايك[٢] قد استصـوب تعبيري « صفقـة مغبون » ، فإنه اعترض بالمقابل بقوله إن هذه وجهة نظـر المراقب ، لا وجهـة نظر الشخص موضوع الملاحظة . وأنا لـم أرَ قـط غير هذا الرأي ، لأنه لو كان للمازوخي وجهة النظر تلك لما كان صار مازوخياً .

إن كـل جهودنـا العلاجيـة تنصب على وجـه التعيين عـلى حمـل المازوخي على الأخذ بوجهة النظر تلك ، اي وجهة نظر الواقع الموضوعي الذي شوهه لديه الواقع الذاتي .

هنالك أواليتان تفسحان في المجال أمام المازوخي ، بالتضافر ، في أغلب الأحيان ، لتحقيق ذلك الكسب العصابي :

أ ـ إضفاء طابع جنسي على الألم .

ب ـ استخدام الأنا الأعلى للألم وسيلة لمعاقبـة الذات ، بغـرض تحييد عقدة الشعور بالذنب جزئياً . وترتيبـاً على ذلـك ، فإنـه قد يؤذن لحاجات ليبيدية ، كانت الى ذلك الحين محظورة ، بـأن تحظى بقدر من الإشباع . سوف تسنح لنا الفرصة ، غـير مرة ، لكي نتبحـر في دراسة هاتين الأواليتين . ففهمهما ييسر علينا أن نجد تفسيـراً ، سريـرياً عـلى الأقل ، لواحدة من السيرورات المرضية النفسية الأكثر غرابة والأشـد ضرراً .

سوف نرى كـذلك أننـا إذا أردنا أن نستعـين بتصورات تتصـل

---

(٢) المـازوخيـة لـدى الـرجـل العصري: MASOCHISM IN MODERN MAN ، منشورات : فرار وستراوس وشركائهما : نيويورك ١٩٤١ .

بغريزة الموت ، فلن يبدو دور هذه الغريزة مقبولاً إلا إذا أدرجناه ضمن « أوالية من الدرجة الثانية »[٣] .

وفي هذه الحال ، لن يكون لتلك التصورات فائدة سريرية تذكر ، هذا ان لم تكن منعدمة تماماً ، علاوةً على أنها عقيمة من الناحية العلاجية .

وبالفعل ، إننا لا نشعر بالأرض ثابتة تحت أقدامنا ، عندما نفكر بأصل المازوخية ، إلا حينما نرجع إلى تصور فرويد الأول . وهذا ما يتأدى بنا إلى ضرورة التطرق إلى تاريخ المسألة . ولكن قبل أن نشرع بذلك ، ينبغي أن نعرض هنا لبعض الاعتبارات المتصلة بالمصطلح التحليلي النفسي .

يعرف المحللون النفسيون كم هي كبيرة المصاعب التي يصطدمون بها عندما يريدون أن يصفوا وقائع المشاهدة التحليلية النفسية . تنجم هذه المصاعب ، في أكثرها، عن عدم وجود مصطلح يطابق بما فيه الكفاية موضوع دراستنا . فنحن مضطرون دائماً إلى أن نستعمل ، في وصفنا للسيرورات اللاشعورية ، ألفاظاً لها معنى سيكولوجي محدد بوجه عام ، لكنها غالباً ما تكون غير مطابقة لما نريد قوله . وهذه الثغرة من شأنها أن تخلق لبساً وغموضاً ، بل ضرباً من سوء الفهم ، حتى في إطار المباحث التحليلية النفسية . ومن المحقق أنها مسؤولة ، إلى حد كبير ، عن الضيق الذي يساور أولئك الذين يقدمون لأول مرة على مطالعة منشوراتنا .

إن العقدة المسماة بعقدة الخصاء هي مثال بين أمثلة أخرى على

---

(٣) س . ناخت : «غزيرة موت أو غزيرة حياة» ، في **حضور المحلل النفسي** : LA PRÉSENCE DU PSYCHANALYSTE. ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٦٣ .

استخدم إ . بيبرينغ تعبير « نظرية من الدرجة الثانية » في مقالة « حول تطور إشكالية نظرية الغرائز » في مجلة إيماغو ، ١٩٣٦ ، المجلد ٢٢ .

ذلك . فنحن نقصد بهذا التعبير طائفة من تمثلات وتصورات طفلية تترجم عن إرهاص ، لدى الطفل ، بخطر تتعرض له أعضاؤه التناسلية ؛ وهذه التمثلات والتصورات تختلف بكل تأكيد عن الصورة الواضحة التي تستحضرها إلى الذهن كلمة خصاء .

فهل سنتوصل في يوم ما إلى تذليل المصاعب الناجمة عن التقيد بمنظومة خاصة من الاصطلاحات ؟

ضمن سياق هذه الأفكار ذاتها ، تلطف ر . لوفنشتاين ونقد تعبير « عقدة الخصاء » ، المستخدم في هذا العرض ، لأنه وجده غير مناسب . وبما أن حججه لم تقنعنا ، وبما أنه على الأخص لم يقترح علينا أي تعبير بديل آخر ، فقد احتفظنا بذلك التعبير ، لا لأننا اعتبرناه صحيحاً كل الصحة ، بل لأننا لم نحظ بأحسن منه .

وبالفعل ، إننا لو إستعملنا صيغة «SCHULDGEFÜHL» (الشعور بالذنب) ، التي يستخدمها عادةً المحللون النفسيون الألمان ، لوقعنا في خطأ مماثل لذاك الذي يولده استعمال عبارة « شعور لاشعوري بالذنب » ؛ وهو لا يعدو أن يكون ، حسب رأي فرويد بالذات ، إلا لغواً سيكولوجياً . وإزاء هذه الصعوبة ، نراه ينصحنا بأن نتكلم فقط عن حاجةٍ الى العقاب ؛ ولكن بما أنه من المستحيل تجنب الإشارة إلى مفهوم الذنب الذي يرتبط بتلك الحاجة إلى العقاب ، فإن ذلك لا يحل المشكلة .

وعلى هذا ، فقد رأينا أننا نكون أقرب إلى الحقيقة ، إذا ما استعملنا تعبير « عقدة الذنب » كلما بدا لنا ذلك ضرورياً .

(١)

تاريخ المسألة

لقد أشار أقدم المراقبين إلى العلاقة الغريبة بين الألم واللذة ، بين العذاب والحب .

لقد قيل إن سليمان ، في شيخوخته ، كان يطلب إلى نسائه وخزه بالإبر استثارةً لرجولته الخائرة . ويروي فلافيوس يوسيفوس أن أخا هيرودوس ، ويدعى فيروساس ، كان يطلب إلى الإناث من عبيده أن يوثقن قياده ويضربنه للغاية ذاتها .

يقدم لنا سقراط ، في علاقاته مع زوجته اكزانتيب،مثالاً أكمل بعد عن المازوخية .

والأمر بالمثل بالنسبة إلى أرسطو وفيليس . فهناك صور تمثل الفيلسوف على أربع قوائم ، حاملاً على ظهره إمرأة شاهرة سوطاً[٤] .

إن مجرد وجود سياط والجمة ومهامز في عداد النُذُر التي كانت تقدمها العاهرات ، في العصور القديمة ، إلى فينوس ، يظهر لنا بوضوح أن أولئك المومسات كن يستعملن تلك الأدوات لغاية إيروسية .

وقد صور بترون ، في قصته **ساتيريكون** ،شخصاً من الأشخاص يُضرب بقضبان شائكة لاستثارة رجولته . كما أن تريبنل[٥] اكتشف

---

(٤) ارسطو طاليس مازوخياً ، نقلاً عن هافلوك إيليس .

(٥) تريبنل ، المجلة الطبية النورماندية ، ١٩٠٢ .

بعض مشاهد مازوخية (مازوخية خيلية) محفورة على نقوش تعود إلى القرن الثالث عشر .

منذ القرن السادس عشر ، بدأ الأدب يصف دور الجَلْد في الإثارة الجنسية[٦] . كما ظهرت في عام ١٦٤٣ دراسة حول هذا الموضوع ، تحت عنوان : « **حول استعمال السوط في استرجاع الباه** » بقلم ميبوميوس .

ولحقبة أخرى مديدة من الزمن ، لن يرى الكتّاب في تلك الممارسات سوى وسائل للإثارة الجنسية ولتحريك الشهوة . فلم تعتبر المازوخية انحرافاً جنسياً إلا ابتداءً من القرن التاسع عشر .

في عام ١٨٦٩ ، وصف كرافت ـ إيبينغ في كتابه « **علم الأمراض النفسية الجنسية** » انحرافاً يتميز بطلب الخضوع المؤلم والمخزي ، سماه بالمازوخية ، نسبةً إلى ساشر مازوخ ، وهو أديب ذاع صيته في تلك الحقبة ، ومثل أتم التمثيل ، في نتاجه الأدبي كما في حياته ، صورة الانحراف الذي حمل اسمه من بعده .

وتبقى دراسة كرافت ـ إيبينغ هذه الوثيقة الأكثر شمولاً وكمالاً ، قبل ظهور المباحث التحليلية النفسية .

أشارت هذه الوثيقة إلى كل الظواهر السريرية : ألم بدني بفعل الإبر ، قرع بالعصي ، جَلْد ، الخ ؛ إذلال معنوي من جراء الخضوع العبودي للمرأة ، مصحوب بعقاب بدني . ولم يغب عن كرافت ـ إيبينغ دور التخيلات المازوخية . وهو يشير ، علاوةً على ذلك ، إلى العلاقة بين المازوخية ونقيضها السادية ، ولا يتردد أبداً في اعتبار المازوخية في جملتها « نمواً باتولوجياً مفرطاً لعناصر نفسية أنثوية ، تعزيزاً مرضياً لبعض سمات نفس المرأة » .

---

(٦) اولينبورغ ، **السادية والمازوخية** SADISMUS U. MASOCHISMUS ، (١٩٠٢) .اوتو برونفلز : **معجم الالفاظ** ONOMASTICON(١٥٣٤) .

لكنه اكتفى ، فيما يتعلق بأصل هذا الانحراف ، بالقاء التبعة على وجود ميول جبلِّية .

وقد درس شرانك ـ نوتزينغ[٧] ، وفيريه[٨] ، وأولينبورغ[٩] وغيرهم ، في حوالي عام ١٩٠٠ ، المازوخية من زاوية طلب الألم . من هنا كان استخدامهم لتعابير من أشباه : « حب الألم السلبي » «Algophylie» .

وعند هؤلاء الكتاب ، وكذلك عند بينيه[١٠] وجيلبير باليه[١١] ، بقي أصل الانحراف وأواليته غامضين . فهم لم يزيدوا على أن يقترحوا فرضية انحراف مكتسب من منظور الانحطاط العقلي المزعوم الذي كان عندهم مفتاحاً لتفسير مختلف ضروب المرض النفسي .

ومؤخراً ، كرس هافلوك إيليس ، بروح أكثر إرهافاً ، فصلاً مسهباً عن المازوخية في كتابه : **دراسات في السيكولوجيا الجنسية** . ونجد في هذا الكتاب ، كما ألفنا لدى هذا الباحث ، توثيقاً سريرياً ثراً للغاية . بالإضافة الى ذلك ، نجده ميالاً إلى أن ينسب أصلاً بيولوجياً غريزياً إلى وظيفة المثير الجنسي التي يمكن أن يضطلع بها الألم[١٢] . وعلى هذا النحو افترض أن هذا الألم يمثل تحويلاً للغضب والخوف اللذين يهيمنان على « مملكة » الحيوانات . وقد كتب ، تحت تأثير أفكار جانيه على الأرجح ، يقول : « ليس إلا في هذه الشروط النوراستينية أو المرضية العصبية ، أي في جسم موهن ، سريع الانفعال ، منهك بعلل مكتسبة أو

---

(٧) شرانك ـ نوتزينغ ، **فن المعالجة بالايحاء في حالات السلوك البشري المرضي** (١٨٩٢) .

(٨) فيريه ، **الغريزة الجنسية** (١٩٠٠) .

(٩) أولينبورغ ، **السادية والمازوخية** (١٩٠٢) .

(١٠) بينيه ، في **المجلة الفلسفية** (١٨٨٧) .

(١١) جيلبير باليه ، **بحث في الأمراض العقلية** .

(١٢) كان هـ . سبنسر وآخرون قد صاغوا من قبل تصورات مماثلة .

فطرية ـ بكلتيهما معاً في العادة ـ يمكن أن تنمو هذه الظاهرات وتتكاثر بقوة وعنفوان لتحتل الصف الأول في الوعي الجنسي ، ولتكتسي بأهمية كبيرة بحيث تشكل بحد ذاتها الهدف الكامل للرغبة الجنسية » .

بيد أن الفضل يعود إلى فرويد بوجه خاص ، وإلى بعض المباحث التحليلية النفسية اللاحقة بوجه عام ، في فهم المازوخية بمفهومها الحالي : واحدة من أهم المشكلات في علم الأمراض النفسية ، على الأقل في ميدان الأبحاث التحليلية النفسية .

تكمن أهمية هذه الأبحاث ، في أول عهدها ، في ما وفرته لنا من معرفة أفضل بأصل المازوخية وبأوالياتها؛ وفي طور لاحق ، وبعد أن أماط التحليل النفسي اللثام عن المازوخية المعنوية بكل مداها وأهميتها ، جعل منها عنصراً أساسياً وشبه ثابت في جميع السيرورات المرضية النفسية . كما أن تصورات فرويد ، المتعلقة ببنية الجهاز النفسي ، تأثرت بدورها بالمفاهيم المستخلصة من تعمق المعرفة أكثر فأكثر بالمازوخية .

استأثرت أخيراً دراسة أصل الغرائز وتمازجها ، في السنوات التي تلت ، بالجانب الأكبر من الأبحاث التحليلية النفسية . وهنا أيضاً ، كانت المازوخية نقطة انطلاق لهذه الأبحاث .

عبر فرويد ، ولأول مرة ، عن أفكاره بصدد المازوخية في كتابه : **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** (١٩٠٥)[١٢] .

فبدون أن يصوغ بعد تصوراً نهائياً ، أشار إلى :

١ ـ مشاركة السادية والمازوخية ، باعتبارهما عنصرين تكوينيين ، في الحياة الجنسية بوجه عام .

٢ ـ السلبية التي تميز موقف المازوخي من الموضوع الجنسي .

٣ ـ العلاقة بين السادية والمازوخية ، على اعتبار أن الثانية ليست

---

(١٢) انظر الترجمة العربية الصادرة بهذا العنوان عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . « م » .

سوى تحول للأولى .

قال : « كثيراً ما نشاهد أن المازوخية لا تعدو أن تكون استمراراً للسادية التي ترتد على الشخص ذاته الـذي يحل في هـذه الحال محـل موضوعه الجنسي » .

وكان كرافت ـ إيبينغ قد أشـار سابقـاً إلى تواجـد الساديـة مع المازوخية لدى المريض الواحد ، لكنه اعتبر ذلك مجرد مصادفة لا أكثر .

بيّن فرويد ، لأول مرة ، الرابط بين النزعتين المتناقضتين ظاهرياً ، فقال : « يمكننا أن نتساءل عما إذا كـانت المازوخيـة لا تنجم دوماً عن تحويل للسادية ، بدلاً من أن تكون ظاهرة « أولية » . سنرى كيف انتهى بـه الأمر ، فيمـا بعد ، إلى العـدول عن هذا التصـور ، مع أنـه مطابق للمشاهدة السريريـة علاوةً عـلى أنه في الـوقت ذاته ذو قيمـة علاجيـة كبيرة[١٤] .

وقد نوه ، منـذ ذلك الحـين ، بالـدور المحتمل لعقـدة الخصاء أو للشعور بالذنب في تثبيت موقف جنسي سلبي « أصلي » (الأصح هنا أن نقول « طفلي »[١٥]) وفي المغالاة فيه .

ونظراً إلى أنَّ اهتمام الأوساط التحليلية النفسية اتجه إلى ميادين أخرى ، فقد بقيت المشكلة محصورة في تلك الحدود ، لسنوات عديدة . ثم استأنف آدلر وشتيكل وسادجـر وفيدرن ، ومؤخـراً ث . رايك[١٦] ، دراسة المازوخية السادية .

وقد عاد فيدرن ، على وجه التعيين ، إلى التشديد على ذلك التناقض

---

(١٤) لقد أمكن لجميع المحللين النفسيين أن يلاحظوا تراجع الظواهر المازوخية ثم إختفاءها ، خلال التحليل النفسي ، تدريجياً ، طرداً مع تحرير الميول السادية من كبتها .

(١٥) ملاحظة من الكاتب .

(١٦) ث . رايـك : **المازوخيـة لدى الـرجل العصـري** MASOCHISM IN MODERN MAN منشورات : فرار وشتراوس وشركائهما . نيويورك ١٩٤١ .

بين الإيجابي والسلبي . فقد سعى ، في مقال مستفيض ، إلى إثبات أن المازوخية لا تفعل شيئاً سوى أنها توقظ غرائز جزئية من الجنسية الطفلية ، يلازمها الطابع السلبي . فكل إشباع ناجم ، مثلاً ، عن تنبيه لمسي يغدو ، حسب رأيه، مصدراً لإشباع جنسي سلبي . هذه هي ، بالتحديد ، حالة الأعضاء المجوفة : المثانة ، الشرج ، وفيما بعد ، الفرج والمهبل . من هنا كان طابع السلبية المهيمن على الجنسية الأنثوية وصلة قرباها بالمازوخية[١٧] .

وبالمقابل ، فإن كل تنبيه محرك يمكن أن يغدو مصدراً لاشباع إيروسي ذي طابع إيجابي ، عدواني ، وبالتالي ذكوري .

لم يعد فرويد مباشرةً إلى مسألة المازوخية إلا في عام ١٩١٩ ، وذلك في دراسته حول تخييلات الجَلْد التي جعل عنوانها : « طفل يُضْرَب »[١٨] .

فنحن نعلم كم تكثر ، لدى المرضى العصبيين ، أحلام اليقظة هذه ، شبه الواعية ، التي يتصورون في أثنائها مشاهد يُمكن أن تلخص على الوجه التالي : « شخص ما ـ في أغلب الأحيان طفل ـ يُضْرَب » . تبدو هذه التخييلات انعكاساً من انعكاسات النزاع الأوديبي . وبصددها وجد فرويد نفسه منقاداً إلى التأكيد مجدداً على أن المازوخية تنجم عن تحويل للسادية . لكنه ، زيادة على ذلك ، أوضح بجلاء ما الشروط التي يمكن أن يحدث فيها هذا التحويل . كتب يقول : « إن الشعور بالذنب هو الذي يحول دائماً السادية إلى مازوخية » . وهذه هي المرة الأولى التي تصاغ فيها ، على هذا النحو الصريح الجازم ، الفرضية التي أثبتت فيما

---

(١٧) فيدرن ، مقالات في تحليل السادية والمازوخية BEITRAGE ZUR ANALYSE DES SADISMUS UND MASOCHISMUS. في « المجلة الدولية للتحليل النفسي » ، ١٩١٣ ـ ١٩١٤ .

(١٨) انظر الترجمة العربية في العصاب ، الذهان ، الانحراف الجنسي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٤ . « م » .

بعد خصوبتها العظيمة في مضمار المباحث التحليلية النفسية ، أي فرضية الدور الذي تلعبه عقدة الشعور بالذنب في انقلاب النزعة السادية العدوانية الى نقيضها : المازوخية السلبية .

إن تخييل الجَلْد ، وهو الشائع على نطاق واسع لدى المرضى العصبيين ، عن طفل يُضْرَب ، يكشف لدى المريض عن الرغبة المكبوتة في أن يضربه أبوه. وفي هذه الحالة ، يمثل الأب موضوع الميول الجنسية الأوديبية ، بالنسبة إلى البنت كما بالنسبة إلى الصبي . ولدى هذا الأخير ، تنشأ العقدة المسماة بـ « عقدة أوديب المعكوسة » ، وهي عظيمة الأهمية من منظور مسائل عديدة نتطرق إليها في هذا البحث .

ويتراءى لنا هنا أنه ، عن طريق هذا التخييل ، تنوب رغبة الطفل في أن يضربه أبوه مناب رغبته (المكبوتة) في أن يحبه هذا الأب . وتترجم هذه الرغبة عن نفسها في صورة عقاب ، وكأنما المطلوب من هذا الأخير ، في الوقت ذاته ، إزالة شحنة الذنب التي تتضمنها الرغبة بحكم أصلها الأوديبي . من هنا ينجم الطابع السلبي ، الأنثوي ، العقابي الذاتي ، في التخييلات المازوخية بوجه خاص ، وفي المازوخية بوجه عام .

منذ صدور « **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** » ، راح فرويد يلمح إلى أن العدوانية لا تستطيع بمفردها تفسير المازوخية . فبإدخاله عنصر الشعور بالذنب ، وبإظهاره بوجه خاص أن الموقف المازوخي يمكن أن يمثل واحدة من الكيفيات الاستجابية للحياة النفسية في مواجهة عقدة أوديب ، بدأ يوضح المسألة ويجلوها .

إذا ما سلَّمنا ـ وسنرى من خلال دراستنا للمازوخية الشهوية أن هذا معقول ومقبول ـ بأن نشأة التخييل المازوخي في العديد من الحالات لا تختلف عن نشأة الحاجة إلى التعنيف الواقعي الذي ينزله المازوخي المنحرف بنفسه ، أقول : إذا ما سلَّمنا بذلك أدركنا كيف ولماذا يمكن ، عن طريق سيرورةٍ نكوصيةٍ ، لذاك الذي يطلب الضرب والإذلال أن يجني من ذلك مغنماً .

وسنفهم كذلك أن التثبيت على شكل أو آخر من أشكال الإشباع الجنسي الطفلي لا يعني ، على الفور ، أن هذا الإشباع قد وجد قط . فالتاريخ السريري للحالة المرضية يثبت أن وجود مثل الإشباع نادر .

ويمكن لنا أخيراً أن نتصور أن الرغبة في تلقي العقاب كافية وحدها لطلبه . بل ربما أمكننا القول إن العقاب المتلقى فعلياً لا يتلبس قيمة رضيّة[١٩] أو تثبيتية حقيقية إلا بقدر ما تدفع صراعات الطفل به إلى طلب العقاب .

لكن عمل فرويد لم يجئنا بعناصر نفيسة في المضمار المحدود للانحراف المازوخي وحده . فإثباته أن المازوخية يمكن أن تمثل واحدة من الكيفيات التي ينحل فيها النزاع الأوديبي ، كان لا بد أن يؤدي فيما بعد إلى تصورات جديدة عن الجهاز النفسي،وكذلك إلى تفسيرات جديدة لظاهرات مرضية عصبية نفسية . وهكذا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نتحول إلى التاريخ العام للتصورات التحليلية النفسية قبل أن نعود إلى تاريخ المازوخية .

لقد كان التحليل النفسي درس خلال العشرين سنة الأولى لوجوده ، على ضوء الصراعات العصابية بوجه خاص ، الميول اللاشعورية التي يطال فيها الكبت القوى المشتقة من الغريزة الجنسية ، أي بكلمة واحدة : الميول المكبوتة .

بعد ذلك ، أتى دور القوى الكابتة . فقد أدت دراسة هذه الأخيرة إلى نشوء سيكولوجيا جديدة للأنا .

وهذا التحول في وجهة الاهتمام في أبحاث فرويد قد تلبس أهمية كبيرة إلى حد أن بعضهم أخذ يتكلم سلفاً عن « علم تحليل نفسي جديد » . وفي الحقيقة ، إن الأمر هنا لا يعدو أن يكون تطوراً ، عظيماً في استمراريته ، للفكر ذاته .

---

(١٩) رضيّة : نسبةً إلى الرضة TRAUMATISME وهي الجرح النفسي . « م » .

غالباً ما يدهشنا ، حينما نتصفح تاريخ الأفكار التحليلية النفسية ، أن نكتشف أن تصوراً بعينه من التصورات تلبس في وقت من الأوقات أهمية عظيمة ـ مبررة أصلاً ـ لم يكن غائباً في الحقيقة ، وإن في صورة فرض أو مبدأ ، عن أبحاث فرويد الأولى .

لقد لفت جونز يوماً الانتباه ، في محاضرة له أمام الجمعية التحليلية النفسية الباريسية عن الموضوع الذي يستأثر هنا باهتمامنا ، إلى أن : « عمل فرويد بأجمعه ، سواء أفي أقدم كتبه أم في أحدثها ، تهيمن عليه استمرارية صارمة ، حتى فيما يختص بالأنا الأعلى ، بحيث أن المذهب بجماعه يؤلف كلاً عضوياً واحداً ، هو قيد النمو والتوسع الدائمين »[٢٠] .

على هذا النحو راح فرويد ، منذ عام ١٩١٥ ، ينوه في مقاله عن النرجسية[٢١] ، بأهمية القوى الكابتة التي سيقيض لها فيما بعد أن « تتجسد » في الأنا الأعلى .

لقد سجل ذاك المقال انعطافاً في تطور التصورات المتعلقة بتوزيع الغرائز الليبيدية ، التي كان فرويد في أول الأمر يرى أنها متجهة دوماً وبأكملها إلى الخارج ، إلى العالم الموضوعاني[٢٢] .

إن دراسة الخبل المبكر ، على وجه التعيين ـ ودراسة سائر الأعصبة المسماة بالأعصبة النرجسية ـ قد حملت فرويد على التسليم مع فيرنزي بأن الغرائز الليبيدية يمكن ، في بعض الشروط ، أن ترتد نحو الشخص ذاته وتتركز على الأنا الذي يصبح على هذا النحو هو نفسه موضوع الليبيدو (النرجسية الثانوية) .

---

(٢٠) إ . جونز ، **تصور الأنا الأعلى** ، المجلة الفرنسية للتحليل النفسي ، ١٩٢٧ ، المجلد ١ .

(٢١) س . فرويد ، **النرجسية: مدخل** (انظر الترجمة العربية في **الحياة الجنسية** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ١١٣ ـ ١٤٨ . « م ») .

(٢٢) الموضوعاني OBJECTAL نسبة إلى الموضوع ، موضوع الليبيدو . ولم نقل « موضوعي» تحاشياً للخلط مع «OBJECTIF» « م » .

إن وجود إمكانية التوظيف الليبيـدي هذه سيفيـدنا فيمـا بعد في فهـم بعض المشكلات المعقدة التي تطرحها المازوخية ، وعلى وجه التعيين مشكلة طابعها الليبيدي .

لنعد الآن إلى القوى الكابتة ولنذكر أن فرويد بـيّن في ذلك المقـال عينه كيف أن ما كان لا يزال يسميه « ضميراً » ، والذي سيغدو فيمـا بعد هو **الأنا الأعلى** ، يمثل استبطاناً للسلطة النقدية ولنواهي الوالدين . وقـد فسر سلفاً كيف أن هـذا الاستبطان يمكن أن يحـدث تحت تأثـير الخوف ـ وبالتحديد الخوف من فقدان حب الوالدين ، أو كذلك الخوف من عقاب جنسي (عقدة الخصاء) . لكننا لا نستطيع أن نستسلم لإغواء متابعة تحليـل دراسات فـرويد الـرائعة تلـك ، بدءاً من « النرجسيـة : مدخل»، ومروراً بـ « الحداد والسويداء »[٢٣] ووصولاً ، مع « مـا وراء مبدأ اللذة »[٢٤] و « الأنـا والهذا »[٢٥] ، إلى التصـور التحليلي النفسي الحالي للجهاز النفسي . ولا مناص لنا ، احتراماً لإطار هذا البحث ، من الاكتفـاء باستخـلاص المفاهيم المتعلقـة بالأنـا الأعـلى ـ وهي مفـاهيم ضرورية لفهم مظهر بأكمله من المازوخية .

فالطفل الذي يرزح تحت وطأة عقدة أوديب ، والذي يريد أن يبعد عنه الخوف من الخطر (فقدان حب الـوالدين ، العقـاب ، الخصاء) ، وهو خـوف يلازم النزاع الذي يمر به ولا يستطيع التغلب عليـه ، يجد نفسه منساقاً من جراء لعبة التماهي ، وهي لعبة بارعة تعود عليه بالنفع العميم ، إلى أن يستبطن ويستدمج ويتبنى جميع الانتقادات والنواهي ـ

---

(٢٣) فرويد، TRAUER UND MELANCOLIE (١٩١٦ـ ١٩١٧) . (انظـر الترجمـة الـعـربيـة في **علـم مـا وراء النفس** ، الطبقـة الثـانيـة ـ دار الطليـعـة بيـروت ١٩٨٢ . « م ») .

(٢٤) فرويد ، **ما وراء مبدأ اللذة** (١٩٢٠) .

(٢٥) فرويد ، **الأنا والهذا** (١٩٢٣) ،مباحث في التحليل النفسي ، منشورات بايو ، باريس .

المفصح عنها أو المفترضة ـ الصادرة بصورة رئيسية عن الوالد الذي من جنسه نفسه ، والذي يرى فيه الطفل العقبة التي تحول دون تحقيق حاجاته الجنسية .

غير أن الخوف والحب ، اللذين يستشعرهما الطفل تجاه الشخص الواحد ، يحولان هذا الخصم إلى حليف : عندئذٍ تتأتى للطفل القدرة على المقاومة، أي على كبت رغباته المحرمية[٢٦] . فهذا الخصم ، الصائر إلى حليف ، والمبطَّن بحَكَم ، إن لم نقل بعدو ، يمثل ، في حالة الصبي مثلاً ، أباه الذي يحبه ، والذي يحترم حقوقه وسلطته (من هذه الصورة يتخذ حليفاً له) ، والذي يخشاه ويرهبه في الوقت ذاته لأن الغيرة تحمله على كرهه (من هذه الصورة يتخذ عدواً له) . و « صفات » هذا الصديق ـ العدو (الازدواجية) ، المستبطنة عن طريق عمل التماهي والمستدمجة في « أنا » الصبي ، ستشكل في المستقبل جزءاً لا يتجزأ من نفسيته الطفلية . وهذا ما يسميه فرويد بالأنا الأعلى ، وريث عقدة أوديب .

وبالفعل ، إن ظهور هذا الأنا الأعلى هو القرينة على أفول عقدة أوديب . وعمل هذه الهيئة النفسية الجديدة ، التي تنقد وتحظر على منوال الأب الميول والنوازع الجنسية ، يؤدي إلى نزع الصفة الجنسية عقب الكبت عن الرابطة التي تربط الصبي بأمه ، وبالتالي إلى إزالة خوفه من أبيه ، ومن ثم إلى إخماد نار النزاع .

إن هذا السلم « سلم مسلَّح » كما يقال : فالعدو لم تتم إبادته بعد ؛ وإنما أرغم فقط على التقهقر إلى ما وراء الحدود . هذا يعني أن الميول الجنسية المحرمية قد كبتت ليس إلا، ولم تتم تصفيتها ؛ فهي قادرة من ثم على الظهور مجدداً في أي وقت كان .

لكن الأنا الأعلى سيبقى ساهراً . إنه سيتلبس أهمية أكبر وسيوسع سلطته . إذن سيتابع نقده ، إباحته أو حظره ، مدحه أو ذمه

---

(٢٦) المحرمية : INCESTUEUX : نسبة إلى حب المحارم . « م » .

لكل ميل جنسي ، على غرار الوالدين نفسيهما .

على هذا النحو يصبح النزاع الخارجي في أصله ، والناجم عن التلاقي بين النوازع الليبيدية التي يفصح عنها الطفل وبين نواهي الوالدين التربوية ، نزاعاً داخلياً بين الدوافع الغريزية الصادرة عن « الهذا » (اللاشعور الأولي) والهيئة النقدية ، أي الأنا الأعلى . وتتجلى هذه الوظيفة النفسية بمظهرين : واحدهما شعوري ، هو « الضمير » الذي إذ يتبع التطور العام للفرد يحفز ويغني صبواته الأخلاقية التي تعتبر سامية بقدر أو بآخر حسب سلم القيم المعتمدة.أما المظهر الآخر للأنا الأعلى ، والذي يمثل الجانب الأكثر أهمية في علم الأمراض ، فسيبقى لاشعورياً ؛ ويمكن أن يغدو أداة عديمة الشفقة للعصاب .

لذلك ينبغي أن نخص هذا المظهر بمزيد من عنايتنا . وبالفعل ، إن هذا الجانب اللاشعوري من الأنا الأعلى سيبقى طفلياً ، وبذلك لن يعرف سيرورة التطور التي ستمر بها الشخصية بجماعها . ومن ثم ، سيبقى لاعقلانياً .

يترتب على ذلك أن قسماً من الشخصية سيتخذ إزاء الشخصية بجماعها ـ وعلى وجه التعيين ازاء الميول الجنسية ـ موقفاً طفلياً ولاعقلانياً.هذا يعني أن جانباً من الأنا الأعلى سيميل إلى معاملة غرائز الراشد الجنسية بالطريقة ذاتها التي قد يعامل بها الوالدان أو المربون هذه الغرائز ذاتها لدى الطفل : عن طريق حظرها أو معاقبتها . ومن اليسير علينا ، هنا ، أن نجري بعض مقاربات تعيدنا إلى لب المشكلة التي ندرسها والتي بدا علينا وكأننا نبتعد عنها . أفلا يتبدى المازوخي طفلياً في حياته الجنسية ؟ أفليس الإشباع محظوراً عليه ؟ أولا ينتظره العقاب دائماً ؟ إن الأنا الأعلى لا يتصرف بطريقة أخرى . من الممكن إذن أن يكون الأنا الأعلى هو مصدر الحاجة التي تساور المازوخي إلى التألم ، ونشدان العقاب .

* * *

لقد رأينا أن ما يتحكم بتطور الأنا الأعلى هو ، بالنسبة إلى الصبي ، الخوف من الأب ، وبالنسبة إلى البنت ، الخوف من الأم .

ولكن أليس هذا الخوف مشتقاً ، بوجه خاص ، من العدوانية التي يستشعرها الطفل إزاء ذاك الذي يخافه ويرهبه ؟ . هذا الخوف نفسه يمكن ، بعد أن يتم استبطانه ، أن يساور الأنا في زمن لاحق حين تدق ساعة مواجهته للأنا الأعلى .

فصرامة هذا الأخير المفرطة ، أو العقوبات التي يمكنه أن يفرضها في صورة قصاص ذاتي ، تتيح للأنا أن يفلت من إسار ذلك الخوف المستبطن الذي يناظر في الواقع خوف الخصاء . نحن نرى إذن كيف أن العدائية والعدوانية اللتين تساوران المريض في البداية ضد الغير ، ثم لا تلبثان أن ترتدا عليه هو ذاته ، يمكن أن تستمرا في صورة عقاب ينزله بنفسه هو نفسه . أفليس هذا واحداً من مظاهر المازوخية ؟ .

لقد بتنا الآن أقدر على فهم ذلك الرابط بين السادية والمازوخية ، الذي طالما استرعى انتباه المراقبين جميعاً .

فقد توافرت لنا معرفة بواحدة من كيفيات تحول السادية إلى مازوخية . فالأنا الأعلى يبدو لنا وكأنه الدرب الذي يسلكه الدافع الغريزي العدواني ليرتد نحو الشخص ذاته في صورة عقاب .

لكن الكراهية التي تساور الطفل إزاء رفض الإشباع في أثناء النزاع الأوديبي ، يمكن أن تساوره من جديد في مراحل أخرى من نمو الليبيدو ، عندما يصطدم باستحالة إشباع نوازعه الليبيدية .

ليس من المستبعد أن يسلك جزء على الأقل من هذه الكراهية الطريق ذاته ، ويضطر ، بحكم من أنه مكبوت ، الى الارتداد نحو الشخص ذاته ، ويكون على هذا النحو هو الأصل في المازوخية . ويمكننا أن نلخص ما قلناه لتونا على النحو التالي : إن كل حظر أو رفض للإشباع الليبيدي يطلق العنان لمشاعر عدوانية (قد تبلغ هذه السيرورة أوجها

عن طريق عقدة أوديب) . فهذه العدوانية لا تستطيع ، بوجه عام ، أن تنصب على المواضيع المستهدفة (لأنها مواضيع مهابة ومحبوبة) . عندئذٍ ترتد ، بعد أن يتم كبتها ، نحو الشخص ذاته في صورة المازوخية .

منذئذٍ يعامل المازوخي نفسه بالطريقة العدوانية ذاتها التي كان سيعامل بها الموضوع ، لو أمكنه ذلك . هكذا تبدو المازوخية تعبيراً عن العدوانية . ومن ثم ، فإن البحث عن أصل المازوخية يعني في الوقت عينه البحث عن أصل السادية .

خلال الفترة الطويلة التي لم يكن فرويد والمحللون النفسيون الآخرون في أثنائها قد تبحروا بعد في مسألة الغرائز ، كانت السادية لا تزال تعتبر دافعاً غريزياً جزئياً .

فهل كان هذا الأخير ، نظير غيره من الدوافع الغريزية الجزئية ، يؤلف فعلاً جزءاً من الغريزة الجنسية ؟ هل كان يواكبها بإخلاص في نموها وتطورها ، بدون أن يصبح بالفعل جزءاً لا يتجزأ منها ؟ ما كان من الممكن بعد الإجابة عن هذه الأسئلة في ذلك الزمن . وبانتظار ذلك ، اكتفى الباحثون بوصف تظاهرات الدافع الغريزي السادي في إطار نمو السيرورة الجنسية : من الطور الفموي ، إلى الطور الشرجي ـ السادي بوجه خاص ، وصولاً إلى الطور التناسلي .

لقد وجد فرويد نفسه ، فيما بعد ، مسوقاً إلى تعريف السادية (بمختلف أحوالها : من كره ، وعداوة ، وقساوة ، وعدوانية) بأنها غريزة قائمة في ذاتها ، ولها أصل مستقل . وكانت بعض الوقائع السريرية قد أرغمت فرويد ، قبل بضع سنوات ، على أن يتبحر في مسألة الغرائز في محاولة منه لتحديد أصولها وعلاقاتها[٢٧] .

---

(٢٧) فرويد : **المشكلة الاقتصادية للمازوخية** (١٩٢٤) (راجع الترجمة العربية في كتاب **العصاب ، الذهان ، الانحراف الجنسي** . « م ») .

وقد تمخضت هذه الأبحاث عن نظرية تحليلية نفسية حقيقية في الغرائز ، نظرية حملت فرويد على إجراء تعديلات على بعض تلك التصورات السابقة ، وبصفة خاصة ما يتعلق منها بأصل المازوخية .

وقد حاول كل من الكسندر [٢٨] ، ورايك[٢٩] ، ونونبرغ[٣٠] ، وإ. فايس[٣١] وغيرهم ، تطبيق هذه التصورات الجديدة في مجال الطب السريري ، حتى ولو كان ثمن ذلك تغيير النظرية التفسيرية للأعصبة بأكملها . ولا يبدو أن محاولتهم قد أثمرت . بل ربما أسفرت بالرغم من بعض أبحاث عظيمة الفائدة عن مزيد من الالتباس والبلبلة .

كان من الممكن حتى ذلك الحين تصور العصاب ، بصورة خطاطية ، على أنه ناجم عن النزاع بين الغرائز الجنسية والواقع الخارجي (الحظر) . وهكذا بدت الأعراض العصابية وكأنها تمثل حلولاً توفيقية أو تسويات تسمح بإشباعات ليبيدية مرفوضة .

غير أن إقحام غريزة تدميرية أولية غيّر ذلك المخطط ، فصار النزاع ناجماً لا عن تعارض بين الغرائز الليبيدية والحظر الصادر عن العالم الخارجي (والمستبطن في صورة الأنا الأعلى) ، بل عن تعارض بين الغرائز الجنسية وغرائز تدمير الذات (الحاجة إلى العقاب)[٣٢] .

وقد سُحبت المازوخية ، بصفتها سيرورة عقاب ذاتي ، في أدبيات التحليلي النفسي الفرنسية في تلك الحقبة ، على جميع التظاهرات

---

(٢٨) الكسندر ، **التحليل النفسي للنفسية الكاملة** . المنشورات الدولية للتحليل النفسي ، فيينا ،م ا .

(٢٩) رايك ، **الإقرار والإكراه والحاجة إلى العقاب** . المصدر نفسه ، ١٩٢٥ .

(٣٠) نونبرغ، **الشعور بالذنب والحاجة إلى العقاب** . المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٢٦ .

(٣١) فايس ، **غريزة الموت والمازوخية** ، إيماغو ، ١٩٢٠ .

(٣٢) على وجه التعيين لدى ف . الكسندر وث . رايك .

العصـابيـة النفسيـة (أبحـاث ر . لافـورغ مـع هـ . كـوديـه[٣٣] وأ . هينـار[٣٤])، وربما كان في ذلك شيء من الشطط .

أما فرويد نفسه،فعلى الرغم من حرصه على التذكير غير مرة بأنه، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، لم يفارق قط مضمار الفروض النظرية ، فقد أوقع في البلبلة عدداً كبيراً من اولئك الذين حـاولوا التقيّـد بنظريتـه في غريزة الموت بكل مستتبعاتها[٣٥] . ولكن يجب أن نتذكر أن فكره غالباً ما كان يبعث على الدهشة ويزرع البلبلة في النفس قبـل أن يُفهم في نهايـة المطاف .

على الرغم من الصعوبات التي تبرز عندمـا نريـد الأخذ بتصـور غريزة العدوان أو غريزة الموت بتمامه ، وعلى الأخص إذا ما حاولنا أن نضع هذا التصور على محك الملاحظة السريرية ، لا يجـوز لنا أن ننسى أن نقطة الانطلاق بالنسبة إلى فرويد ذاته هي دائماً الملاحظة السريرية ، وأن عمله ، منذ اكتشافه الاستجابة العلاجيـة السلبية إلى زمن تـأليفه **قلق في الحضارة** ، ينمّ عن استمرارية تدعو إلى الإعجاب .

أما فيما يتعلق بالمازوخيـة ، فعلى حـين أن فرويـد كان في مقـالـه « الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية »[٣٦] ـ وهو المقال الـذي استهل به أبحاثه في الغرائز ـ اعتبر المازوخية ظاهرة ثانوية ومشتقة من السادية ، فإن تصورات جديدة قد حملته فيما بعد على اعتبارها ظاهرة أولية . فلم تعد تلـك العدوانيـة المشيحة عن المـوضوع والمـرتدة نحـو الشخص ذاته هي المازوخية ، وإنما بـالعكس . فبحسب هذا التصـور

---

(٣٣) هـ . كوديه ور . لافـورغ . **الفشل الاجتمـاعي والحاجـة اللاشعـورية إلى معـاقبة الذات** . المجلة الفرنسية للتحليل النفسي ، المجلد ٣ ، العدد ٣ .

(٣٤) هينار ور . لافورغ ، **سيرورات معاقبة الذات** ، في محـاضرة أمـام المؤتمر السـادس للمحللين النفسيين باللغة الفرنسية ، باريس ، ١٩٣١ .

(٣٥) انظر الهامش رقم (١) في الصفحة ٦ من هذا الكتاب .

(٣٦) راجع الترجمة العربية لهذا المقال في « **علم ما وراء النفس** » مصدر مشار إليه آنفاً . « م » .

الجديد ، تنبجس من غور المادة الحية نزعة أولية « عضوية » إلى تدمير الذات . وإن قسماً من هذه النزعة التدميرية يُسقط على العالم الخارجي في شكل عدوانية ؛ أما القسم الآخر فيستمر ، بصفته غريزة موت ، في تأليف جزء من الشخصية ليكون بذلك بمثابة جذر للمازوخية الأولية .

أما ظاهرة ارتداد العدوانية نحو الشخص ذاته فتستمر في تظاهرها ، وإنما هذه المرة لتؤلف مازوخية ثانوية تنضاف إلى المازوخية الأولية .

ونحن لا نستطيع ـ كما هو متوقع ـ أن نتحقق سريرياً من هذه الصورة الثانوية للمازوخية . وإذا ما عاودنا هذه المرة الانطلاق من هذه النقطة من النظرية ، فسوف نرى أن ما من شيء قد تغير فيما يتعلق بالأواليات التي درسناها سابقاً والتي تنطوي وحدها على فائدة سريرية وعلاجية . وعلى ذلك ، سنكتفي بتلخيص مقال فرويد في « مشكلة المازوخية » .

يبدأ فرويد ببيان صعوبة التسليم بوجود حاجة إلى التألم لدى الإنسان ، في شكل مازوخية ، إلى جانب وظائف مبدأ اللذة ـ الألم الذي يفترض فيه ، بصفته « حارس الحياة » ، أن يعارض هذه الحاجة إلى التألم .

إن العلاقات بين غرائز الموت وغرائز الحياة الإيروسية (الليبيدية) هي وحدها القادرة على تفسير هذه المشكلة المعقدة ، إذا ما سلّمنا بأن جانباً من غريزة الموت قد طرأ عليه تحول ما حتى صار هو مبدأ اللذة . والمفروض أن يكون مرد هذا التحول ، في هذه الحال ، إلى فعل الغرائز الحيوية ، الليبيدية ، في غريزة الموت .

على هذا ، يمكن القول إن جانباً من هذه الأخيرة يبقى في خدمة النزعة التي تصبو إلى إرجاع كل مخلوق حي إلى حالة السكون ، أي الموت (هذا هو المبدأ الذي سماه فرويد ، من بعد بربارا لاو ، « مبدأ النيرفانا ») .

أما الجانب الآخر فيصبح ، تحت تأثير غرائز الحياة ، مبدأ لـذة يساند الأول مع معارضته له ظاهرياً ، ذلك لأنـه يهدف هـو الآخر إلى تأمين الطمأنينة والسكينة للكائن الحي ، عن طريق إزالة حـالة التـوتر التي هي سمة مميزة للألم .

إن تشابك هذه الغرائز الليبيدية والتدميرية قـد يكون لـه مفعولُ « تمـوينٍ » جزئي لغـرائز المـوت عن طريق النـوازع الليبيديـة . « إن الليبيدو هو الذي يتصدى لهذه الغريزة التدميرية ، وعلى عاتقه تقع مهمة تجريدها من أذيتها » .

إلا أن فرويد لم يبيّن عن أي طريق يتم إحراز هذه النتيجة .

ولكن ما بدا واضحاً هو أن « المازوخية الشهوية ـ الأولية لا تعدو أن تكون من هذا المنظور رسابةً وشاهداً على ذلك الطور من النمو الذي تم فيه التمازج بين غريزة الموت وغريزة الحياة ، ذلك التمـازج العظيم الأهمية للحياة » .

وسيقول في موضع لاحق : « إن المازوخية الشهويـة تمر بجميـع مراحل نمو الليبيدو وتستعير منها مختلف تلك المظاهر النفسية » .

« إن خـوف الطفل من أن يلتهمـه الحيوان ـ الطـوطم (الأب) يرجع أصلـه إلى التنظيم الفموي البـدائي ؛ فرغبـة الطفل ، في الطـور الشرجي ـ السادي اللاحق ، في أن يضربه أبوه ، أي تصوره للخصاء وان نفاه فيما بعد ، هذه الرغبة تمثُل في مضمون التخييلات المازوخيـة كـرسابـة من طور التنظيم القضيبـي ؛ أمـا مـواقف الـدور السلبي في الجمـاع والإنجاب ، وهمـا من مميزات الأنـوثة ، فهي صـادرة بطبيعة الحال عن التنظيم التناسلي » .

هكـذا تبدو هـذه المازوخيـة الأولية وكـأنها مقـوَّم من مقـوِّمـات الليبيدو . ولكن كيف تصبح هذه المازوخية مازوخيةً شهويةً ، أو « كيفيَّةً من كيفيّات الإثارة الجنسية » ، أو كذلك انحرافاً جنسياً ، أي مقوِّماً غير

سوي من مقومات الليبيدو ؟ هذا ما لا يوضحه فرويد .

أما الشكل المدروس الثاني من المازوخية ، ونعني المازوخية الأنثوية ، فقد ارتأى فرويد أنه يرتكز هو الآخر إلى « عامل أولي شهوي ، هو لذة التألم » .

لقد عنى فرويد بالمازوخية الأنثوية سلوكاً جنسياً ـ نفسياً يميز « طبيعة المرأة » ، وإن أخذ به أيضاً بعض المعصوبين من الرجال . وإن تخييلات هؤلاء الرجال المازوخيين ، الذين يعانون من عنةٍ أو من شبه عنة جنسية ، تُتقارب من السلوك الواقعي للمازوخيين المنحرفين : فهي تمثل موقفاً طفلياً وأنثوياً نموذجياً : فهم يتصورون أنفسهم موثقين ، مقيَّدين ، تحت رحمة شخص ما ، يضربهم ، ويهينهم ، ويذلهم .

ومع أن فرويد أشار إلى الدور الأساسي للإحساس بالذنب في هذا الشكل من المازوخية ، غير أنه لم يوضح لماذا يعتبر هذه الأخيرة أولية ، ولماذا يميزها عن ذلك الشكل المازوخي الثالث ، أي المازوخية المعنوية .

في هذه المازوخية المعنوية ، يطلب الإنسان لاشعورياً العقاب على جميع الأصعدة ، فيبدو بذلك وكأنه يبتعد بمازوخيته عن الصعيد الجنسي . ويتصور فرويد هذا الضرب من العصاب المازوخي على أنه ناجم فقط عن حاجة الطفل إلى العقاب .

أن يُعاقب الطفل من قبل الأب فهذا معناه ، نكوصياً ، أن يكون الطفل في موقف جنسي سلبي إزاء أبيه .

هكذا ، يمثل هذا الشكل من المازوخية تنشيطاً لعقدة أوديب المعكوسة . ومن ثم فإن قسماً لا بأس به من الضمير ، من الأنا الأعلى ، لدى مريض كهذا ، سيؤدي إلى إعادة تجنيس RESEXUALISA-TION نكوصي للأخلاق .

ولقد كان مقال « المشكلة الاقتصادية للمازوخية » هو آخر ما كتبه فرويد في الموضوع الذي ندرسه هنا .

فإن أعماله اللاحقة : **قلق في الحضارة** أو **محاضرات جديدة في التحليل النفسي** لا تتضمن سوى تأكيدات مجددة على وجهات نظره ، دون أن تقدم لنا أي شيء جديد .

لقد ألمعنا ، على نحو عابر ، إلى أبحاث رايك ، الكسندر ، وغيرهما ، وبالأخص مدرسة لندن للتحليل النفسي التي بذلت جهداً مرموقاً في تطبيق مفاهيم نظرية غريزة الموت على بنية الأعصبة والأذهنة .

ونحن نعتقد أن هذه الأدبيات قد زرعت بعض الالتباس والغموض في الأوساط التحليلية النفسية . وقد وقف منها ف . رايش[٣٧] على كل حال موقف المعارضة الشديدة . فقد حاول أن يثبت أن المازوخية لا تمثل تظاهرةً من تظاهرات الغرائز التدميرية ، بل بالأحرى استجابة دفاعية ضد حصر الخصاء . أما بالنسبة إلى أصل السادية ، خزان المازوخية ، فهو يرجعه إلى إطلاق العنصر العدواني في الليبيدو ، كلما اصطدم هذا الأخير برفض إشباع .

وتبدو لنا هذه التصورات أقرب من غيرها إلى وقائع الملاحظة السريرية ، كما سيظهر لنا ذلك في القسم الثاني من هذا البحث .

إذا ما أردنا الآن أن نستخلص زبدة هذا الاستعراض لتاريخ المازوخية ، ففي مقدورنا أن نقول ما يلي :

إن المازوخية ، مع أنها قديمة قدم الزمن ، لم يجر تعريفها بأنها شذوذ جنسي إلا في القرن التاسع عشر مع كرافت ـإيبينغ الذي سماها باسمها .

لقد أرهص هذا العالم بقرابتها بنقيضها ، السادية ، غير أنه لم

(٣٧) ف .رايش : **الطبع المازوخي** ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٣٢ ، المجلد ١٨ .

يـوضـح هـذه العلاقـة . ومن ثم لم توضـع صياغـة في تلك الحقبـة لا للأواليات المسبِّبة للمرض ولا للتظاهرات السلوكية « الأخلاقية » .

ثم جاءت الأبحاث التحليلية النفسية لتثبت أن المازوخية تشتق من القوى العدوانية بنتيجة ارتداد هذه الأخيـرة نحو الشخص ذاتـه . وقد أماطت هذه الأوالية اللثام عن عقدة الذنب ومفعولها : حاجة المـازوخي إلى أن يُعاقب ، وبالتالي أن يتألم .

لما أراد فرويد بعد ذلك أن يعود إلى أصول المازوخية ، وجد نفسه مسوقاً إلى اعتبارها غريزة أولية عن غرائز تدمير الذات ، وهذا تصور لا يقدم في رأينا أي عنصر صالح للاستعمال لا في المجال السريـري ولا في المجال العلاجي .

أما الطابع الأساسي للمـازوخية ، أي : كيف أن مـا يؤلم يصبح متعةً ولذة ، فلم يحظَ بأي تفسير معقول .

وربما لم يكن في ذلك شيء يدعو إلى العجب ، لأننا إذا نظرنـا إلى الأمر من منظور محدد : الألم = اللذة ، علَمنـا بأن المـازوخية بحصر المعنى لا وجود لها .

وليس في الأمر من مفارقة : فذلك هو بالفعل الانطباع الذي توحي به ، على ما يتراءى لنا ، وقائع الملاحظة السريرية ، والذي لم نجد مفراً في نهاية المطاف من الاخذ به .

(٢)
المازوخية الشهوية

نستعمل تعبير المازوخية الشهوية لنشير به مع فرويد[١] إلى الانحراف الجنسي المازوخي .

فالمريض ، المعاني من هذا الانحراف ، يطلب الألم بهدف الحصول على إشباعات إيروسية .

فهو يطلب ـ كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك ـ الإشباع الإيروسي ، عن سابق معرفة ودراية ، بعد أن يكون أقام بكامل وعيه رابطاً بين الألم والإشباع الذي يوفره له هذا الألم . وهذا هو وجه الاختلاف بين المازوخية الشهوية والمازوخية العصابية (المازوخية المعنوية) التي يجهل فيها المريض أسباب سلوكه . وطبيعة الألم ، الذي تساور المازوخي الحاجة إليه ، تختلف من شخص إلى آخر . وهناك ميل لدى الباحثين إلى الافتراض بأن ما يطلبه المازوخي بوجه خاص هو الألم الجسدي . وقد حاول شرانك نوتزينغ SCHRENCK-NOTZING ، على وجه التعيين ، أن يمحور المازوخية حول ظاهرة الألم البدني ، ولذلك سماها « حب الألم السلبي » ALGOLAGNIE PASSIVE[٢] . أما في الواقع فإن نشدان الألم المحض ، المنعزل ، نادر ، بله استثنائي . فكل دوره ، في أغلب الحالات ، أن يكمل وينجز عملية إخراج مسرحية متفاوتة التعقيد ،

---

(١) فرويد ، المشكلة الاقتصادية للمازوخية .

(٢) شرانك نونتزيغ : فن المعالجة بالايحاء DIE SUGGESTIONSTHERAPIE BEI GESCHLECHTSKRANKHEITE N. ، ١٨٩٢ .

يتخيلها المازوخي ثم يتطلبها كي يشعر بأنه في موقف خاص ومميز إزاء الموضوع الجنسي . وقوام هذا الموقف رضوخ ، وتبعية ، وإذلال . وعلى ذلك ، إن مصطلح المازوخية الذي كرسته اللغة اليومية يبدو في محله ، لأنه يشمل مجموع صفات هذا الانحراف .

ثمة وسائل عديدة يتوسل بها المازوخي للوصول إلى أهدافه . وتتراوح هذه الوسائل ، على الصعيد البدني ، بين الوخز بالإبر والطعن بالسكين ، مروراً بالضرب بالعصي ، والجلد بالسياط ، ووصولاً في بعض الأحيان إلى التظاهر بالشنق . ونحن نعتقد أنه ليس من المجدي أن نتوسع أكثر من ذلك لا في بيان كل ما استطاعت مخيلة المازوخي ابتكاره من المواقف ، ولا في الدلوف إلى الترسانة الحقيقية للآلات والأدوات المعقدة التي يستعملها في بعض الأحيان .

أما ما يبدو لنا أكثر إثارة للاهتمام فهو أن نستخلص من كل هذه الممارسات الغريبة هاتين الملاحظتين : فمن جهة أولى ، ومهما تكن الطريقة المستعملة لاستثارة الألم ، لا يجوز أن يتجاوز هذا الأخير درجة معلومة ، بل لا بد أن يبقى ، بكلمة واحدة ، محتملاً ؛ ومن جهة أخرى ، يساورنا انطباع بأن المنحرف يطلب بوجه خاص حالة الانتظار المتوجس ، والخوف من الألم .

وسوف نرى في موضع لاحق أهمية هاتين الملاحظتين . والمهم الآن أن نشير إلى أن الموقف إزاء الموضوع يمكن أن يتلون بألف لون آخر من حيث التفاصيل التي قد تبدو مضحكة ؛ ولكن بدون أن يتغير شيء في طبيعته : فهنالك امرأة (أو رجل في حالات إستثنائية) تتحلى إلى أقصى الحدود بـ «صفات» ترمز إلى العزيمة ، إلى السلطة ، إلى القوة الذكورية ، وغالباً ما تنتعل جزمةً وتشهر سوطاً ، وتأمر الشخص المعني بتنفيذ ما كان من الأوامر أبعدها عن المعقول ، وان تكن جميعها ترمي دائماً إلى وضعه في موقف مذلٍ ومخزٍ . فإن لم يمتثل ، انهالت عليه بالضربات .

بدون أن ندخل في تفاصيل هذه الممارسات ، يمكننا هنا أيضـاً ، مثلما سبق أن فعلنا ذلك عند دراستنا الألم ، أن ننوه بذلك العنصر المهم الذي سنعود إليه لاحقاً : أي الموقف السلبي والطفلي إزاء المـوضوع . وسنرى فيما بعد كيف أن العنصرين المميزين الآخرين : اي الانتظـار القلِق للألم ، وتقبله السلبي بطريقة طفليـة ، يسمحان بقـدر من الفهم لأواليات هذا الانحراف .

ثمة مجال للإشارة ايضـاً إلى أن بعض المازوخيـين يكتفون بـأن يتخيلوا في صورة استيهامات ايروسية مـا يحققه بـالفعل أولئك الذين تكلمنا عنهم لتونا . وهذا الشكل من المازوخية أقرب إلى العصاب منه إلى الانحراف . وستكون دراسته مفيدة ومثيـرة للاهتمـام لا لأنها تسمـح بإقامة رابط معين بين الانحراف والعصاب المازوخي فحسب ، بل كذلك بفهم أواليات هذا الأخير .

يخلق بنا ، تسهيلاً لفهم المازوخية ، أن ننظر إليها في بادىء الأمر من المنظور الذي يمكن وصفـه بالخـام (حب الألم) حيث يكون عنصر الألم البدني على صلة مباشرة باللذة الايروسية . ونادراً ما يحظى هذا الشكل من المازوخية بمن يصفه ، على الأقل في أدبيات التحليل النفسي .

عـلى أننا نلتقي هنـا مـرة ثـانيـة ، مثلمـا هي الحـال في جميـع الانحرافات الجنسية ، المغالاة المرضية في بعض العناصر الفيزيولوجية . وبالفعل ، تسمح لنا الفيزيولوجيا بفهم هذا التقارن المـدهش بين اللـذة والألم . أفلا تظهر بعض التجارب أن الانتقال من الإحساس باللذة إلى الإحساس بالكدر (الألم) يتم بصورة غير محسوسـة ، وأن التعارض بين الإحساسين كمي ، لا كيفي ؟

ليس من الصعب علينا كذلك ، على صعيد الايروسيـة والجنسية الخاص ، أن نلاحظ كم تظهر السادية ، وكذلك نقيضـها المازوخية ، من حيث أنهما كيفية « غريزية » ، بمظهر تعابير بيولوجية ممكنة عن كل فعل جنسي . فثمة مقوّمات سادية ـ عدوانية لدى الرجل ، ومازوخية ـ سلبية

لدى المرأة ، لا تجاوز درجات معلومة ، تترجم عن نفسها في المجامعة . أفما سبق للوقراسيوس[٣] أن وصف هذا المظهر من الحب ؟

لقد لفت كرافت - إيبينغ الانتباه إلى أن المازوخية تمثل مغالاة مرضية في الجنسية الأنثوية لدى الرجل ، وسنرى فيما بعد أن بعض أشكال المازوخية تتبدى على هذا النحو فعلاً على ضوء الأواليات التي اكتشفها التحليل النفسي .

من جهة أخرى ، إن ملاحظة التظاهرات التي لم تتطور بعد للجنسية الطفلية تكشف عن مدى تدخل القسوة في صورة غريزة جزئية عدوانية في جميع مراحل نمو الجنسية الطفلية . فالألم ، المُعانى أو المنزل بالغير على حد سواء ، يبدو مرتبطاً على الأخص بتظاهرات الطور التناسلي .

إن من الحقائق المعترف بها بوجه عام اليوم أن الألم الناجم عن عقوبات بدنية يتسبب في إثارة جنسية لدى الطفل[٤] . والصفة الشهوية للإليتين هي الأكثر بروزاً من هذا المنظور ؛ وإن لذلك أسباباً سيكولوجية سنتكلم عنها فيما بعد - ولكن هذه الحقيقة قد تجد سلفاً تفسيراً كافياً لها في ترابط المسالك العصبية . والصفة الشهوية للألم تتثلم وتتآكل في مجرى نمو الطفل إلى أن تختفي اختفاءً شبه تام لدى الراشد . وقد نميل إلى التسليم - وهناك من الباحثين من سلّم بذلك - بأن هذا التطور لدى المنحرف المازوخي لا يتم ، وبأنه يحدث لديه علاوةً على ذلك تثبيت للألم على الحساسية التناسلية ، وربما من جراء عقوبات مكررة حددت لديه آلية انعكاسية لا إرادية بكل معنى الكلمة .

---

(٣) لوقراسيوس: شاعر لاتيني (نحو ٩٨ - ٥٥ ق . م) ، مؤلف قصيدة في **طبيعة الاشياء** ، وهي عرض تعليمي وغنائي لمذهب أبيقور . « م » .

(٤) نجد كذلك لدى الحيوانات أن الالم يبدو منبهاً للوظائف الجنسية . فبعض فحول الخيل لا تستطيع مجامعة الفرس إلا بعد ضربها بالسوط (راجع كورنافيون : **سجلات الانتروبولوجيا**) . ويظهر أن سمادل الماء تجلد انفسها بأذنابها قبل التسافد .

ومما يؤيد هذه الفرضية أن يتكرر ، في ذكريات الطفولة لدى عدد وفير من المازوخيين ، مشهد واحد أو عدة مشاهد قصاصية مترافقة باثارة جنسية . وأشهر الأمثلة في هذا المجال مثل ج . ج . روسو الذي كتب في « اعترافاته » قائلاً :

« كما كانت الآنسة لامبيرسيه تعطف علينا عطف الأم،كذلك كان لها هيبتها . وهـذا ما كـان يحملها عـلى أن تنزل بنـا العقاب ، حينمـا نستأهله ، وكأننا أطفـال .

« ولأجل طويل من الزمن لم تتجاوز في الفعل مجرد التهديـد به ، وهذا التهديد بعقاب جديد كل الجدة بالنسبة إلي كان يبدو لي مخيفـاً ؛ لكني بعد التنفيذ كنت أجده أقل رهبـة مما كنت أتـوقع ؛ والأعجب من ذلك أن هذا العقاب شدني بروابط عاطفية أقوى بعد إلى تلك التي كانت تفرضه علي . فلولا صدق تلك العاطفة ولولا وداعتي الطبيعية ، لما منعني شيء من العودة إلى طلب العلاج ذاته عندما أستأهله : فقد كنت وجدت في الألم ، وحتى في الخجـل ، مـزيجـاً من الشهـوانيـة التي غمـرتني بالرغبة ـ أكثر مما بالخوف ـ في أن يساورني ذلك الشعور ذاته عن طريق اليد ذاتها . وبما أن غريزة جنسية مبكـرة كانت تخـالط في أرجح الظن ذلك كله ، فإن العقاب ذاته ما كان ليبدو لي مستحباً وممتعاً فيما لو تلقيته من أخ لـي .

« من يصدق أن عقاباً كهذا ، أنزلته يد فتاة في العقـد الثالث من عمـرها ، بطفـل في الثامنـة من عمره ، قـد حدد مشـاربي ونـزواتي ، ورغائبي ، وأهوائي ، بل حدد شخصيتي ، لبقية حياتي ، وهذا بالتحديد في الاتجاه المعاكس لما يجري في مثل هذه الأحوال عادة ؟ ؟ .

« ففي الوقت الذي التهبت فيه حواسي ، أخذت رغباتي في حبائل ما أحسست به ، فلم تسعَ وراء شيء آخـر .

« وبما أني ما كنت اتخيل سوى ما كنت أشعر به ، فقد عزّ علي أن أوجه رغباتي إلى غير نوع اللذة التي عرفتها .

« وبدلاً من أن تتلاشى نزوتي الطفلية القديمة تلك ، انضمت إلى (العلاقة الجنسية) الأخرى وتداخلت معها إلى حدٍ لم أعد معه قادراً على إبعادها عن رغباتي التي أشعلت حواسي ؛ وهذا الجنون ، بالاضافة إلى خجلي الطبيعي ، جعلني قليل الاحتفال بالنساء » .

إن جميع العناصر المميزة لهذا الانحراف ـ وهي في العادة أقل بروزاً ـ اجتمعت على نحو ملحوظ ومكبَّر في هذه الملاحظة للذات : التعلق بامرأة من نموذج الأم المتسلطة ، ترقُّب العقاب ، مفاجأة اللذة الباعثة على القلق والمرافقة للألم إلى حد إزالته ، الطلب اللاحق للعقاب ، وأخيراً ، في سن الرشد ، استقرار الانحراف في عداد سائر الاضطرابات العصبية النفسية المرضية التي عانى منها ج . ج . روسو .

وبالرغم من احتفاظ ج . ج . روسو بذكرى العقاب بذلك الجلاء الذي يكاد يغني عن البرهان ، فإن تعقيد الموقف الوجداني لكاتب **الاعترافات** ، وهو تعقيد سابق على الرضة الموصوفة ، وكل ما تبع ذلك ايضاً ، يظهر أنه ينبغي أن نرى في هذا الانحراف شيئاً آخر غير مجرد فعل منعكس مكتسب .

على كل حال ، إذا كانت ذكرى العقاب الذي اتخذ صفة ايروسية منذ الطفولة ـ أو ذكراه الواعية على الاقل ـ تتكرر في تاريخ الحالة المرضية لدى الكثير من المازوخيين ، فليس هذا بواقعة من وقائع المشاهدة العامة . فهو يغيب في عدد كبير من الحالات . وبالمقابل ، غالباً ما تطالعنا في طفولة المنحرفين المستقبليين رغبتهم في أن يُعاقَبوا .

والحال أن التجربة التحليلية النفسية أفادتنا بأن الأمر يتصل ، في هذه الحالة ، بأطفال يعبرون على هذا النحو عن شعور بالذنب أو عن موقف مذنب ، وبالتالي يواجهون منذ ذلك الحين نزاعاً عصابياً .

لقد أظهرت لنا كذلك هذه التجربة التحليلية النفسية عينها أنه إذا لم يكن العقاب شيئاً مستحسناً ، فهو لا يغدو مع ذلك رضِّياً إلا إذا كانت « الأرضية » السيكولوجية مهيأة له . وبتعبير آخر ، إن الموقف

السيكولوجي الذي يوجد فيه الطفل (مقاومة الاستمناء ، عقدة الذنب ، عقدة أوديب ، الخ ....) يعادل في الأهمية ، إن لم نقل يفوق ، العقاب ذاته[٥] .

وعلى كل حال ، إن يكن العقاب البدني قد أمسى اليوم نهجاً تربوياً بائداً ومهجوراً ، فهذا لا يعني انه كان كذلك فيما مضى . فالأزمنة التي كان فيها العقاب قاعدة متبعة ليست بالبعيدة ، ومع ذلك كان الانحراف المازوخي على الدوام ظاهرة نادرة.

ومن المفيد كذلك أن نشير إلى ندرة الملاحظات التي تؤكد وجود مازوخية بسيطة ، يُطْلَبُ فيها الألم للألم .

غير أن إيفان بلوخ[٦] يذكر لنا الحالة التالية :

تاجر غني ومحترم ذاع صيته في بيوت الدعارة في برلين كـ «هاوي أظافر» . كان يطلب من العاهرات ذوات الأظافر الطويلة والمدببة أن يجلفن جلد خصيتيه حتى ينفر الدم منهما .

ويروي لنا مول[٧] حالة أخرى ، نقلاً عن تارنوسكي : رجل كان يستأجر شقة بصورة دورية ، ويُسكِن فيها ثلاث خادمات (عاهرات) مهمتهن أن يجردنه من ثيابه لحظة ظهوره ، ويضربنه بالسياط ، لإيصاله إلى الاستمناء .

هذه أشكال نادرة الوجود . أما في الحالات النموذجية والأكثر

---

(٥) هـ . مينغ ، العقاب والتصعيد STRAFEN UND ERZIECHEN ، بيرن ١٩٣٤ .

(٦) إ . بلوخ ، الحياة الجنسية في عصرنا SEXUAL LEBEN UNSERER ZEIT برلين ،

(٧) كرافت ـ إيبينغ ، الأمراض الجنسية النفسية PSYCHOPATHIA SEXUALIS ، منشورات بايو ؛ أ . مول : الشعور الجنسي المتضاد SEXUALEMPFINDUNG ، برلين ، ١٨٩٩ ، المجلد ١٦ .

انتشاراً فإن الألم البدني(٨) يبدو ضرورياً فقط لاستكمال موقف السلبية والخضوع المذل تجاه الموضوع الذي يكون في أغلب الأحيان امرأة . وتكون أدوار كل من الذات والموضوع موزعة توزيعاً جيداً ومنظمة تنظيماً دقيقاً . فالمازوخي يصدر تعليمات واضحة ودقيقة حول الطريقة التي يطلب أن تُساء بها معاملته من قبل الآخرين . فهو يريدهم ، في بادىء الأمر ، أن يعلموا أنه يتعين عليه أن ينفذ فوراً أحط الأعمال وأكثرها إثارة للقرف ، أو أشدها إذلالاً : فإذا ما أبدى أي تلكؤ في تنفيذ الأوامر كان عليهم أن يقاصصوه بقسوة ضرباً بالعصي ، أو سوطاً بالكرباج .

وغالباً ما يطلب منهم أن يقيدوه على سرير ، على طاولة ، في اثناء التأديب . فكل طلبته أن يلعب دور خادم المرأة ، « العشيقة » ، وأن يتلقى منها الأوامر ، وأن يخدمها ، وأن يُضرب إذا ما ارتكب أي هفوة في خدمتها . وهناك من يحب التذلل : أن يجثو عند قدمي عشيقته ، أن يقبع تحت الطاولة أثناء تناول الطعام ، وأن يكون نصيبه منها فضلاتها والضربات .

إن إيثار عدد كبير من المازوخيين « الحيوانيين » يذهب إلى الحصان : فالمازوخي يطيب له أن تركب عشيقته فوق ظهره ، وأن تسرجه أحياناً ، وألا تحرمه ابداً من الضرب بالكرباج(٩) .

---

(٨) يمكن في بعض الحالات أن ينعدم تماماً وجود الألم . على هذا النحو يشبع بعضهم مازوخيتهم عن طريق شربهم بول الموضوع (حب البول) UROLAGNIE او لحس الأقدام القذرة ، او اكل البراز (حب البراز COPROLAGNIE) .

(٩) يصف ر . دوبوي ، في **الحوليات السيكولوجية الطبية** ، ١٩٢٩ ، صفحة ٢٩٣ ، حالة من حالات المازوخية الخيلية وهي حالة غريبة ومثيرة للعجب . فقد كتب مريضه مقالة حقيقية عن اصول الترويض برسم زوجته . قال في مطلع مقاله : « أنا من أولئك الذين يُروضون عن طريق القسوة والضرب بالسوط . وبما أن ثمة نوازع تنعتق من جهة ، فمن الواجب ان تكون هناك من جهة أخرى يد تلجمها » . وتلي ذلك تعليمات دقيقة حول السلوك الذي ينبغي ان تسلكه زوجته إزاءه ، ومن ذلك انه « لا ينبغي لها أن تسمح له بممارسة المعاشرة (الجنسية) إلا إذا كان مسرجاً » الخ ....

وهاكم هذه المشاهدة النموذجية لكرافت ـ إيبينغ :

« س ... ، موظف ، في العقد الخامس من عمره ، قوي العضلات ، في صحة جيدة ، متحدر من والدين سليمين ، غير أنه عندما حبلت به أمه ، كان أبوه يكبرها بثلاثين عاماً . وكان لـ « س ... » أخت تكبره بسنتين ، أصيبت بجنون الاضطهاد . لم يكن س .... ، في ظاهره ، يبدي عن اي شيء غير سوي . كانت بنيته بنية ذكرية ، ولحيته كثة ؛ إلا ان جذعه كانت جرداء تماماً من الشعر . والصورة التي يرسمها لنفسه صورة رجل لين العريكة ، لا يرفض شيئاً لأي انسان ، ومع أنه نزق وغضوب فهو سريع الندم على غضبه هذا .

« يدعي أنه لم يستمنِ قط . وفي شبابه ، وفي احتلاماته الليلية ، كانت المرأة تلعب دائماً دوراً ما ، مع أن الفعل الجنسي بحد ذاته لم يلعب فيها قط أي دور . كان يحلم ، مثلاً ، بأن امرأة ظريفة ولطيفة تتكىء عليه بقوة ، أو كذلك بأنه يغفو مستلقياً على العشب ، وبأن هذه المرأة تركب من قبيل المزاح فوق ظهره . كان يشعر دائماً بالقرف من الجماع . فهو يدعي أن هذا الفعل حيواني . ومع ذلك كان س...يجد نفسه مدفوعاً نحو المرأة . لم يكن يشعر بالارتياح والانشراح إلا برفقة النساء الجميلات والفتيات الحسناوات ، فهو رقيق الحاشية ، بدون أن يكون لجوجاً » .

« كان في وسع المرأة الملفوفة القد ، الجميلة القدمين ، أن تبلغ به ، عندما تتناول الطعام ، إلى أعلى درجة من درجات التهييج . كانت تحدو به رغبة في أن تتخذه كرسياً لها ، « كيما يباح له أن يحمل امرأة بمثل روعتها » . وقد تكون رفسة او صفعة من قبلها مصدر سعادة وهناء له . كان يأنف من فكرة مجامعتها . وكانت تساوره الحاجة إلى خدمة المرأة . وقد لاحظ أن السيدات يحببن ركوب الحصان . وعلى هذا ، كان يلتذ بالتفكير بأنه ليس ألذ من أن يتعب الرجل تحت وقر امرأة جميلة تلتذ بدورها باعتلاء ظهره . وكان يتصور هذا الموقف بجميع أوجهه :

فيرى قدميها الجميلتين بمهمازيهما ، وربلاتها الرائعة ، وفخذيها الناعمتين الممتلئتين . وكانت كل امرأة حسنة التكوين ، وكل قدم أنثوية جميلة ، تنبه مخيلته وتستثيرها ، لكنه لم يكن يكشف قط عن مشاعره الغريبة هذه ، التي كانت تبدو له هو ذاته غير سوية ؛ وكان يعرف كيف يسيطر على نفسه . إلا أنه لم تكن تساوره ايضاً حاجة إلى محاربة ذلك : بل على العكس ، فقد كان سيحزن وسيكتئب لو توجب عليه أنْ يتنكر لمشاعر كهذه غدت عزيزة عليه جداً .

«تعرف س...صدفة،عندما كان في الثانية والثلاثين من عمره،إلى امرأة في السابعة والعشرين من عمرها ، فاستلطفها وكانت مطلقة ، وفي ضائقة . فاهتم بها ، وعمل عندها طوال أشهر بدون اي قصد اناني . وذات مساء ، طلبت منه بلهجة آمرة إشباعها جنسياً ، وكادت تغصبه غصباً ، بعد ذلك ، تتالى الجماع بينهما ، وأخذ س ... المرأة إلى بيته ، وعاش معها ، وجامعها باعتدال ، شاعراً بأن المجامعة إزعاج أكثر منها لذة ، فضعفت انتصاباته ، ولم يعد في مقدوره أن يشبع المرأة إشباعاً جيداً ، فصارحته هذه في النهاية بأنها لم تعد راغبة في استمرار علاقتها به لأنه لا يفعل شيئاً سوى تهييجها بدون إشباعها . ومع أنه كان يحب هذه المرأة حباً جماً ، فإنه ما استطاع العدول عن أفكاره الخاصة . ومنذئذٍ ، لم تعد تجمع بينهما سوى صلة صداقة ، وأسف أسفاً عميقاً لأنه لم يعد في وسعه خدمتها على طريقته .

« إن حياءه وخوفه من الكيفية التي ستستقبل بها اعترافه منعاه من الإفصاح عن أمره امامها . وعلى هذا ، فقد وجد دواءً بديلاً في الأحلام . فأخذ يحلم ، مثلاً ، بأنه حصان أصيل جامح ، تمتطي صهوته سيدة جميلة . كان يشعر بثقلها ، وكذلك بثقل الأعنة التي ينبغي أن يذعن لها ، وبضغط فخذيها على خاصرته، وكان يسمع صوت الفارسة الرخيم الجذل ، وكان الجهد يجعله يتصبب عرقاً ، وكان الإحساس بالمهماز يتكفل بالباقي ويتسبب في احتلام مترافق بلذة كبيرة . وتحت تأثير هذه

الأحلام ، تغلب س ... ، قبل سبع سنوات، على خجله الذي كان يمنعه من أن يعيش جميع هذه الأشياء في الواقع .

« لقد نجح في تحقيقها مع امرأة أخرى . وروى ، بصدد هذا الموضوع ، ما يلي : « كنت أعرف دائماً كيف اتدبر أمرئي كي تركب من تلقاء نفسها على ظهري في أية مناسبة كانت . وكنت عندئذٍ أبذل قصاراي كي أجعل هذا الموقف ممتعاً لها بقدر المستطاع ، وكنت أفهم للحال ما تقوله لي بحركاتها : « تعال ، واجعلني اعتلي ظهرك قليلاً وكأنني أمتطي صهوة حصان ! » . كنت أتكىء ، وأنا الطويل القامة ، بيديّ على كرسي ، وأضع ظهري في وضع أفقي ، فكانت تعتليه كما يعتلي رجل صهوة حصان . وكنت أحاول عندئذٍ أن أقوم ، بقدر المستطاع ، بكل الحركات التي يقوم بها الحصان ، وكنت أحب أن تعاملني وكأني حصان ، دونما مراعاة لأي اعتبار . كان يمكنها ضربي ، ووخزي ، وشتمي ، ومداعبتي ، كل ذلك وفق هواها . وكان في مقدوري أن أحمل على ظهري ، خلال نصف ساعة او ثلاثة أرباع من الساعة ، شخصاً يتراوح وزنه بين الستين والثمانين كيلوغراماً . وبعد مرور ذلك الوقت ، كنت أطلب في العادة استراحة ، وفي أثنائها ، تكون العلاقات بيني وبين عشيقتي بريئة منتهى البراءة ، ولم نكن نتكلم قط عما سلف . وبعد مرور ربع ساعة كنت أسترجع قواي بتمامها فأضع نفسي مجدداً وطوعاً تحت تصرف عشيقتي . كنت أتصرف على هذا النحو ، بحسب ما تسمح لي الأوقات والظروف ، ثلاث مرات أو أربع مرات على التوالي . وكان يتفق لي أن أزاول هذه الرياضة صباحاً وبعد الظهر . ولم أكن أشعر بعد ذلك بأي تعب ، ولم يكن يساورني أي شعور آخر بالانزعاج ؛ كل ما هنالك أن شهيتي ، في تلك الأيام ، كانت تخف . كنت أفضل ، عندما يتسنى لي ذلك ، أن أعري القسم العلوي من جسدي كي أحس احساساً أقوى بلسعات الكرباج . وكان على العشيقة أن تلتزم الحشمة . وكنت أفضلها منتعلة حذاءً جميلاً ، ومرتدية جوارب وبنطلوناً قصيراً يصل إلى

ركبتيها ، والقسم العلوي من جسدها مغطى تماماً بالثياب ، ومعتمرة قبعة ولابسة قفازين » .

« يروي السيد س ... أنه امتنع ، منذ سبع سنوات ، عن إتمام الجماع مع أنه يدعي أنه ذو رجولة وفحولة . وكان ركوب امرأة على ظهره ينوب عنده مناب ذلك « الفعل الحيواني » ، حتى عندما لا يصل إلى القذف . لقد قرر س ... ، منذ ثمانية اشهر ، العدول عن ممارسة هذه الرياضة المازوخية ، والتزم بقراره . مع ذلك ، فإنه يعتقد أنه إذا ما نادته فتاة ، حتى لو كانت معتدلة الجمال ، قائلة له بلا مراوغة : « تعال ، أريد أن اركب على ظهرك » ، فقد لا يملك ساعتئذٍ القدرة على مقاومة هذا الإغراء . وكل رجائه أن يعرف ما إذا كان من الممكن معالجة شذوذه ، وما إذا كان يستأهل الاحتقار على رذيلته هذه ، أو ما إذا كان مريضاً يستحق الشفقة » .

من النادر أن يكون الموضوع جنسياً مثلياً . ولكن هاكم هذه الحالة التي رواها مول :

« عمري أربعة وعشرون عاماً . عرفت ، منذ الطفولة ، طريقة في الإحساس جنسية ومنحرفة . غير أني لم أعلق على ذلك الأهمية المفروضة ، او اني خشيت ان أكاشف بها الآخرين . إلا ان قراءتي كتاب « علم الأمراض الجنسية النفسية » لكرافت ـ إيبينغ حملتني على ان اقرر الكلام . إن ميل تفكيري مازوخي محض . وكنت لاحظت ، فيما مضى ، ميلاً مماثلاً لدى اختي . كان ابي غريب الأطوار . والى يوم بلوغي الحادية والعشرين من عمري ، كان الغلمان وحدهم تقريباً موضوع غرائزي المازوخية ؛ غير انه لم يكن لدي ، بطبيعتي ، استعدادات جنسية مثلية ، وأنا مقتنع بالأحرى بأني ما كنت أوجه ميلي إلى الغلمان إلا لأني كنت أفتقر إلى علاقات أخرى . ولما تعلمت الرقص وعاشرت ايضاً الجنس المؤنث في مناسبات أخرى ، اصبح حبي القديم للغلمان غير مفهوم بالنسبة إلي . نزوع مازوخي منذ سنواتي الأولى . ذات مرة في

الشارع ، نزلت في حفرة عميقة محفورة لمد الأنابيب ، ومن فوق ، نكش صديق لي بقدمه حفنة من التراب وقذف بها على رأسي . هـذا الموقف ، الذي تركت فيه صديقي يعاملني مثل هذه المعاملة ، طاب لي إلى حد ما عدت معه قادراً ـ وكنت في الثامنة من عمري ـ على الانعتاق منه . وظل غلام في العاشرة من عمره ، لفترة من الزمن، صديقي الاثير في اللعب . كان بطبعه مستبداً جداً ، وكان يحب أن أنفذ نزواته . كان خضوعي له مصدر سعادة خفية لي . كنا نلعب لعبة الحرب ؛ وكان عقاب المغلوب أن ينحني حتى الأرض لسيده وغالبه الذي يضع بين فخـذيه رأس العبـد وينهال عليه ضرباً . وكنت في العـادة أتدبـر أمري كيمـا اخضع لهـذا العقاب . فعندما كنا نتصارع ، كانت القـاعدة تقضي بـأن أكون أنـا ـ الأقوى ـ مغلوباً، وبأن أقبل يد الغـالب . ذات مرة ، بينمـا كنت أرزح تحته بصفتي مغلوباً ، قبلت حذاءه خلسة . وذات يوم ، أجبر غلاماً في السادسة من عمره على أن يلثم ركبتيه ، ثم دعاني إلى أن أفعل بالمثل ؛ لكني ما فعلت ، بسبب خجلي ، مع أني كنت سأحس بلذة لامتناهيـة لو فعلت ذلك . باختصار ، ما كنت أترك له قط ان يلاحظ ميلي . كان يعتقد بأنه الأقوى في الحقيقة ، وكنا متفاهمين تماماً : فهو يشبع حب التسلط لديه ، وأنا أشبع ميولي المازوخيـة . كنت أتهيج جنسيـاً عندمـا يضرب المعلمون زملائي في المدرسة ، وعلى الأخص عندمـا كان استـاذ الرسم يمدد احدهم على المقعد كي « يفرك سرواله بقوة » . ذات مـرة افتعلت الوقاحة ،لا لشيء إلا لكي أؤدَّب . ورحت أنتظر سـاعة العقـاب ، وقلبي يخفق ، وقد أخذ بمجامعي اختناق لذيذ لا يمكنني وصفه . وفي الثالثـة عشرة من عمري ، قـرأت رواية لآخيم فـون أرنيم تحت عنوان « اوفن ثيودور » . وكان فيها وصف لخـادم كان عليه أن يقاسي من ضروب سوء المعاملة والاذلال التي تنزلها به سيدته ، وهي أمرأة ذات نزوات . كانت تصفعه ، وتخزه بالإبر ، وتجبـره على أن يخلـع لها حـذاءها الـوسخ ، وتضع على قـدمه قـائمة من قـوائم الكرسي الـذي كانت تجلس عليـه ،

وترغمه على الوقوف على هذا النحو ساعات بأكملها ، وكان هو يلتهب حباً لسيدته لأنها تعذبه . وكان ذلك يتمشى تماماً مع تصورات مخيلتي ، وعلى هذا ، أعدت قراءة الرواية عدة مرات بشغف . بعد ذلك ، رحت أتخيل ما سيجري لو كنت أنا خادم أميرة ، او خادم أمير جميل . كان يجتاحني تهييج عنيف ، عندما يتفق لي ان أقرأ عن عبيد يُشد وثاقهم معاً في أثناء نقلهم ، وتضرب عليهم قيود الحديد لكي لا يعود في وسعهم أن يتحركوا ، ويجلدون بالسياط . عندما بلغت الرابعة عشرة من عمري ، مارست الاستمناء بإفراط ، ولحسن الحظ بدون قذف . وعرفت نشوة ايروسية حقيقية ، ذات يوم ، عندما شدت خادمة وثاقي إلى قائمة السرير بمئزرها ، ولم تشأ أن تفك وثاقي بالرغم من توسلاتي . صنمية الجزمة . كان ينبغي أن تكون جزمة بشريطة ينتعلها صبي فخور بنفسه، يرتدي سروالاً قصيراً قدر المستطاع وجوارب سوداً . وكانت الجزمات الملوثة بالوحل تغريني بقوة . كنت أنظفها بافرازاتي البولية الوافرة بما فيه الكفاية ، أو ألعقها بلساني . كنت أحسد الخادمات اللواتي كان يتوجب عليهن أن يزلن الوحل عن أحذية الصبية الفخورين بأنفسهم . وكان لا بد أن تكون الأحذية من جلد ؛ أما الحذاء المطلي طلاءً براقاً أو الخف المصنوع من الحرير والقطيفة ، فلم يكن يجذبني إطلاقاً . هذا الايثار للجلد كان يشمل ايضاً جوانب اخرى من اللباس . وعلى هذا ، كنت في حداثتي أتهيج جنسياً عندما كنت أفكر بأن منظف المداخن يضع مئزراً من الجلد . كان يجب ، بقدر المستطاع ، أن تحدِث الجزمة قرقعة ؛ وكان لرائحة الجلد الجديد جاذبية خاصة لي . وهذا يعود ، في أرجح الظن،الى أن انتباهي كان يوجه باستمرار، بفعل القرقعة، إلى موضوع الشهوانية . أذكر أنه ، عندما كنت في الصف الأول الثانوي ، استحال علي متابعة الدرس ، لأن صبياً لطيفاً كان يهز رجليه بطريقة تحدث معها جزمته قرقعة . وغالباً ما كنت أحلم بأني « حصان ايروسي » ، وكانت رؤيتي لفارسة في حديقة الحيوان في برلين هي السبب في ذلك . وفي

السابعة عشرة من عمري ، فوجئت لأول مرة بقذف ، فيما كنت أستمني . ظللت أستمني منذ تلك الحقبة حتى الآن . لم اتعاطَ قط الاستمناء المتبادل . كنت آنف منه ، كما كانت رؤيتي للأعضاء التناسلية المذكرة او المؤنثة تثير اشمئزازي . كنت محبواً على كل حال بخيال جامح إلى حد لم تعد معه الملامسة البدنية مع أشخاص احياء قادرة على إغرائي أكثر . كنت أتصور بالفكر أني أعاني من جميع مشاهد الإذلال الممكنة ، وكان أشد زملائي في الثانوية اعتداداً بأنفسهم هم دوماً الآمرين باذلالي في تخيلاتي تلك .

« أصل الآن إلى الكلام عن الجانب الأكثر قتامة في حياتي . كنت بالأمس صبياً ، وهأنذا اليوم رجل في ريعان الشباب . وها عزة نفسي وخيلائي كشاب تطالبان بحقوقهما . ولكن مازوخيتي ، ويا للعجب ، ما زادت إلا جاذبية وإغراء. كنت أندفع إلى كل مثل أعلى للشباب:الى الشعر ، إلى الحرية ، ولسوء الحظ أيضاً إلى نقاوة الأخلاق . من هنا ، كنت كمن يصب الزيت على النار ؛ فغريزة إذلالي لنفسي التهبت التهاباً من جراء تناقضها مع ما كنت أتخذه لي مثلاً أعلى . ومع أني كنت أشعر بأني شاب بكل ما في الكلمة من معنى ، وبالرغم من أني تعلمت كيف أحترم ذاتي من جديد عن طريق التزامي بزهد عابر ، فإن غريزة إذلالي لنفسي استبدت بي بقوة سحرية ، فما كنت أعرف راحة قبل أن أدفن تحت إذلال جديد لا حدود له . كل مثل أعلى كان يبزغ في داخلي . ذات مرة ، اتخذ حبي المازوخي للغلمان طابعاً مثالياً . فقد وقعت في حب تلميذ في الصف السابع كان يأتي إلى بيتنا كل يوم ؛ أحببته حباً افلاطونياً وفي منتهى الطهارة . كنا نعزف معاً ، ونقوم بنزهات . وتمكنت ، لفترة لا بأس بطولها ، وبتأثير صداقته ، من الإقلاع عن الاستمناء .

« حين اتجهت عواطفي بقدر أكبر نحو المرأة ، لم أشف من انحرافي الجنسي إلا نصف شفاء ... فأصبحت عندئذٍ مازوخياً تجاه المرأة ، ـ وإنما في الحقيقة بصورة مخففة ـ وعلى نحو ما أمكن معه

للمشاعر التي تساور عادةً الرجل تجاه المرأة أن تنمو وتتطور . لقد حاولت الجماع حوالي اثنتي عشرة مرة ، ولكني لم أفلح قط . كانت عمليتا الانتصاب والايلاج تنجحان تحت تأثير تخييل مازوخي ، غير ان هذا التخييل ما كان يستمر وأنا في داخل المرأة ، ولذلك ما كان يحدث قذف. ورحت أحاول التغلب على صعوبة البداية بواسطة مسحوق الذراح،ولكن لسوء الحظ بغير توفيق ، لأن الذراح ما كان يؤثر فيّ قط . ولا شك في أنه ستتوافر لي القدرة الجنسية إذا ما اردت أن انفذ مع فتاة مشهداً من المشاهد الموصوفة في كتاب كرافت - إيبينغ ، وهي مشاهد إذلال مع معاناة من القسوة ؛ غير أن حيائي سيمنعني دوماً من تنفيذ ذلك . انني حساس فعلاً بالمفاتن الأنثوية ، غير أن الجماع على وجه التعيين هو ما يبدو لي شيئاً مخيفاً ، ويبقيني بارداً تماماً . حين كنت أحاول الجماع ، كنت دائماً أتحاشى رؤية الأعضاء التناسلية الأنثوية ؛ وحينما دعتني احدى الفتيات ذات مرة إلى ملامسة اعضائها التناسلية لكي أتهيج ، ما شعرت إلا بقرف وتقزز . كما أن الاستمناء الذي مارسته الفتاة لم يجدني فتيلاً ؛ وكان لصفعة واحدة أن تسعفني أكثر . ولم أدع نفسي قط أنقاد إلى الجماع مع فتاة بسائق من اللذة ، بل دائماً بدافع من شعوري بالواجب ، وذلك لأني كنت آمل في الشفاء من معاشرتي المرأة . وما من احتلام ليلي قط كان موضوعه الجماع ، وكذلك ما مارست قط الاستمناء وفي ذهني هذه الفكرة . وقد تخليت عن هدفي الدائم ، وهو إتمام الجماع ،منذ سنتين ، لأني فكرت يومئذٍ أنه حتى ولو توصلت إلى إتمام الجماع مع شخص آخر عن طريق تصور ذهني لمشهد إذلال ، فلن يكون ذلك سوى استمناء داخل رحم المرأة ؛ وهذه فكرة تتفق في أرجح الظن مع الحقيقة . ولطالما تمنيت لو كان في استطاعتي أن أنفرد ، قبل الجماع ، بجزمة الفتاة ، فيصبح في مقدوري ساعتئذٍ أن أندفع بسهولة وبالقدر المطلوب إلى الجماع .

« على كل حال، أنا سوي عقلياً ، غير اني كنت مبكراً من جميع

المناحي ، ففي الثالثة عشرة من عمري ، نظمت عدداً من القصائد الجادة ، وفي السادسة عشرة كانت قوتي الذكورية توهم وتخدع ؛ وفي الثامنة عشرة ، شغلتني مسائل فلسفية . كانت علاقاتي الاجتماعية قليلة ، وانما من مستوى رفيع ، وأعتقد أني موهوب فوق المتوسط . وعندما أصبت بهجاس المرض في الثامنة عشرة من عمري ، تحت تأثير احتلامات راحت تتكاثر ، تعودت منذئذٍ على حالتي ، إلا أني بقيت متشائماً وقدرياً . لكني بالرغم من ذلك دائم المرح ، إلا أن افكاراً سوداً تساورني عندما أفكر بمستقبلي . وإن تخلصي من الاستمناء ، الذي يبقى دائماً وسيلتي الوحيدة للفوز بالإشباع الجنسي ، يبدو لي ممكناً عن طريق «POTENTIA CŒUNDI» [٩] . وربما كان ينبغي ، للوصول إلى ذلك ، طرد المازوخية عن طريق الإيحاء بالتنويم المغناطيسي ، وكذلك إيقاظ مشاعر جديدة تجاه المرأة بحيث تصبح مطلوبة لذاتها » (مول) .

ثمة عناصر تعود إلى انحرافات أخرى تختلط في كثير من الأحيان ، ان لم نقل دائماً ، بالممارسات المازوخية . إلا أن العناصر الأكثر تواتراً هي العناصر الصنمية والجنسية المثلية . ففيما يتعلق بالصنمية ، تكاد الفراء والجزمات والسياط أن تؤلف جزءاً لا يتجزأ من المازوخية . وسنرى فيما بعد كم هو ذو دلالة المعنى الرمزي لهذه التمائم .

أما فيما يتعلق بالجنسية المثلية ، فيمكننا القول بالأحرى إن الكثيرين من الجنسيين المثليين يتعاطون ، فضلاً عن ذلك ، ممارسات مازوخية . وقد لاحظنا شخصياً عدة حالات من الجنسية المثلية المقرونة بالمازوخية . وكان الأمر يتصل في ثلاث من هذه الحالات برجال يتدبرون أمرهم كيما يضربهم « عشاقهم » . إلا اننا ندع جانباً هنا المازوخية المعنوية للجنسيين المثليين ، إذ سنعالجها في موضع آخر .

ثمة ، في حالات أخرى ، منقلبون ينتمون إلى ما درج الناس على

---

(٩) باللاتينية في النص : القدرة على الجماع . « م » .

تسميتـه بـ « الوسط الـراقي » ، وهم في الحياة العـاديـة متشـددون بخصوص كل مـا يتصل بـأصول النظـافة والصحـة والرفـاه ، ولكنهم يطلبون من شركائهم الجنسيين أن يبولوا في افواههم أو ان يتغوطوا على وجوههم .

إلا أن الحالة الاغنى بالفائدة هي حالة ساشر مازوخ نفسه . فقد ولـد عـام ١٨٣٧ ، في غـاليسيـا ، وتعـود أصـولـه إلى طبقـة النبـلاء النمساوية ، وكان دمه مزيجاً من الدم الألماني والسـلافي والاسباني . أما الاشخاص الـذي احاطـوا بطفولتـه فيبدو أنهم لعبـوا دوراً بارزاً في توجيه حياته ونتاجه الادبي المكرسين بتمامهما للمازوخية .

فهناك أولاً مـرضعـه (وقد بقيت بجـانبه لسنـوات طوال) التي وصفها بأنها امرأة في منتهى الجمـال والجلال ، والتي ولّـدت في نفسه ميـلاً إلى القسوة . فجميـع القصص التي روتها لـه كانت تـدور حـول قياصرة وقيصرات دمويين ، وكانت المرأة في هذه القصص هي دوماً التي تعذب الرجل وتقتله .

وقد انطبعت تلك الصور في ذهنه إلى الأبد . فراح، طيلة حياتـه ، يطلب التألم القاسي على يد المرأة المحبوبة .

وهاكم ما كان يطلبه ، بموجب عقد مكتوب ، من عشيقته :

« عقد بين السيـدة فاني دو بستـور والسيد ليوبولد دو ساشر مازوخ . يقسم السيد ليوبولد دو ساشر مازوخ بشرفـه أن يكون عبـداً للسيدة دو بستور ، وأن ينفذ جميع رغباتها وأوامرها بحذافيرها ، وذلك لمدة ستة أشهر .

« بالمقابل ، لن تطلب منه السيدة فاني دو بستور أن يفعل اي شيء مخز (يمكن أن يمس شرفه كرجل وكمواطن) . علاوة على ذلك، ينبغي أن تترك له ست ساعات يومياً ليفرغ إلى اعماله ، وألا تطلع على رسائله وكتاباته . ويمكن للسيدة (فاني بستور) ، في حـال أية مخـالفة أو أي

اهمال او أي مساس بكرامتها ، أن تعاقب عبدها (ليوبولد دو ساشر مازوخ) كيفما يحلو لها . باختصار ، سيمتثل الرعية بعبودية تامة للملكة ؛ وسيرى في علائم محاباتها هبة لا تقدر بثمن ؛ ولن يدعي لنفسه أي حق في نيل حبها والفوز بوصالها . وبالمقابل ، تتكفل فاني بستور بأن تلبس الفرأء ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا ؛ وبخاصة عندما ستكون قاسية » .

(مشطوب فيما بعد) : « بعد انقضاء الأشهر الستة ، ستعتبر فترة العبودية هذه من قبل الطرفين وكأنها لم تكن ، ولن يلمحا إليها بصورة جادة . وكل ما سيحدث في تلك الفترة ينبغي أن يُنتسى ، مع العودة إلى علاقة الحب السابقة .

« وليس من المحتم أن تمر الاشهر الستة متوالية ؛ فمن الممكن أن تطرأ عليها انقطاعات طويلة ، فتبدأ وتنتهي حسب أهواء الملكة .

« توكيداً لهذا العقد وقع الطرفان : فاني بستور باغدانوف ، ليوبولد ، الفارس دو ساشر مازوخ » .

بعد أن تزوج ، استدرج بدأب وبراعة زوجته (التي طاب لها أصلاً أن تنفذ المطلوب منها بقدر كبير من السادية) إلى اساءة معاملته معنوياً وبدنياً .

وهاكم ايضاً تعهدات وقع عليها الطرفان :

عبدي ،

« إن الشروط التي أقبلك بها عبداً وأتولى تعذيبك ، هي التالية :

« تنازل مطلق عن ذاتيتك .

« خارج إرادتي لا إرادة لك .

« أنت بين يدي آلة عمياء تنفذ كل أوامري بدون نقاش . واذا ما نسيت انك عبد ، ولم تمتثل امتثالاً مطلقاً في جميع الامور ، حق لي أن

أعاقبك وأن أؤدبك ، كيفما يحلو لي ، بدون أن تتجرأ على الشكوى .

« وكل ما سأمنحك اياه من متعة وسعادة سيكون نعمة من جانبي ، ولن تتلقى نعمي إلا شاكراً . ولن أتهاون ابداً في معاملتك ، ولن يكون علي أي واجب اؤديه .

« لن تكون بالنسبة إليَّ ابناً ، أو أخاً ، أو صديقاً ؛ لن تكون إلا عبداً يرقد في التراب .

« إن روحك،كجسمك ، ملك لي ، وحتى لو اتفق لك ان تألمت كثيراً ، فعليك أن تضع أحاسيسك وعواطفك تحت سلطاني .

«القسوة بأعلى درجاتها مباحة لي،فإذا ما آذيتك،فعليك أن تتحمل ذلك بغير شكوى . عليك أن تعمل عندي كعبدٍ ، وإذا ما رفلت أنا في البحبوحة وتركتك في الحرمان ودستك بقدمي ، فعليك أن تقبِّل ، دون ان تنبس ببنت شفة ، القدم التي داستك ! .

« يمكنني أن اصرفك متى أشاء ، إلا أنه لا يحق لك أن تتركني بدون إرادتي ؛ وإذا ما حاولت الهرب ، فإنك تقر لي بالسلطة وبالحق في أن أنزل بك حتى الموت جميع العذابات التي يمكن تصورها .

« خارج ذاتي، لا تملك شيئاً؛ فأنا كل شيء بالنسبة اليك : حياتك ، مستقبلك ، سعادتك ، تعاستك ، عذابك ، وفرحك .

« عليك أن تنفذ كل ما سأطلبه منك ، أخيراً ام شراً ، وإذا ما فرضت عليك ارتكاب جريمة ، فعليك أن تصبح مجرماً ، كيما تمتثل لإرادتي .

« شرفك ملكي ، وكذلك دمك وروحك ، وقدرتك على العمل . أنا ملكتك ، سيدة حياتك وموتك .

« إذا اتفق لك أنك لم تعد قادراً على تحمل استبدادي ، وإذا ما

صارت قيودك أثقل مما ينبغي ، فعليك أن تقتل نفسك ، ولن أعيد إليك أبداً حريتك .

« أقسم بشرفي أني سأرغم نفسي على أن أكون عبد السيدة فاندا دو دونايف ، تماماً مثلما طلبت ذلك ، وعلى أن أخضع ، بلا مقاومة ، لكل ما ستفرضه علي .

ليوبولد ، الفارس دو ساشر مازوخ » .

لقد اشتهر بكتاباته وهو لا يزال في مطلع شبابه ، وتخطت شهرته الإطار المحلي ، والدليل على ذلك أنه استقبل في باريس بعد ترجمة مؤلفاته بكل مظاهر الحفاوة والتكريم التي تليق بكاتب كبير مثله (أوسمة وحفلات استقبال) . إلا ان هذا النتاج ، المتمثل بمئات الحكايات والروايات ، رتيب رتابة تثير الدهشة . فالموضوع واحد لا يتبدل : رجل يصير من جراء الحب موضوعاً لأفظع الاذلالات ويخضع لاكثر ضروب القسوة تفنناً . أما المرأة فهي دوماً من الصنف ذاته : جميلة ، متعجرفة ، متسلطة ، قاسية ، موشحة بالفراء ، وشاهرة حتى في أبسط الحالات سوطاً .

وآية آيات هذا الادب قصته « فينوس ذات الفراء » الشهيرة . ويدور موضوعها حول رجل يخضع بملء إرادته ، كيما يفوز بحب حبيبته ، لفترة اختبار . فهو سيخدمها خلال هذه الحقبة كعبد ، وسيكون في مستطاعها ان تطلب منه كل شيء ، أما هو فلا شيء ، خلا أن يُعاقب . ناهيك عن ذلك ، ستتخذ الحبيبة عشيقاً سيصبح بدوره سيداً يحق له ويتوجب عليه أن يلجأ إلى السوط .

كل هذا الادب ، بما فيه « فينوس ذات الفراء » ، ليس سوى تصوير مباشر للمثل الأعلى لكاتبه في الحب .

ولقد عمل جاهداً ، طيلة حياته ، على تحقيق مثله الأعلى في

وجوده بالذات ، ولقد نال مناه . وليس من غير المجدي أن نشير حالاً الى ما للعشيق الذي يمّحي امامه ساشر مازوخ ويتلقى منه الضربات من دلالة من الناحية التحليلية النفسية . وبالفعل ، لقد ناضل طوال سنوات من اجل حمل زوجته على اتخاذ عشيق لها . وعندما نال مراده ، في نهاية المطاف ، تدبر أمره كيما تتحقق المشاهد الموصوفة في « فينوس ذات الفراء » : اي مشاهدة مطارحات الغرام بين زوجته وعشيقها ، من وراء الباب ، ومن ثم سماع الشتائم وتلقي الضربات من العشيق .

ويبدو أن هذا الفصل من حياته قد وفر له أقصى درجات الإشباع . وهذا مثير للاهتمام من أكثر من ناحية ، وبوجه خاص لأننا نجد فيه خير مثال على « الحاجة إلى التكرار » التي غالباً ما يلحظها المحللون النفسيون .

إن ما ينشده ساشر مازوخ في هذا الموقف تكرار للمشهد الرضي الطفلي .

وهاكم كيف يروي لنا بنفسه هذا المشهد في مذكراته[١٠] [١١] :

«فيما كانت[١٢] تحضّر «التعصيرة»،رحنا نلعب لعبة التخبئة، فذهبت ـ ولا أعرف اي شيطان قادني إلى ذلك ـ لأختبىء في غرفة نوم خالتي ، وراء مشجب علقت عليه أثواب ومعاطف . وعندئذ ، سمعت رنين الجرس ، وبعض مضي بضع دقائق ، دخلت خالتي الغرفة ، يتبعها شاب جميل .

---

(١٠) شليشتفرول ، ساشر مازوخ والمازوخية SACHER- MASOCH UND MASOCHISMUS ، دريسدن ، ١٩٠١ . ليوبولد شتيرن ، ساشر مازوخ ، منشورات ب . غراسيه .

(١١) ساشر مازوخ ، اشياء معاشة ، في المجلة الزرقاء ، REVUE BLEUE ، باريس ١٨٨٨ .

(١٢) المقصود زنوبيا دي س ... ، خالة ساشر مازوخ .

« ثم دفعت الباب بدون أن تقفلـه بالمفتـاح وجذبت صـديقها إلى جانبها .

« لم أكن أفهم ما كانا يقولانه ، وكم بالأحرى ما كانا يفعلانه ؛ إلا أني شعرت بقلبي يخفق بقوة ، لأنني أدركت تمام الإدراك الموقف الذي وجدتني فيه : فلو اكتُشف أمري لظُنَّ انني كنت أتجسس .

« أغمضت عيني وسددت أذنيّ ، وأنا تحت وقر تلك الفكرة التي كانت تسبب لي قلقاً مميتاً . وكدت أفضـح أمري بسبب عطـاس وجدت صعوبة فائقة في التحكم به ، حين فُتـح الباب بعنف ، عـلى حين غـرة ، ليدلف منه زوج خالتي الذي دخل الغرفة ، يرافقه صديقان . كان وجهه تعلوه حمرة شديدة وعيناه تشعان حنقاً وغضباً . لكن فيما أخذه التردد لهنيهة من الزمن ، متسائلاً في ارجح الظن أي العشيقين سيكون الأول في تلقي الضربات منه ، تداركته زنوبيا .

« انتفضت واقفـة ، بدون أن تنبس ببنت شفة ، وسبقت زوجهـا وضربته على وجهـه بقبضة يدها بقوة . وراح يترنح . وطفق الدم يسيل من أنفه وفمه . مع ذلك لم تبدُ خالتي راضية . فأمسكت بكـرباجهـا ، ولوحت به ، مشيرة لزوجها وصديقيه إلى الباب . عنـدئذ انتهـز جميعهم السانحة في آن معاً ، ليتواروا عن الأنظار ، ولم يكن العاشق الفتي آخر من فر .

« في تلـك اللحظـة ، وقـع المشجب عـلى الأرض ،وانصبّ غضب السيدة زنوبيا كله علي .

ـ كيف ؟ أكنت مختبئاً هنا ؟ خذ ، هاك مـا سيعلمك كيف تكـون جاسوساً ! .

« حاولت بلا جـدوى أن أفسر وجودي وأن أبـرىء نفسي ، لكنها بمثل لمح البصر مددتني على السجـادة ، ثم راحت تسوطني بـالكربـاج

بقوة ، وهي تمسكني من شعري بيدها اليسرى وتضع إحدى ركبتيها على كتفي . كنت أكز على اسناني بكل قواي ؛ وبالرغم من ذلك ، اغرورقت عيناي بالدموع . إلا أنه لا بد لي من الاعتراف بأنني ، فيما كنت أتلوى تحت الضربات القاسية لتلك المرأة الجميلة ، كنت أشعر بنوع من اللذة[١٣] . وأغلب الظن أن زوجها انتابته مراراً مثل هذه المشاعر ، لأنه صعد فيما بعد إلى الغرفة ، لا كمنتقم ، بل كعبد وضيع ؛ ثم إنه هو الذي ارتمى عند قدميّ المرأة الخؤون ، طالباً منها أن تصفح عنه ، في حين كانت هي تدفعه بقدمها . عندئذٍ ، أُقفِل الباب من جديد بالمفتاح . إلا أني ، هذه المرة ، لم أشعر بالخجل ، ولم أسد اذني ، بل رحت استرق السمع من وراء الباب بانتباه شديد ـ ربما بهدف الانتقام ، وربما بفعل الغيرة ـ فسمعت مجدداً فرقعة السوط الذي ذقت طعمه بنفسي تواً .

« وقد انحفرت هذه الحادثة في نفسي كما لو بالحديد المحمى .

« يومئذ لم أفهم تلك المرأة ، ذات الفراء المثيرة للشهوة ، التي كانت تقسو في معاملة زوجها بعد خيانتها له ، إلا أني كنت أكره وأحب في آن واحد تلك المخلوقة ، التي كانت تبدو ، بفعل قوتها وجمالها الوحشيين ، وكأنها خُلقت كي تدوس بقدمها بصلافة على رقبة الانسانية » .

لقد وقعت هذه الحادثة عندما كان ساشر مازوخ في الثامنة من عمره . وقد وصف بطلة القصة ، وهي امرأة جميلة و « ملكية » ، بكلمات إعجاب تكاد تطابق الكلمات عينها التي كان قد وصف بها موضوع حبه الأول : المرضع ـ المربية . ويجدر بنا أن نضيف أن ساشر مازوخ كان يعبد بالفعل خالته ز ... وكانت ، قبل بضعة أيام من المشاهد الموصوفة

---

(١٣) لنتذكر هنا الاعترافات المماثلة التي صدرت عن ج .ج . روسو .

اعلاه ، قد طلبت منه أن يعقد شريط حذائها المحلول ؛ ويروي ساشر مازوخ كم انفعل عندما أسرع ينفذ أمرها ، وكيف تعذر عليه أن يقاوم حاجته إلى تقبيل القدم التي كان منحنياً عليها . هكذا يكون المشهد الرضي ، وما تبعه من تأديب ، قد أدى ، مرة أخرى ، إلى التثبيت لأن التربة كانت ملائمة سلفاً : اهتمام بالقسوة وتعلق متجدد (بعد المرضع ـ المربية ، والخالة ز ....) بامرأة متسلطة وقاسية .

كانت هذه الأخيرة تعاقبه ضرباً : فكان ينجم عن ذلك تهيج جنسي يرتبط ، علاوة على ذلك ، ارتباطاً مباشراً وواعياً بعلاقة حب . ولئن كان ساشر مازوخ قد ضُرب ، مثل زوج خالته المخدوع ، أمام العشيق ، فهذا يفسح لنا في المجال للافتراض بأنه تماهى وإياه . قال إن هذه الحادثة انحفرت في نفسه كما لو « بالحديد المحمى » . وظل طيلة حياته الحبية يطلب أن يعيش تلك الحادثة مجدداً .

يخرج المشهد الرضي هنا عن نطاق ما هو عادي ، ولكن هل هو كافٍ لتفسير التثبيت على كيفية جنسية طفلية في الإحساس ؟ .

كلا بالتأكيد ! ليس أكثر مما في الأحوال المألوفة في تاريخ الحالات المرضية التي تنطوي على عقابات عادية . من جهة أخرى ، لم يصبح جميع الاطفال الذين ضُربوا او عوقبوا ، وهم كثر ، منحرفين مازوخيين . وأخيراً ، هنالك مازوخيون كثيرون لا يذكرون انهم تلقوا اي عقاب وانما كل الذكرى التي احتفظوا بها هو انهم تمنوا مثل ذلك العقاب بحرارة وتلهف .

كيف يمكن ، في هذه الحالة ، تفسير تثبيت كذاك ؟

إن الباحثين من غير المحللين النفسيين ، وعلى وجه الخصوص بينه BINET ، عندما استوقفتهم هذه المشكلة ، اكتفوا بالإشارة إلى دور التربة الجبلِّية . إلا أن هذه الفرضية ، التي لا يمكن إهمالها ، ليست مع

ذلك سهلة الاستعمال .

لقد تمكنت الاستقصاءات التحليلية النفسية من تسليط الضوء على بعض عناصر اخرى تفسر بصورة أوضح هذه التثبيتات ، بالرغم من ندرة المشاهدات التحليلية النفسية لحالات سافرة من الانحراف المازوخي (وللانحرافات الاخرى بوجه عام) . فغالباً ما يكون المنحرفون راضين عن مصيرهم ؛ فما الداعي لأن يأتوا إلى المحلل النفسي طالبين تحليلهم ؟

وسيكون من السهل علينا أكثر أن نتطرق ، عن طريق تحليل بعض الظاهرات الوسيطة بين الانحراف والعصاب ، إلى المنشأ النفسي للانحرافات السافرة . هذه الظاهرات هي التخييلات المازوخية . وقد وصفها كرافت ـ إيبينغ تحت اسم « المازوخية المثالية » .

فهؤلاء المازوخيون هم مازوخيون بالفكر . فهم يتخيلون فقط ما يحققه غيرهم ، وان كانوا مدفوعين بالأسباب ذاتها وفي الاتجاه ذاته . وتخييلاتهم تنسخ بأمانة أفعال المازوخيين اللامتناهية في رتابتها : فهم يتصورون أنهم مقيدون ، محكوم عليهم بالعجز ، مضروبون ، مشتومون ، مذلون ، مأمورون ، إلخ . ولا يوجد فارق جوهري بين هذا الشكل من المازوخية والأشكال الأخرى . ناهيك عن أن التخييلات تلعب ، حتى لدى المازوخيين السافرين ، دوراً كبيراً . بل يمكن أن ينقاد هؤلاء المرضى إلى الاكتفاء بتخييلاتهم ، وبالتالي الى الإقلاع عن ممارساتهم . ويتم استحضار التخييلات بطوع الإرادة ، بهدف استثارة الرعشة الاستمنائية أو الجماع .إلا أن ظهور هذه التخييلات يكون ، في بعض الحالات ، لاإرادياً، ويفرض نفسه كوسواس[١٤] .

---

(١٤) س . ناخت ، « ملاحظات حول حالة عصاب وسواسي مع تمثلات مازوخية ـ سادية » في « المجلة الفرنسية للتحليل النفسي » المجلد ٤ ، وفي **تحاليل نفسية للاعصبة النفسية والإضطرابات الجنسية** PSYCHANALYSES DES PSYCHONÉVROSES ET =

إن فرويد ، في مقالته « ولد يُضرَب »[١٦] ، وهي مقالة حللناها في موضع آخر ، يلخص تجربته التحليلية النفسية بصدد هذه التخييلات[١٧] . فهو يتصور المنشأ النفسي لهذه التخييلات ، بالنسبة إلى الذكور من الأفراد ، مماثلاً للانحراف المازوخي . فالتولد المرضي لهذا الانحراف يرتبط ، حسب رأيه ، بعقدة اوديب . وفي هذه التخييلات ، يمثل الطفل المضروب الشخص المازوخي نفسه ، أما الذي يَضرب فهو الأب . وتعبر حاجة الطفل إلى أن يُضرب عن رغبته المكبوتة في ان يُحَب . ويتم فيما بعد صبغ العقاب بصفة جنسية[١٨] .

إلا ان هذه النقطة ـ اي تجنيس العقاب ـ تستدعي بعض الايضاحات .

إن فكرة الشعور بالذنب الناجم عن عقدة اوديب تفسر ـ إذا صح التعبير ـ الجانب السلبي من الظاهرة ، لا الجانب الايجابي منها : كسب اللذة عن طريق الألم . فتجنيس العقاب لا يمكن فهمه إلا عن طريق النكوص ، اي العودة إلى مراحل قبتناسلية من النمو الطفلي . ونحن نعرف جيداً كم تتداخل الدوافع الغريزية في هذه الأطوار وتتشابك ، وعلى وجه التعيين الدوافع السادية والجنسية . والتمييز بينها صعب ، وفرويد يتكلم بسداد كبير عن « مادة يمكن أن تنبثق منها لاحقاً الصفة الجنسية والسادية » .

= DES TROUBLES DE LA SEXUALITÉ الجزء الاول ، ف . آ لكان ، ١٩٣٥ .

(١٦) س . فرويد ، « ولد يُضرَب » . ترجمة هوسلي ، المجلة الفرنسية للتحليل النفس، المجلد ٤ ، العدد ١٤ ، ١٩٣٥ .

(١٧) لقد تركنا جانباً هنا ، مرة اخرى ، كل ما يتصل بالبنت الصغيرة ، وذلك لأننا سنعالج المازوخية لدى المرأة في فصل مستقل .

(١٨) لنذكّر باختصار أن هذه التخييلات تدور حول مشاهد تمثل طفلاً واحداً او عدة أطفال يضربهم رجل .

إذا ما بقينا في مضمار وقائع الملاحظة ، لم نجد بدأ من التسليم بأن مشاهـدة أفعال القسـوة أو ممارستهـا تشكلان في جميـع الحالات عنصر تهيج جنسي لدى الأطفال ، وكذلك الألم الذي قد يستشعرونه . إن هذه الوقائع ، إذا ما ربطت بما يكون عليه الأطفال إلى طور محـدد من اعمارهم من جهل بالدلالة الصحيحة للعلاقات الجنسية وبدور الأعضاء التنـاسلية ، تؤدي إلى اختـلاط في الصور وفي الأحـاسيس لدى الطفـل يُعرف في التحليل النفسي باسم « التصور السادي للجماع » ؛ وقد يكون من الاصح ان نقول : التصور المازوخي ـ السادي .

إن هذا الاختلاط في الانطباعات تعززه المشاهدة العارضة للجماع بين الوالدين أو بين أشخاص آخرين ، او ـ وهذا اكثر تواتراً ـ مشاهدة الزواج بين الحيوانات ، وهما واقعتان يؤولهمـا الطفل عـلى أنهما فعـل قسوة وعنف .

زد على ذلك انه إذا ما تلقى الطفـل ، في الفترة التي يكـون فيها غارقاً في هذه المعضلات الرهيبة بـالنسبة إليـه ، عقوبـات تستثير فيـه مشاعر ايروسية ، فذلك قمين بأن يحمله على أن يتخيل أن ما يحدث اثناء الجماع لا يختلف كثيراً عما يحدث حين يتلقى الضربات .

بـذلك نفهم إلى أي حـد يمكن ان يستهويـه تبني مـوقف سلبي مازوخي .

فبالتماهي مع أمه ، يتخلص من الخوف من أبيه (الخصـاء) ؛ وعلاوة على ذلك ، يمسي محبوباً مثله . والحالة التالية نموذجية بالنسبة إلى هذه الأوالية[١٩] . وهي حالة شاب تتلخص قصته على النحو التالي : ميول عصابية ومنحرفة منذ حداثته ، وقد أفلح في إقامة علاقات جنسية

---

(١٩) س . نـاخت ، التحليل النفسي لـلاعصبـة النفسية PSYCHANALYSE DES PSYCHONÉVROSES ، ف . آلكان ، ١٩٢٥ .

مع امرأة شابة طالما بقيت عشيقته . ولما تزوجها صار ، بين عشية وضحاها ، عنيناً : فراح يطلب من شريكته أن تقيده ، وتخزه بالدبابيس ، أو أن تضربه . وتأدى ذلك إلى انتصابات تلاها قذف ، ولكن بدون جماع . وقد استطاع التحليل النفسي لهذا المريض أن يكشف عن أهمية عقدة اوديب المعكوسة لديه وعن الذكرى الرضية للعلاقات الجنسية بين الوالدين . وما كان للطبع الفظ والعنيف للأب (الذي كان يعذب زوجته بكل ما في الكلمة من معنى) إلا ان يعزز الدلالة المازوخية السادية للجماع الذي كان يتخيله تخيلاً . والواقعة البارزة في تحليل هذا المريض تكمن في استحالة قبوله بالتماهي مع ابيه ـ وهي استحالة عبر عنها بالعنة ثم بالانحراف والتماهي المازوخي مع الأم .

غالباً ما نلحظ ، في أثناء التحاليل النفسية ، كم يساهم طبع الوالدين ، والجو العائلي ، بالاضافة إلى الميول الجبلّية غير المحدَّدة بعد تحديداً جيداً ، في توجيه الميول الطفلية ـ ومن ثم النمو الجنسي ـ في هذا الاتجاه او في ذاك .

قد يعترض معترض بقوله : إننا تكلمنا عن موقف سلبي يقفه الصبي تجاه أبيه ، في حين أنه عندما يصبح راشداً يطلب الاشباعات المازوخية من امرأة لا من رجل . وبالفعل ، كان من حقنا منطقياً أن نتوقع أن يكون الرجل ، لا المرأة ، بديلاً للأب . ولكن تظهر الملاحظة ، في الواقع ، أن هذا نادر الحدوث بالنسبة إلى المازوخي المنحرف : فالموضوع الجنسي يكون امرأة بوجه عام .

اما بالنسبة إلى المازوخي المعنوي ، فبديل الأب ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ يكون على الدوام رجلاً .

هاكم مع ذلك حالة غريبة تسنى لنا أن نلاحظها :

عصاب مازوخي لا يتبدى فيه التخييل ـ ضرب المريض من قبل

أبيه ـ إلا بصورة متقطعة وغير منتظمة ، خلال فترات قصيرة من الاكتئاب . وقد كان التحليل النفسي لهذه الحالة بالغ التعقيد فما امكن إتمامه . إلا انه كشف لنا عن واقعة تثير اهتمامنا هنا : فقد اضطر المريض في اثناء سفرة ، عندما كان في الخامسة او السادسة من عمره ، أن ينام على فراش بالقرب من سرير والديه . وراح الطفل يستمني عندئذٍ ، فقفز أبوه خارج سريره كي ينزع عن ابنه الغطاء ويعاقبه بضربه بقوة على إليتيه . وكان لهذا الحادث في اغلب الظن الانعكاس الذي اسلفنا الإشارة اليه ، إذ ان هذا الاستمناء ذاته كان يرتبط ارتباطاً مباشراً بعقدة اوديب غير المحلولة بعد .

ولعلنا لا نبعد عن الواقع ، في الحالات التي يبقى فيها الأب هو الذي يضرب ، اذا اعتبرنا العقوبات البدنية التي يتلقاها الطفل في ظروف مماثلة (استمناء او تخييلات محرميّة) ذات أثر حاسم في التوجيه الجنسي للطفل .

ثمة حالة اخرى مثيرة جداً للاهتمام يمكن ان توضح هذا التصور . تتصل هذه الحالة بشاب تتنوع تخييلاته وتتقلب : فتارةً يتخيل طفلاً يُضرَب من قبل رجل ، وطوراً يكون الطفل هو الذي يَضرب امرأة . زد على ذلك أن تخييل الطفل المضروب كان ضرورياً لإتمام الجماع . وقد كشف التحليل عن ازدواجية وجدانية قوية للغاية لدى الشاب إزاء كل من والديه . فقد بدا التخييل الأول ، كما في الحالة السابقة ، مرتبطاً بعقاب أوقعه الأب عقاباً على الاستمناء . إلا ان العقاب هنا لم يخضع ، بصورة استثنائية الى حد ما ، لعملية تجنيس .

لقد جرى استخدام هذا العقاب بنوع ما للتخفيف من حدة الخوف من الخصاء . وبصورة خطاطية ، يمكننا أن نصوغ الأمور على النحو التالي : بما أنه (الأب) يكتفي بضربي ، فلن يفعل بي أسوأ من ذلك (لن يخصيني) . وقد أظهر التحليل أن كل شيء كان يجري كما لو

أن العقاب المرموز اليه بالتخييل يبيح العلاقة الجنسية . ويدل التحليل أن هذه الاستجابة متواترة بما فيه الكفاية وهي تفسر،جزئياً،لماذا يطلب بعض الأطفال العقاب ، ولماذا يخلصهم هذا العقاب من القلق الذي يدفع بهم إلى طلبه . ويتذكر أحد مرضانا بوضوح كم كان يشعر بالانفراج إثر معاقبة أبيه له . وقد سمح له كذلك التحليل النفسي بأن يفهم ان هذا الانفراج انما مرده إلى شعوره بالطمأنينة ، كما لو أن معرفته بالمدى الذي يمكن ان يصل اليه العقاب (الضرب على الاليتين ، لا الخصاء) تأذن له بالاعتقاد بأن من المباح له الاستمرار في طلب الإشباعات الجنسية .

إلا أن امرأة هي التي تمثل الموضوع الجنسي في اغلب الحالات ، وذلك سواء أفي اثناء التخييلات ام في اثناء الممارسات المازوخية . والحال أن ما فهمناه حتى الآن قمين بأن يفسر لنا بالأحرى موقف المازوخي إزاء موضوع جنسي مثلي .

ماذا يحدث عندما يكون الأمر متعلقاً بموضوع جنسي غيري ؟

يقول فرويد ـ دائماً في مقالته « ولد يُضرَب » ـ ، بدون أن يتوسع تمام التوسع في فكرته ، إن الطفل قد يرغب في الهرب من الاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي ، إلا إنه لا يفلح تماماً في هذا الهرب ، كما يثبت ذلك موقفه الأنثوي من جهة ، والصفات الذكورية التي يخلعها على تلك التي تمثل الموضوع الجنسي الغيري .

إذا كنا نفهم جيد الفهم إلى حد ما كيف يمكن ، في مواجهة خطر الخصاء ، أن يبدو الموقف السلبي الأنثوي والمازوخي مريحاً إزاء الأب او بديله ، فإننا لا نتبين بوضوح لماذا قد يرغب الطفل في تعكير موقف الطمأنينة المكتسب بغالي الثمن ليتجه من جديد إلى موضوع خطر .

إلا أننا عندما نتذكر تعقيد الخلجات التي تعتمل في نفس الطفل في

أثناء نموه ، لا يعود ثمة مبرر لأن تأخذنا الدهشة إزاء هذا التأرجح بين الأب والأم ، هذا « التردد » إزاء الموضوع المطلوب اختياره . وبالرغم من هذا التوجه الجديد نحو الأم ، فإن خطر الخصاء تم استبعاده ، لأن الطفل قد احتفظ إزاء هذه الأم بموقف أنثوي سلبي (كما لو أنه خضع سلفاً لهذا الخصاء) . من جهة اخرى ، يمكن للعنصر المازوخي - العقاب ، الألم - أن يشق طريقه إلى الوجود على « سبيل الغش » . وفي هذه الحالة يعني موقف الصبي (والراشد الذي صار منحرفاً فيما بعد) : « بما أنها تسيء معاملتي ، فهذا يعني انها لا تحبني . إذن لا يمكن أن ألام على ذلك » .

ومن الممكن كذلك لكثير من العوامل الفردية أن تدخل في التوجه الجنسي النفسي المازوخي .

إلا ان ما هو ممكن في حالة قد لا يكون ممكناً في حالة اخرى ، او بالأحرى ان ما هو قمين بأن يرضي شخصاً بعينه قد لا يكون قميناً بأن يرضي شخصاً آخر ، او كذلك إن ما هو مقبول به في فترة محددة من التطور قد لا يعود مقبولاً به فيما بعد . إن صبياً بعينه ، إذا ما استسلم لموقف مازوخي إزاء أبيه ، قد يقيم على استسلامه هذا بصورة نهائية إذا ما وجد فيه إشباعاً ما ؛ إلا ان الأمور لا تجري دوماً على هذا النحو : فقد يعود الصبي مجدداً إلى الأم ، وعلى الأخص إذا تم إبعاد « خطر الخصاء » . ومن البديهي أن سلوك كل من الوالدين إزاء الطفل له هو الآخر تأثيره . وقد يبقي موقف الأب ابنه في حالة خضوع مازوخي ، او على النقيض من ذلك قد يردّه إلى الأم ، والعكس بالعكس .

يكاد التطور الطبيعي ان يحمل الطفل دوماً على العودة إلى أمه ؛ وبالفعل ، إن من السهل عليه أكثر ان ينتظر منها ، هي ، الإشباعات الليبيدية . وإذا لم يجد النزاع الأوديبي مخرجاً سوياً له، فسيكون من الايسر عليه ان يحصل منها على إشباعات نكوصية قبتناسلية .

إن عقـدة اوديب لهي بمثابـة منعطف في النمو الجنسي النفسي ، وعلى الطفل أن يتخطاه . وإذا لم يتمكن من تجاوزه ، وجد نفسه مجبراً على الرجوع إلى الوراء . إلا أن الرجوع إلى الوراء لا يعني الرجوع إلى لا شيء : فالنكوص يعيد الطفل ، بصورة أو بأخرى ، إلى ما كان موجوداً من قبل . ومن الذي يمـلأ الحياة القبتنـاسلية ، إن لم يكن الأم ؟ (أو بديلاتها ـ وهن نساء ، على كل حال) .

إن المازوخي ، كسائـر المنحرفـين ، لا يتجرأ عـلى أن يصبو إلى إشباعات تناسلية ، تبدو له عصية المنال . فالإشباعات التي يطلبها لها دوماً طابع طفالة INFANTILISME جنسية، وبالتالي تبقى قبتناسلية . ونادراً ما يكون الجماع ممكناً له ، بـالرغم من كـل الإخراج المسـرحي وضروب التعذيب المازوخي . وسرعان ما يعدل هؤلاء المرضى ، بعد بضع محـاولات مخيبة ، عن الجمـاع : إنهم يكتفون بـوجه عـام بإشبـاعات استمنائية مبهمة ، بل كثيراً ما يغيب أي إشباع ايروسي ظاهر ، فلا يبقى لهم سـوى الإشباعـات التي يجنونهـا من سلوك مـازوخي . فما هـذه الإشباعات ؟ .

كلها تحمل علامة المشاهد الطفلية ، وتذكّر بقدر او بآخر بفصول من الحياة الجنسية القبتناسلية .

يروي سادجر[٢٠] ان احد مرضاه ، وهو مازوخي منحرف ، جاءه يوماً قائلاً بلهجـة المنتصر : « إني اعرف من أين أتت مـازوخيتي : من تقميطي » . ربما كان هذا المريض على حق . وقد أعلمنـا فرويـد ، كما أثبتت ذلـك ملاحظـة جميع الحـالات اللاحقـة ، أن الانحرافـات هي ،

---

(٢٠) سادجر ، **التحليل النفسي للعواطف الانسـانية الملتبسـة** PSYCHOANALYSE DER GESCHLECHTEVERIRRUNGEN ، **فيينا** ، ١٩١٣ .

بصورة عامة ، تظاهرات للجنسية الطفلية ، إما بحكم النمو المفرط لغريزة جزئية بعينها ، وإما نتيجة للتثبيت على مرحلة قبتناسلية بعينها ، وإما ـ وهذا هو الغالب ـ نتيجة للجمع بين هذين العاملين .

إن المازوخية ، وان كانت تتألف من شبكة من علل متعددة ، ترسي جذورها أيضاً في بعض الأشكال غير المتطورة من الجنسية الطفلية .

يجد الطفل نفسه ، خلال هذه المرحلة ، في نفس موقف السلبية والخضوع والاستسلام للأم (او للمرأة التي تعتني به) الذي يقفه المازوخي إزاء المرأة التي جرى توظيفها كموضوع جنسي . والإشباعات الايروسية لهذه الحقبة الطفلية تبقى ، إلى حد كبير ، سلبية في جوهرها ، لكنها لا تكون بسبب ذلك أقل قوة . وهي تبقى ملازمة للتنظيم الليبيدي لهذه المرحلة من الحياة الطفلية ، والعناية بالنظافة البدنية هي التي تستثيرها . وتتسم بشرة الجلد لدى بعض المازوخيين بالصفة الشهوية ذاتها التي نلتقيها لدى الطفل في هذه المرحلة من تطور الجنسية .

إن العوامل المبهمة ـ لنسمِّها جبلِّية ـ وكذلك على الأخص سلوك الأم او بديلاتها ، والكيفية التي تيسِّر بها او لا هذه الإشباعات ، او الطريقة التي تلغيها بها يوماً ، تشكل عناصر قمينة بأن تقرر المصير اللاحق لهذه التظاهرات الايروسية الطفلية واستعمالها النكوصي عن طريق المازوخية .

لقد لفت ر . لوفينشتاين[٢١] ، ثم روث ماك ـ برانشفيك[٢٢] ، الانتباه بحق إلى الطور القضيبي من النمو الجنسي . فالتظاهرات

---

(٢١) ر . لوفينشتاين ، « حول السلبية القضيبية لدى الرجل » ، **المجلة الفرنسية للتحليل النفسي** ، العدد ١ ، السنة ١٩٣٥ .

(٢٢) روث ماك ـ برانشفيك ، بحث مقدَّم إلى المؤتمر الدولي للتحليل النفسي ، لوزيرن ، ١٩٣٥ . نقلاً عن ر . لوفينشتاين .

الجنسية القضيبية لا تُتصور ، في هذا الطور ، إلا في شكل سلبي : استعراء ، ملامسات ، الخ . اما وظيفة الإيلاج الايجابية ، العدوانية ، فَلا تظهر إلا ثانوياً . والحال ان كبتاً شديداً لهذا المقوِّم العدواني من شأنه ، فيما يبدو ، أن يعيد الوظيفة القضيبية إلى طورها السلبي السابق .

لقد لاحظ ر . لوفينشتاين هذه السيرورة لدى بعض المصابين بالعنَّة .

أما نحن ، فيبدو لنا أن هذه السيرورة تحدث أيضاً بمزيد من الوضوح لدى بعض المنحرفين المازوخيين ، ممن يكون القذف عندهم من نوع إحليلي (اي الدفق المتصل) ، وهي حالة وصفها ك . ابراهام ولاحظها ايضاً ر . لوفينشتاين لدى العنين الذي يعاني من تثبيت على الطور القضيبي السلبي .

إلا ان السلبية ليست كل شيء في المازوخية ؛ فهنالك ايضاً عنصر الألم . وقد شدَّدنا ، غير مرة ، على الركيزة الفيزيولوجية « للمزاوجة » بين الألم والإحساس الايروسي . ومن البديهي أن هذا العنصر هو العنصر الأساسي ، إلا أنه سيؤثر هو الآخر بقدر او بآخر على التوجه الجنسي في المستقبل ، وذلك تبعاً لجملة الظروف السابقة لتطور الشخص . فإذا ما حُرِم طفل ما ، مثلاً ، من الإشباعات الليبيدية الايروسية المصعَّدة ، اي الحانية ، وإذا ما مرَّ عرضاً بتجربة التهيج الناجم عن الألم ، فسيتدبر بعد ذلك أمره لاستثارة عقوبات من شأنها ان توفر له ، بالرغم من طابعها غير المستحب ، أحاسيس لذِّية .

في كثير من الأحيان كذلك ، إذا ما راود الطفل ، عن خطأ او صواب ، شعور مؤلم بأنه مهجور ، إما لأنه كبر فصارت الأم تهتم به اقل من ذي قبل ، أو لأن إخوته أو أخواته استأثروا باهتمام هذه الأم ، فقد يرغب في أن يجذب اليه من جديد اهتمامها مهما كلف الأمر . وفي

كثير من الأحيان ، قد لا تكون لديه وسيلة اخرى لذلك غير استثارة الغضب والعقاب . وفي البداية سيقول في نفسه لاشعورياً إن اي شيء احسن من لا شيء ، ثم لا يلبث هذا الشيء الأحسن من اللاشيء أن يصبح هو كل شيء .

في حالات اخرى ، أخيراً ، يطلب المازوخي الألم ويستثيره عن طريق رده إلى ذاته العدوانية التي كانت موجهة اول الأمر ضد الأم . وان وجدت هذه الأوالية في عقدة اوديب المبرر الأكبر لوجودها ، فهذا لا يعني انها وقف عليها وحكر لها ، بل كثيراً ما نراها قيد الاشتغال في ظروف اخرى .

يحب الطفل كل الذين يعتنون به ، لأن العناية التي تُقدَّم له تكون ، لفترة من الزمن ، مصادر إشباع ايروسي وبراهين حب . إلا أنه لا يلبث أن يكره الأشخاص أنفسهم حالما لا يعود هؤلاء يضطلعون بهذا الدور بالنسبة إليه[٢٣] . فالحرمان من الإشباع الايروسي ـ وهو في هذه الحالة قبتناسلي ـ يطلق ويحرر قبل كل شيء الحفزات السادية[٢٤] .

إن هذه الكراهية التي تترجم عن نفسها مباشرةً بسلوك عدواني ، ستستثير استجابات مماثلة من قبل الشخص المستهدف إذا ما دخل هذا الأخير في لعبة الطفل ، وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان . فارتداد العدوانية يكون هنا مباشراً . ومن ثم فإنه يصار إلى تجنيس المعاملات السيئة ، كما بيَّنَّا ذلك في حالة سابقة ، لأنها ستحل من الآن فصاعداً محل ما حُرِم منه الطفل .

يتفق كذلك للطفل ، للعديد من الاسباب ، وبالتحديد لأنه يخاف

---

(٢٣) سادجر ، **محاولة لفهم السادية ـ المازوخية** ، المجلة الدولية للتحليل النفسي ، المجلد ١٢ .

(٢٤) هذه الاطروحة توسع بها على الأخص ف . رايش ، بعد فرويد .

أن يرى نفسه مهجوراً هجراً تاماً ، الا يتجرأ على إظهار هذه العدوانية ، وعندئذٍ تنعكس عليه هو نفسه وتجد إشباعها في المعاملات السيئة التي يلقاها .

باختصار ، إن الحرمان من الحب او من الإشباع الايروسي يقود الطفل إلى تداركه عن طريق طلب المعاملات السيئة التي تنتهي ، بعد أن تخضع للتجنيس ، إلى تلبية حاجاته الليبيدية ، ولكن بكيفية مازوخية . وبما أن الأم (او بديلاتها) هي التي توفر جميع الإشباعات الليبيدية لردح من الزمن ، فمنها تحديداً سيطلب الطفل فيما بعد هذه الإشباعات .

من المفيد هنا أن نتوقف عند السمات الرمزية للشخص الذي يلعب في العادة دور الموضوع الجنسي بالنسبة إلى المازوخي . فالأمر يتعلق دوماً بامرأة ذات « صفات » ذكورية ، تشهر سوطاً او مقرعة ـ اي عضواً ذكورياً رمزياً ـ وتلبس فراءً ، ولهذه الفراء معنى رمزي جنسي أنثوي واضح أيضاً للعيان . وهذه الشخصية تجسّد بجلاء التصورات الطفلية عن الأم الذكورية .

إن المازوخي يستعيد ، من خلال المرأة التي تضربه بالسوط ، صورة تلك الأم القادرة على كل شيء . ويجدر بنا كذلك أن نأخذ في اعتبارنا أن الضربات بالسوط يمكن أن ترمز إلى الجماع في نظر بعض المازوخيين . يعرف المحللون النفسيون جيداً أنه على هذا النحو أيضاً يتصور الكثير من الأطفال ، لأمد من الزمن ، العلاقات الجنسية . بل قد يتفق للطفل أن يتصور في بعض التخييلات جماعاً مع أمه في صورة ضرب بالسوط ـ ولكنه هو الذي يمثل في هذه الحال العنصر الايجابي .

وقد يحتوي التخييل ، تحت تأثير الكبت ، على الرغبة ذاتها ، وانما محرّفة ، فيتخيل الطفل عندئذٍ نفسه خاضعاً بصورة سلبية للمعاشرة الجنسية التي ما كانت إلا لتكون محظورة لولا هذا التعديل .

نحن نرى كم يمكن لعناصر معقدة ان تتدخل ، بمقادير شتى وتراكيب مختلفة ، تبعاً للحالات ، في نشوء الانحراف المازوخي .

إذن لنحاول أن نلخص ما قلناه لتونا :

يرتكز الانحراف المازوخي إلى الأوالية المعتادة للانحرافات الجنسية: **تثبيت على مراحل قبتناسلية من النمو الجنسي ونكوص نحوها** . فالسلبية والحاجة إلى الخضوع والتبعية تميزان بالتحديد شطراً كبيراً من الحياة الطفلية . وهذه السلبية الملازمة لبعض أطوار النمو الجنسي يطرأ عليها تعزيز ، وبالتالي تثبيت لدى المازوخي،في شروط محددة ، وعلى وجه التعيين عندما تكون العدوانية الضرورية للانتقال إلى التظاهرات الجنسية الايجابية قد كُبتت ، ثم ارتدت نحو ذات الشخص .

لقد بيّنا أن هذه السيرورة تحدث عندما لا يتغلب الطفل على عدم الإشباع الليبيدي ، الذي يستشعر له ألماً لا يطاق ، وذلك إما لأسباب جبلّية ، وإما لافتقاره إلى إشباعات بديلة (حنو ومحبة) .

إن عقدة اوديب لا تفعل شيئاً سوى أن تزيد طين هذه المصاعب بلة . فالخوف من الخصاء ، الذي لم يتم التغلب عليه بقدر كاف ، يعيد المازوخي نكوصياً إلى أطوار سلبية قبتناسلية .

وعلى خلفية السلبية هذه ، تطلق العدوانية المستثارة من جراء الإحباطات القبتناسلية والاوديبية ، والمرتدة نحو ذات الشخص ، والمنقلبة عليه هو نفسه ، تطلق العنان لنفسها في شكل مازوخية .

إن العقوبات البدنية ، بما لها من صفة إيروسية مباطنة ، تعزز هذا التوجه وتعطي تحول الكدر إلى اللذة ركيزة فيزيولوجية ؛ وهي قابلة ، فضلاً عن ذلك ، للتضمين في مختلف الاستجابات الصادرة عن إحساس لاشعوري بالذنب ، وتستطيع بالتالي أن تبقي ، في صورة عقاب مستثار ، على ضرورة إبدال اللذة ألماً .

(٣)
المازوخية المعنوية

تتميز المازوخية المعنوية عن المازوخية البدنية ، الشهوية ، بسمتين رئيسيتين : فهي لا تبدو للوهلة الأولى ، ومن جهة أولى ، على صلة بالوظائف الجنسية ؛ وليست هي ، من جهة اخرى ، ظاهرة شعورية بالنسبة إلى الشخص الذي يعاني منها . فالمازوخي المعنوي لا يعرف أنه مازوخي ، ويجهل أنه هو الذي يصطنع آلامه ، علاوة على أنه يجهل أن هذه الآلام يمكن أن تشكل وسائل خاصة لإشباع حاجات ليبيدو مقيَّد . وقد يدهش عظيم الدهشة إذا شاء سوء التدبير لأحدهم أن يصارحه بذلك دفعة واحدة .

لا يمكن للمازوخي المعنوي أن يعي مازوخيته إلا بعد العمل الطويل والدؤوب الذي يستلزمه العلاج التحليلي النفسي .

إنه يستثير او يختار لاشعورياً إذن الألم ، وإن كانت نفسيته اللاشعورية تستخدم هذا الألم إما لتسمح بإشباعات ما كانت إلا لتكون محظورة لولا ذلك ، وإما لإحلاله محلها .

إن القاسم المشترك بين المنحرف والعصابي هو ان كلًّا منهما يطلب ـ وان بطرق مختلفة ـ ما يهرب منه الإنسان السليم : الألم[١] . إلا ان هذا الألم هو ، للشكل الأول كما للشكل الثاني من المازوخية ، وسيلة ، لا هدف بحد ذاته .

(١) ربما قد يكون من الاصح القول : الكدر او العذاب .

لقد اكتشف فرويد ، عن طريق ملاحظته لاستجابة تتسم بقدر كبير من الغرابة ، الحاجة إلى التألم . وقوام هذه الاستجابة التي سماها « استجابة علاجية سلبية » ما يلي : ففي اثناء المعالجة التحليلية النفسية ، وعندما يكون نزاع او عرض ما قد حُلِّل بما يكفي لتوقع حدوث تحسن ما ، نلحظ احياناً ، على العكس من ذلك تماماً ، انتكاساً لعرض واحد أو لعدة أعراض .

ويمكننا ، في حالات أخرى ، أن نلاحظ الاستجابة عينها ، ولكن في صورة أخرى : فبالتوازي مع التحسن او اختفاء العرض المُحلَّل ، يظهر عرض آخر .

لقد أرجع فرويد هذه الاستجابة إلى حاجة إلى التألم ، كتعبير عن عقدة ذنب لاشعورية .

هذا الشعور الأخير يجنح إلى السكون (وقد يكون من الأصح القول إنه يؤول إلى كبت) بسبب الألم المستشعر تحت تأثير العصاب . وإنما دفاعاً عن هذا الموقف، يجري كل شيء كما لو أن العصابي يخشى أن يتألم بطريقة أخرى في حال شفائه ـ وسنرى فيما بعد كيف يتم ذلك ـ فيعارض لاشعورياً هذا الشفاء عن طريق تشبثه بأعراضه ، أو كذلك عن طريق توليده لأعراض اخرى .

« إن المريض مضطر إلى ان يسلك سلوك المذنب الذي يحتاج إلى المرض لكي يكفر عن جريمته » (فرويد) .

إلا ان هذا الميل العقابي ـ الذاتي ، الذي من خلاله تتظاهر عقدة الذنب الطفلية ، لا يشكل حاجزاً امام الشفاء فحسب ، بل يسهم ايضاً بقسط وفير في النشوء النفسي لحالات مرضية عصبية نفسية .

لقد خيل لبعض المحللين النفسيين أنهم يستطيعون ان يجدوا التفسير الكامل للأعصبة في واقع أن الإحساس اللاشعوري بالذنب قابل للامحاء بفعل الألم العقابي الذاتي[٢] .

---

(٢) ف . الكسندر ، العصاب والشخصية العامة ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، =

إن تفسيراً بسيطاً ، وبخاصة عندما ينطوي على شيء من الحقيقة ، مثلما هي الحال هنا ، يكون مغرياً جداً للعقل ، إلا انه يكاد أيضاً ان يحجب عن الأنظار تعقيد مشكلة كمشكلة الأعصبة النفسية .

وبدون أن نرفع هذا التفسير إلى مصاف نظريةٍ تفسيرية عامة ـ ولو فعلنا ذلك لأخطأنا ـ لا نجد مناصاً من الإقرار بأن معرفة الأواليات العقابية الذاتية قد سمحت بفهم ممتاز للجانب السريري والعلاجي من جوانب الأعصبة النفسية .

كان المفروض بنا إذن أن ندرس دور المازوخية في كل التظاهرات المرضية النفسية . لكننا نفضل أن نحدَّ البحث كي نتعمق في بعض النقاط : وعلى هذا سوف ندرس المازوخية في العصاب الوسواسي ، وفي السويداء ، وفي بعض اضطرابات الوظائف الجنسية (العنَّة والجنسية المثلية) ، وفي المعالجة التحليلية النفسية .

إلا أننا ، قبل ذلك ، سنهتم بالمازوخية بصفتها تظاهرة باتولوجية مستقلة عن الحالات المرضية النفسية الموصوفة . وهذا الشكل من المازوخية يمكن ان يتمخض عن عصاب حقيقي في السلوك يسميه فرويد بـ « المازوخية المعنوية »[٣] ، وتصفه أدبيات التحليل النفسي تحت اسم الطبع المازوخي[٤] ، وهو اسم قد أحسن فيما يبدو لنا اختياره .

الطبع المازوخي :

هاكم الصفات النموذجية التي هي بمثابة خلفية عامة لهذا الطبع .

ذاتياً : شعور دائم بالشقاء ، بعذاب يصعب تحديده ، بتوتر وجداني ، وعلى الأخص بعدم الرضى ؛ حاجة إلى الاشتكاء ، إلى الظهور

= المجلد ١٢ ، ١٩٢٦ .

(٣) فرويد ، المبدأ الاقتصادي للمازوخية ، في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي .

(٤) رايش ، الطبع المازوخي ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٣٢ ، المجلد ١٨ .

بمظهر الانسان التعيس ، العاجز ، والمسحوق تحت وطأة الحياة ؛ ميل إلى اعتبار المشكلات الأكثر بساطة في الوجود مشكلات معقـدة ومتعذرة الحل ، والى المبالغة في ادنى المصاعب وإلى تصويرهـا وكأنهـا عذاب لا يطـاق ؛ وبالتـوازي مع ذلـك كله ، استحـالة التمتـع بملـذات الحيـاة ومباهجها .

موضوعياً : سلوك « اخرق »[٥] ، غير متكيف ، يفتقر إلى المرونة ، يبعث على الدهشـة ، ولا سيما إذا كـان صادراً عن شخص ذي ذكـاء عادي ؛ فهذا الشخص ، إذ يجـذب اليه عـداوة المحيط ، يضع نفسـه دوماً ، كما لو بدفع من قدر محتوم ، في المواقف المستكرهة ، بدون أن يعرف ابداً « كيف يتجنب « الحظ العاثر » ، بل نراه على العكس يطلبه : « كلما لاحت في الأفق نذر ضربة ، مدً لها المازوخي خده » (فرويد) . باختصار ، سلوك يترجم عن حاجة لاشعورية إلى طلب الألم ، إلى إذلال النفس عن طريق الظهور في مظهر غير مؤات على الاطلاق ، والى المكابدة من الإخفاق والفشل في كل مجال .

على هذه الخلفية يمكن لنماذج سيكـولوجيـة مختلفة أن تـرتسم نتيجة لغلبة ميـل مازوخي بعينـه ، فتجد إشبـاعها في ضـروب العذاب الإنساني التي لا تُحصى .

هنـالك نمـوذج الإخفاق التـام : الرجـل الذي لم يفلـح قط ، اي الفاشل المزمن . إنه الولد الذي يدفعه والداه دفعاً إلى الدرس ، فيرسب في الامتحانات ، ثم إذا ما بلغ سن الرشد اتجه نحو نشاط أدنى مستوى من بيئته (اي من والديه) ، فيخيب أمله فيه ، ولكنه لا يقف عنـد هذا المنحدر ـ عندما يقف ـ إلا بعد أن يكون قد ادرك الحضيض .

وهنالك الذي يصبح هذا الفاشل عينه بعد ان يكون أصاب حظاً من النجاح . فهو ، مثلاً ، التلميذ اللامع الذي يخفق حالمـا يترك المـدرسة

(٥) « الاتاكسيا النفسية » (ف . رايش) .

ليواجه معارك الحياة . وهذا الاحتكاك مع مقتضيات سن الرشد يتوافق زمنياً ، بالإجمال ، مع بداية حياة الحب .

وهاكم الرجل الذي ينجح في مهنته حتى اليوم الذي يتزوج فيه ، فيمنى بعد ذلك بالفشل تلو الفشل . فإذا ما تراكمت إخفاقاته اصبح موقفه في مهنته بالذات حرجاً .

هنالك ايضاً الرجل الذي ينجح على الصعيد الاجتماعي ، لكن بشرط أن يكابد الفشل في حياته الحبية . ويكون قد دُفع بصورة لاشعورية إلى اختيار إمرأة لا تحبه ، او لن يحبها هو ، فيسلك على نحو يحدو بها إلى ان تسيمه خسفاً وعذاباً ، أو يصبح عاجزاً عن إشباعها ، وبذلك يضع نفسه في موقف أدنى او تابع إزاءها .

من منا لم يلاحظ حالة المُستخدَم الذي كان شبه سعيد حتى اليوم الذي أوصلته فيه قدراته ، او المصادفة ، إلى المرتبة الأولى ، مرتبة « الرئيس » ؟ . فمنذ ذلك الحين ، تظهر لديه حاجة إلى العقاب من خلال استجابات مازوخية شتى ، لتجعل منه انساناً تعيساً .

يروي فرويد الحالة النموذجية لفتاة صبية صارت ، بعد أن اجبرت والديها على طردها من البيت ، عشيقة رجل أسعدته وأسعدها ، بالرغم من الإزعاج الذي كان يسببه لها هذا الموقف الشاذ ، ولبثت على هذه الحال حتى اليوم الذي تزوجها فيه . فمنذ ذلك الحين أرغمتها استجاباتها العصابية النفسية على هجر زوجها . وكانت الحاجة إلى اتقاء النجاح هي وحدها التي دفعتها إلى ذلك .

من السهل علينا ، إذا شئنا ، أن نطيل لائحة الذين « يفشلون أمام النجاح »[٦] . فهم أشخاص لا يغفرون لأنفسهم توفيقهم وفلاحهم : لذا نراهم منساقين لاشعورياً إلى البحث عن أية حجة من الحجج أو أي سبب من الأسباب كي يشعروا بالتعاسة . فإنما على هذا النحو وحده

(٦) فرويد : من يفشلون امام النجاح ، ظهر اولاً في مجلة ايماغو ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ، ثم في كتابات مجموعة ، م ١٠ .

يمكن أن يعرفوا « راحة الضمير » .

لكن هنالك أيضاً من لا يكون ملزماً بأن يدفع ثمناً لنجاحه عذابات لا مبرر لها ، وذلك لسبب وجيه وهو انه لم يتمكن قط من اجتياز الحاجز الذي ابتنته له الحاجة إلى الفشل ، فبقي ، من جراء ذلك ، مغلوباً على أمره سلفاً .

او أيضاً ذلك الذي لا يتكلم ولا يفكر إلا بما يمكن أن يكون بالنسبة اليه وإلى ذويه مصدر قلق وعذاب . إنه المتشائم الدائم ، معكِّر الصفو الذي تتحدث عنه القصص .

وهنالك على الأخص التعيس الذي يقضي حياته في اجترار فكري حزين وسقيم ، وفي التمتع بالكآبة .

أخيراً ، هنالك الذي يعيش ساخطاً ومتوتراً إلى أن تتيح له مصيبة ما : مرض ، حزن ، او خسارة مالية ، أن يرثي بحقٍ لنفسه فتوفر له بذلك انفراجاً موسوماً حقاً بميسم المازوخية .

يمكننا القول إن كل إنسان ، إذا ما وُضِع في شروط حياة سوية موضوعياً وعجز عن إعطاء هذه الحياة معنى يبعث على الرضى ، يكشف من هنا بالذات عن طبعه المازوخي .

إن جميع هذا الاستجابات ، التي قدمنا عنها هنا صورة خطاطية ، تثير الاهتمام لأنها تمثل تظاهرات نموذجية للطبع المازوخي الخاضع للحاجة إلى العقاب . وقد جعل فرويد(٧) على نحو قطعي من الحاجة إلى العقاب الصفة الأساسية للمازوخية المعنوية واعتبارها تعبيراً عن الإحساس بالذنب .

نحن نعرف أن وظيفة الضمير تُسند ، في التصور التحليلي النفسي للجهاز النفسي ، إلى الأنا الأعلى . يقول فرويد : « تعرفنا في الشعور بالذنب تعبيراً عن توتر بين الأنا والأنا الأعلى . فعندما يلاحظ الأنا أنه

---

(٧) المشكلة الاقتصادية للمازوخية .

لم يصل بعد إلى ذلك المثل الأعلى الذي يتطلبه منه الأنـا الأعلى . تـأتي استجابته في صورة أحاسيس قلق وحصر » .

والحال ، ما متطلبات الأنا الأعلى هذه ؟ إن هـذا الأنا الأعـلى[٨] يتطلب ، على غرار الوالدين اللذين يمثلهما بصورة مستبطنة ، العـزوف عن الدوافع الجنسية التي كان من المفروض ، بموجب الموقف الذي وُجد فيه الطفل في مجرى عقدة اوديب ، أن تُستبعد وتُنحّى .

وإنما في هذا الشطر الطفلي ، اللاعقلاني ، من الضمير الذي يمثله هنا أنا أعـلى كثير المطـالب وصارم الحكم عـلى هذه الحفزات الجنسية والعدوانية ، ينبغي أن نرى المصدر الرئيسي للمازوخية .

إن الأنـا الأعلى لـدى المازوخي يسلـك إزاء الأنا سلـوك والـدين صارمين كل الصرامة تجاه الطفل غير المطيع . وهذا يعني أن الـدوافع الغريزية الجنسية للأنا الراشد تُحاكم بصرامة وقسوة لأن من يحاكمها هو أنا أعلى طفلي .

ويكون هذا الأنا الأعلى على قدر أعظم من الصرامة والقسوة كلما اتشحت بقدر أكبر من العدوانية استجـابة الطفـل تجاه والـدين يقفان حاجزاً امام تحقيق رغبته . وهذا ما يحدث بالتحديد لدى المازوخي الذي يكون قد ردّ إلى نحر ذاته ، بوساطة الأنا الأعلى ، عدوانيته الطفلية .

نحن نعرف أنه يمكن لأنا اعلى حاظر لكل إشباع جنسي ان يؤدي إلى بعض أشكال مازوخية من العنّة .

لكن ماذا يحدث في حالة المازوخية المعنوية ؟

إن الدوافع الغريزية (وحتى أحياناً انزياحها إلى صعيد النشاط العام) تتأدى هنا إلى تحقيق يبعث بقدر أو بآخر على الرضى ، وعنـدئذٍ فقط يتدخل الأنا الأعلى ، لا ليفـرض عليها حظـراً ، بل ليتحـاشى ، عن طريق العقوبات التى سينزلها بالشخص المـازوخي ، الخطر الـذي كان

---

(٨) تلكم هي ، بالطبع ، السمات المميزة لانا اعلى طفلي .

سيتعرض له هذا الأخير فيما لو حقق هذه الميول ذاتها عندما كانت محظورة ، اي في الطفولة . ونحن نعرف أن هذا الخطر يستشعره الطفل في صورة خوف مبهم وغامض من الخصاء . فكل شيء يجري ، لدى المازوخي ، كما لو أن للعقوبات التي ينزلها بنفسه بوساطة الأنا الأعلى (حاجته إلى التألم) هدفاً محدداً ، وهو أن تقيه من الخوف الطفلي (اللاشعوري) من الخصاء . وعلى هذا ، لا تبدو لنا المازوخية نشداناً للألم لذاته ، وإنما بالأحرى استجابة دفاعية . فعن طريق الألم الذي يحرص المازوخي لاشعورياً على إنزاله بنفسه ، يرمي إلى إبعاد خطر الخصاء المستوهم . فلكأنه يريد أن يدفع على هذا النحو ثمن حق الدلوف إلى الحياة الجنسية . وهذه هي ، على وجه التعيين ، حالة الرجل الذي تبدر عنه ، عندما يحب ، ومن ثم عندما يتزوج ، استجابات مازوخية تعويضية على صعيد نشاطه الاجتماعي ، والمهني ، الخ ... ، كما لو بهدف حماية نشاطه الجنسي . وفي أشكال اخرى من المازوخية ، يتعين على الإشباعات الجنسية أن تتحمل مباشرة عبء العقاب : وفي هذه الحال ، لا يستطيع الرجل أن يحب إلا حباً تعيساً امرأة تعذبه ، أو تسيء معاملته أو تذله ، او امرأة يتعين عليه أن يضحّي لأجلها بشطر من شخصيته ، أو من ميوله ومشاربه ، أو من ثروته . ومن الممكن في أكثر الأحيان رد آلامه ، من زاوية التحليل النفسي ، إلى محاولات لاشعورية لإزاحة الخصاء أو « نقله » ـ إذا صح التعبير ـ بهدف تحاشيه على الصعيد التناسلي .

في هذه الحالة ، تستخدم الحاجة إلى التألم كوسيلة تسمح ، مع تلافيها خطر الخصاء ، بالإشباعات الجنسية . ولكن هذا السلوك العقابي الذاتي بامتياز، أهو بالفعل المازوخية ؟

في الحقيقة ، لاسبيل إلى المماراة في انه يوجد كذلك نموذج من المازوخيين لا تطيب له الحياة ، فيما يبدو ، إلا في الألم .

في هذه الحال يبدو هذا الألم وكأنه يكفي ذاته بذاته . فلا تعود له

عندئذ قيمة « العملة » التي يُسدَّد بها ثمن افتداء النفس . ومن الممكن رده إلى رغبة لاشعورية لدى المازوخي في ان يُعاقَب من قبل السلطة الوالدية التي ناب منابها أناه الأعلى . وقد أعلمنا فرويد ، عن طريق تحليل التخييلات المازوخية ، أن رغبة الطفل في أن يُضرَب من قبل الأب ، وهي رغبة تفصح عنها هذه التخييلات ، هي التعبير اللاشعوري عن الحاجة إلى أن يلعب الطفل إزاء ابيه دوراً جنسياً سلبياً . يقول فرويد : « إن اولى هاتين الرغبتين ما هي إلا الصورة النكوصية للرغبة الثانية » . وانزياح هذا الميل إلى الصعيد المعنوي هو ما يتأدى إلى تمخض المازوخية المعنوية .

إن الآلام التي يجلبها المازوخي على نفسه بسلوكه ، وضربات القدر التي يشتكي منها مع أنه هو الذي يسعى في إثرها ، يماثل اللاشعور بينها وبين تلك الضربات المتلقاة من الأب . وهكذا يتم تجنيس العقاب الصادر عن الوالدين ، او يُعاد بالأحرى تجنيسه ، نظراً إلى انه يعيد الشخص المازوخي نكوصياً إلى الطور الأوديبي . هذا يعني أن العقاب المتلقى يستتبع ثبات الغلطة أو الخطيئة : اي التمسك بتوظيف ليبيدي أوديبي . ويسمح الألم للمازوخي في هذه الحالة بأن يحافظ على الموضوع الذي يتسبب له بالعقاب ، اي التثبيت الجنسي الطفلي (المحرمي) . . .

هذا ما عناه فرويد عندما كتب يقول : « يعود الضمير ، الحس الأخلاقي ، إلى التغلب على عقدة اوديب ، وإلى تجريدها من الصفة الجنسية . سنقول إذن إن المازوخية المعنوية تعيد تجنيس الأخلاق ، وتعيد تنشيط عقدة اوديب ؛ وهكذا تبدأ سيرورة نكوص تعود بالأخلاق إلى عقدة أوديب »[٩] .

يبدو إذن أن العلاقات في هذه الحالة بين الأنا الأعلى والأنا (أي الآلام التي ينزلها الأول بالثاني) تخضع للتجنيس ، وتكرر نكوصياً

---

(٩) فرويد ، المشكلة الاقتصادية للمازوخية .

أمنية الطفل في أن يجد نفسه في مثل ذلك الموقف إزاء ابيه . ويمكن لهذه الأوالية ذاتها أن تعمل ، في شروط اخرى[١٠] ، عن طريق تحديدها لاستجابات مماثلة إزاء الأم ، ومن ثم لاحقاً تجاه المرأة بصفة عامة ، فتحمل المازوخي المعنوي على أن يسلك مسلك المازوخي المنحرف .

لقد رأينا حتى الآن أن المازوخية ترسي جذورها فقط في مختلف الميول الاستجابية (الارتجاعية) التي تظهر إلى حيز الوجود في الطور الأوديبي . ولا بد لنا من أن نلاحظ ملاحظتين . فمن جهة اولى ، يتطابق هذا الشكل من المازوخية المقصور - بنوع ما - على استجابات عقابية ذاتية ، مع بنية نفسية هي في الأصل اكثر تطوراً ، ولو نتيجة لتدخل السلطة الأخلاقية اللاشعورية الممثلة بالأنا الأعلى .

ومن جهة أخرى ، لا تتصف الأواليات المشتقة مباشرة من عقدة اوديب : الإحساس بالذنب ولازمته ، العقاب الذاتي الذي يُعتبر ضرورياً لإبعاد خطر الخصاء (مع جميع التنوعات أو التلاوين التي لا داعي هنا للإلحاح عليها) ، لا تتصف هذه الاواليات بأية صفة نوعية . وقصدنا من ذلك ان هذه الاستجابات عينها او هذه الأواليات عينها هي التي نلتقيها في خلفية طائفة من تظاهرات عصابية أخرى .

لماذا تؤدي هذه الأواليات ، في حالة بعينها مثلاً ، إلى العنَّة ، او إلى الجنسية المثلية ، وفي حالة اخرى إلى تكوين طبع مازوخي ؟ الحق أننا حتى لو أخذنا بعين الاعتبار تعزيزاً يطرأ على عدوانية الأنا الأعلى في هذه الحالة الأخيرة بوجه خاص - وهذا بشرط ان نتمكن ايضاً من توضيح شروط هذا التعزيز على نحو ما سنحاول أن نفعل فيما بعد - فلن نكون بذلك قد اقتربنا من ايجاد حلٍ للمشكلة مُرضٍ كل الإرضاء . ولئن أسندنا تعزيز العدوانية هذا إلى غريزة الموت او غريزة التدمير ، فلن نكون بذلك قد توفرنا على قدر أكبر من الإيضاح لمشكلة نوعية

(١٠) عندما يكون الأمر متعلقاً بأم متسلطة ، قاسية وصارمة (ام « خصّاءة ») ، او عندما تحدث خيبة أمل قوية متبوعة بكراهية للأم .

الاستجابات التي تتأدى إلى المازوخيـة المعنويـة ، نظراً إلى ان غـريزة التدمير هذه ستكون مـوجودة في هـذه الحال لـدى جميع الناس. ونحن نعرف تمام المعرفة أننا عندما نثير على هذا النحو مسألـة أحاديـة نمط الأواليات المتأدية الى تظاهرات شديدة التباين ، نكون قد وضعنا إصبعنا على نقطة ضعف في الأبحاث التحليلية النفسية . إلا أن هذا نقد يجاوز مسألة المازوخية .

لنرجع إذن إلى موضوعنا ولنقل إننا نعتقد ان اعتبـار المازوخيـة مجرد استجابة ناجمة عن عقدة اوديب قد لا يساعد على فهم بنيتها إلا بصورة جزئية للغاية . فالعقـاب الذاتي تظـاهرة مـازوخية ، لكنـه ليس المازوخية كلها . فهنالك طبقة أعمق في هذه الظاهرة ، وبالتالي اقرب إلى القوى الغريزية الأولية ، لا يسهل علينـا بلوغهـا إلا عن طريق تحليـل معمَّق لمراحل من النمو سابقة على عقدة اوديب . وقد ساورنا احيـاناً ، على كل حال ، انطباع بأن هذه العقدة لا دور لها في بعض الحالات غير أن تسَرٌّع المنحى المازوخي لتطور كان قد أخذ من الأصل هذه الـوجهة تحت تأثير ما كان حدث في الأطوار القبتناسلية . غير أن هذه الواقعة ـ وان تكن اشدّ بروزاً في المازوخية ـ هي أيضاً معطى مشتـرك بين العديد من المسارات العصابية والذهانية الأخرى .

إلا انه يوجد عنصر مميَّز لدى المازوخي يترجم عن ذاته بصفة من الصفات النموذجية لسلوكه : فالمازوخي شخص يشقي نفسه بنفسـه ، لكنه لا يكف عن استفزاز الذين يحيطون به ليزيدوا طين تعاسته بلـة . وسلوكه كله يستدعي انفلات النزعة السادية لدى الآخرين ؛ فهو لا يبدو في مكانه إلا عندما يكون هو الضحية .

إن ظاهرة التحويل TRANSFERT تميط اللثام عن هذه الميول في اثناء المعالجة التحليلية النفسية . فجميع المحللين النفسيين يعرفون ذلك النمـوذج من المرضى الـذي يـريـد بـأي ثمن أن يستثـير استجـابـات مستكرهة ، عدائية ، من جانب الطبيب . فتارةً يحاول هذا المـريض أن

يزعج المحلل بتوجيه كلمات جارحة اليه ، وباتهامه بأنه لا يفعل ابداً شيئاً فيه فائدة له ، وبتأخره عن مواعيد الجلسات ، الخ . وطوراً يلجأ ، بعد أن تعييه الحيلة ، إلى الوسيلة الكبرى : السكوت . فـإذا به يصـرِّح ، ذات يوم ، أنه لم يعد لديه شيء يقوله ، ويحبس نفسه في صمت حرد .

إن هدف جميع هذه الاستجابات ، وعلى الأخص الأخيـرة منها ، هو استثارة المحلل النفسي واستفزازه ، وإجباره على الخروج عن موقفه الحيادي ، الذي يستشعـره المريض وكأنه موقف لامبـالاة .

وبعـد أن يتمكن المحلل من احتـواء هذا الهجـوم ، يعترف هـذا المريض عينه ، وهو الذي كان صرَّح بحنق شديد أنـه لم يعد لـديه أي شيء يقوله ، يعترف بأنه لم يكن يفعل شيئاً خلال ساعات الصمت تلك ـ المضنية بالنسبة اليه ـ غـير أن يفكر بمحللـه ، وأنه كـان يتخيله وهـو ينهض عن كرسيه لكي يطرده ، أو يشتمه ، أو يضربه . وإذا ما تعمقنا أكثر في التحليل ، علمنا أن جميع هذه الضروب من سوء المعاملـة التي يتخيلها المريض ويحاول بلا جدوى أن يجلبها على نفسه ، تتخذ بالنسبة اليه دلالة اهتمام وعطف : « امسك بي ، ادفعني بقوة ، أسيء معاملتي ، افعل أي شيء كان ، ولكن افعل بي شيئاً » . فالغاية التي ينشد هي أن يحمل محلله على التخلي عن الموقف الحيادي ، السلبي ، الذي يؤوله على أنه تعبير عن لامبالاة وعدم اكتراث . وهذا السلوك الخاص للغـاية هـو نموذج لسلوك الرجل ذي الطبع المازوخي : فالمازوخي المتلهف اكثر من اي شخص آخـر إلى الحب ، يتوق بـاستمرار إلى تلقي بـراهـين حب . الحاجة الى التألم ، وبالتالي إلى الاشتكاء ، هي اذن تعبير لديه عن حاجة إلى الحب .

لكن إذا كان من السهل علينا أن نفهم أنه عندما يشتكي المازوخي فكأنما يقول : « انظر كم انا تعيس ، أحببني » ـ فمن الصعب علينا أكثر أن نفهم لماذا يبدو ايضـاً وكأنـه يقول في بعض الأحيـان : « اضربني لتثبت لي أنك تحبني » . وفي الحقيقة ، هـذه الواقعـة هي الأساسيـة :

فالمازوخي يفلح في أن يجد في المعاملات السيئة التي يستثيرها أدلة حب ! وما يعيشه المريض في التحليل ، عندما يحاول استفزاز محلله لأنه لم يحصل منه على براهين حب ، ليس سوى **تكرار** لما سبق أن استشعره في طفولته ، ولكن على نحو واقعي وأكثر عمقاً .

إن الطفل غير المحبوب ، أو ـ وهذا ذو اثر رضّي أقوى ـ الذي لم يعد محبوباً ، والذي لا يتلقى علامات اهتمام وحب ، لا يملك الكثير من الوسائل تحت تصرفه ليفوز بموقف آخر ممن هو تابع لهم . وما لم ينطوِ تمام الانطواء على ذاته وما لم يدر ظهره للحياة وللواقع ، فلن يبقى أمامه سوى وسيلة واحدة : أن يصبح أنساناً تعيساً أو انساناً لا يُطاق ، او الاثنين معاً ، وهذا أكثر تواتراً أيضاً . وعندئذٍ يُحاط بالاهتمام وبالعناية من جديد ؛ فيُشتكى منه ، ويُوبَخ ، ويُعاقب . وهذا لا يرضيه ، لكنه يبرهن له على الأقل على انه موجود بالفعل بالنسبة إلى الذين يأمل في أن يحظى بحبهم . إن الطفل غير المحبوب طفل حزين وتعيس : فهو عندما يظهر بمظهر كهذا ، يأمل أن يلفت في النهاية الانتباه اليه وأن يُحَب . إلا أنه كثيراً ما يحدث العكس ؛ فكلما أظهر قدراً اكبر من التعاسة ، جذب اليه أكثر فأكثر عداوة الذين يطلب منهم الحب . وقد يكون هؤلاء هم الوالدين بالذات او المربيات ، وقد تكون المشاعر التي تنطلق لديهم لدى رؤيتهم الطفل الصغير التعيس هي مشاعر الإحساس (اللاشعوري) بالذنب ، وقد لا يكون لهذه المشاعر اية صلة مباشرة بالطفل ، إلا انهم يجدون في أغلب الأحيان متنفساً لها في العقوبات والأشكال الساديـة الأخرى التي ينزلونها بالطفل . إن العدوانية تجاه شخص أقوى ، وهي عدوانية مكبوتة ، ترتد في صورة إحساس بالذنب ، خوفاً من الانتقام ، نحو ذات الشخص ، ولكن قد يحدث عكس ذلك أمام شخص أضعف : ففي هذه الحال ، ينحل توتر الإحساس بالذنب في شكل الساديـة ، ويصب على الآخرين كراهية الشخص لذاته . وقد يكون الطفل هو ضحية هذا السلوك الذي سيعلمه ، مع مذاق الألم ، كيف يستمد من

التعاسة بالذات شيئاً ما ينوب مناب اللذة .

إنه يستشعر حاجة حيوية ، بخاصة في سنواته الأولى ، إلى أن يُحَب ويُحِب . وعلى هذا ، فإنه يحب جميع الذين يعتنون به ، وذلك لأنهم يوفرون له الإشباعات المطلوبة والمتكيفة مع المقتضيات الخصوصية لكل مرحلة من مراحل نموه . وقد ينقلب الحب ، عندما لا يعود الطفل يتلقى هذه الإشباعات ، إلى كراهية .

إلا انه لا يمكن للطفل ، بوجه عام ، أن يظهر ، من خلال استجاباته العدوانية تجاه الأشخاص المحبوبين الذين خيبوا آماله لاحقاً ، سوى قسط ضئيل من هذه الكراهية . فالوجه الأقوى والأعنف من هذه العدوانية غير قابل للتظهير لأنه يولِّد الخوف ؛ وهذه واقعة لا تقبل مماراة : فالعدوانية المستشعرة ضد شخص أقوى ـ وهذه هي الحال لدى الطفل ـ تولِّد هذا الخوف . وعندئذٍ تُستبطن العدوانية ، وتُعكس ، وتقلب ضد ذات الشخص .

إن هذا القلب للعدوانية بفعل الخوف هو الذي يكوِّن جوهر المازوخية . فالمازوخي يسيء عندئذٍ معاملة ذاته ، مثلما كان سيسيء معاملة اولئك الذين يضمر لهم الضغينة لو لم يساوره الخوف . وهو يسيء معاملة ذاته اكثر كلما أحبهم ، أي كرههم ، أي خشيهم ، اكثر . ومن قديم الأزمان يعلم الناس أن الكراهية يمكن أن تنوب مناب الحب . والطبع المازوخي لا يرتكز إلى حقيقة أخرى . **إلا أن هذه الكراهية تكون مستبطنة ، معكوسة ، مقلوبة ضد ذات الشخص** .

إن ميل المازوخي إلى استفزاز الآخرين ، وهو ميل مميَّز جداً ، يهدف ايضاً إلى إفساح المجال أمامه ليبرهن أنه مصيب ، اي أن له الحق في أن يكره الآخرين ماداموا يسيئون معاملته . إلا أن هذه الكراهية ، حتى ولو تم « تبريرها » على هذا النحو ، إنما يقلبها ضد ذاته .

وفي هذه الحال أيضاً يمكن أن يُعد الأنا الأعلى الذي يمارس هذه الوظائف بشدة مفرطة مسؤولاً عن هذه الاستجابة . فمن البديهي أن

صرامة الأنا الأعلى هي العنصر المميز للجهاز النفسي لـدى المازوخي . وهذا الأنا الأعلى الصارم ، المتشدد ، القاسي ، يستطيع أن يعيد إنتاج موقف الوالدين ، كما كان تجلى فعلاً .

إن أبـاً ـ أو أماً ـ مفـرطاً في صـرامته وسخيـاً كـل السخـاء في العقوبات او التوبيخات التي ينزلها بابنه يسم بميسمه الأنا الأعلى لهذا الطفل . وعلى العكس من ذلك ، يمكن لتساهـل الوالـدين او طيبتهما في حالات أخـرى أن يتأديا بطفلٍ ميّالٍ إلى إساءة الحكم على ذاته إلى ان يسيء معاملة ذاته . وهذا ما يحدث ، مثلاً ، عندما تُوجَّه الميول العدائية والعدوانية ضد أب يخامر الطفل إزاءه إحسـاس بالـذنب باعتبـاره أباً طيبـاً ، او ضعيفاً ، او عـلى الأخص أباً لا يُعـاقِـب . وفي هذه الحـالـة تنعكس عدوانيته وتنصب كلها على ذاته بوساطة أنا اعلى غدا من جراء ذلك وبالضرورة اكثر صرامةً . ومن الـوقائـع التي نلاحظهـا في الحياة العادية أن الأطفـال الذين يتخبطـون في صراع ضـد عقدة ذنب ، وفي منازعات مباطنة لضرورات نموهم ، والذين لا يُعاقَبون ابداً ، يتصرفون بطريقة يجلبون معها على أنفسهم العقوبات . وفيما بعد ، ويوم يبلغـون سن الرشد ، لا تعود استجاباتهم المازوخية تفعل شيئاً سوى أن تعيـد إنتاج ذلك السلوك ذاته وتكرره .

ويبدو أن ثمة مصدراً أكثر غنىً بالعدوانية، المميزة للأنـا الأعلى المـازوخي ، يكمن في كثـير من الأحيـان في سـاديـة مـراحـل النمـو القبتناسلي ، اذا لم تكن هذه السادية قد تمت تصفيتها تصفية كاملة . ففي الطور الفموي والشرجي على وجه التعيين ، تكون العدوانية ماثلـة أكثر من اي وقت سابق في جميع تظاهرات الليبيدو. من جهة أخرى ، وفي فترات النمو تلـك ، تكون عـلاقات الـذات بـالمـوضـوع فيمـا يختص بالتوظيفات الليبيدية الأولى (الأم) مختلفة تمام الاختلاف عن علاقات الذات بالموضوع لأنا أكثر نمواً وتطوراً .

على هذا النحو ، يحدث في بعض الأحيـان فيما يبـدو ، من خلال

الطور الفموي مثلاً ، ضرب من التداخل بين الذات والموضوع ، إذ يبدو وكأن هذا الموضوع قد ابْتُلِعَ واستدمج . فليس الغذاء هو وحده ما تعطيه الأم ، وانما هي نفسها بتمامها ما يريد الطفل ابتلاعه والتهامه . على هذا النحو يحدث تماهٍ أولي يتيح فيما بعد امكانية التربية والتكيّف مع الواقع ، مع كل ما يترتب على هذا التكيّف من عزوف عن مبدأ اللذة ومن خضوع لمبدأ الواقع حتى قبل تكوين أناً اعلى . ويقوم هذا الأخير بإدخال المفهوم الأخلاقي للخير والشر ، وللحلال والحرام[١١] .

إن الرفض الذي تُقابل به بحدة وفظاظة الحاجات الليبيدية المرتبطة بهذه المراحل ، والإكثار من التحظيرات المباغتة ، وبخاصة إذا لم تعوض عنها مظاهر حنو ومحبة قادرة على تجريد ضروب الرفض والتحظير هذه من صفتها الإحباطية الشديدة الإيلام للطفل ، يمكن أن يحررا بعنف المقوِّم العدواني المرتبط بالدوافع الغريزية الليبيدية في تلك الفترة من النمو .

بعد ذلك بزمن قليل يمكن لخيبات حقيقية أن توقع الطفل في بلبلة : ابتعاد الوالدين حالما يتخطى الطفل طور الطفولة الأولى ، إحساسه المضني بأنه متروك ومهجور ، ولا سيما عند ميلاد طفل آخر يستأثر بدوره باهتمام الوالدين . فجميع هذه العوامل ، وعوامل كثيرة أخرى في الأرجح ، تجعل الطفل يحس إحساساً مؤلماً جداً بإحباط ليبيدي يطلق العنان لعدوانية تكون أعنف بقدر ما تكون اولية اكثر .

وفي حالة المازوخية ، يبدو أن هذه العدوانية تنقلب حالاً على المازوخي ، وبسهولة أكثر إذا لم يكن أنا هذا الأخير قد تطور بعد بما فيه الكفاية لكي يجازف بتظهير عدوانيته . إلا أن ما يسهم على الأخص في هذه السيرورة هو أن الذات لا تشعر انها متميزة بما فيه الكفاية عن

(١١) تشدّد ميلاني كلاين ومدرستها ـ عن خطأ على ما يبدو لنا ـ على ظهور الأنا الأعلى ابتداءً من المراحل الاولى المبكرة للنمو .

الموضوع[١٢] ، إذ يكون هذا الأخير قابلاً بسهولة ، في اثناء الأطوار الأولية ، للخلط بينه وبين الذات . وغالباً ما تكون هذه الروابط الخصوصية للغاية هي بمثابة الأساس للطبع المازوخي .

وفي حال غياب بنية وظيفية قادرة على أن تسمح بإنشاء نمط علائقي موضوعاني ، لا يمكن للمعتدي ولموضوع العدوان إلا ان يختلطا ويمتزجا ليؤلفا شخصاً واحداً .

قد يعترض بعضهم هنا بأن التمييز القائم بين الوضع الذي يمتزج فيه الطفل بأمه والوضع الذي يستشعر فيه الطفل وكأنه استدمج امه ، لا ينطوي على دلالة كبيرة ، وذلك ما دامت العدوانية الصادرة عن الذات تنقلب في كلتا الحالتين على الذات نفسها .

إلا أن هذا التمييز ، في رأيي ، لفي غاية الأهمية . وبالفعل ، لا توجد بعد ، في الحالة الأولى ، إمكانية لعلاقة موضوعانية ، في حين ان الطفل في الحالة الثانية يكون قد بلغ إلى بداية طور موضوعاني بحسب النمط الفموي (استدماج) . وفي حال اختلاط الذات بالموضوع ، تسلك العدوانية درباً يؤدي إلى توظيف من نوع خاص تماماً ، تترتب عليه نتائج جسام ، سريرية وعلاجية معاً . هذه هي النتائج التي أطلقت عليها اسم **المازوخية الأولية العضوية** ، وهي مازوخية تتميز بعدوانية موظفة مباشرة ضد الذات ، بدون لف أو دوران ، وذلك لانعدام القدرة العصبية على الرد على المحيط .

إن هذه الصفة الخاصة للعدوانية الموجهة ضد الذات قمينة بأن تفسر تفسيراً افضل بعض أشكال المازوخية التي يقف الطبيب النفسي ، إزاء قوتها ، وعنفها ، وعنادها ، مكتوف اليدين بعد أن تكون قد أعيت الطبيب السريري وضللته .

إن هذه الأشكال ينبغي أن تميّز تمام التمييز عن المازوخية

---

(١٢) ميلاني كلاين ، التحليل النفسي للاطفال Die PSYCHOANALYSE DES KINDES ، منشورات التحليل النفسي الدولية ، ١٩٣٢ .

الثـانويـة او المعنويـة التي تتطور ، هي بـالذات ، في أطـوار لاحقـة ، وبالتحديد عندما تظهر إلى حيز الوجود وظائف الأنا . فالمازوخية الثانوية تتكون ، في بادىء الأمر ، من استجابات دفاعية يستحدثها الأنا ، وذلك لأن الخوف هو الذي يحول العدوانية المكبوتة او المنعكسة إلى مازوخيـة ثانوية .

لذلك فإن إزالة الخـوف تجعل المـوقف المازوخي الثـانوي قـابلاً للانعكاس وللتحويل . إلا ان الأمر لا يكون كذلك ابداً بالنسبة إلى الوضع العضوي الأولي وذلك بـالتحديـد لأن الذات تكـون في آن معاً مصـدراً وموضوعاً للعدوانية .

يكاد يكون من المتعذر أن ندرس هنا جميع النتائج التي تترتب على سيرورة كهذه . إلا أنه بودي فقط الإشارة ، بالمنـاسبة ، إلى أن تطـاول مدة الاتحاد اللاامتمايز ، التي تَخلط في اثنائها أحاسيس اللاإشباع لدى الطفل بين الذات والموضوع ، يسهِّل صبغ الألم لاحقاً بصبغة ايروسية . وتجنيس الألم هــذا يمكن أن يبلـغ درجـة مـن الشـدة ، كمـا يمكن لاستخدامه البديل أن يأخذ مدى من الشمول ، بحيث يغدو هذا الشكل من المازوخية لاحقاً عقبة امام إنشاء نمط علائقي موضوعاني باعث على الرضى على الصعيد الليبيدي .

من جهة اخرى ، فإن الطابع المبكر جداً والنفسي ـ البدني في آن معـاً للمازوخية الأولية العضـوية قـد يبيح لنـا أن نرى فيـه علـة تلـك الاضطرابات الغامضة والبعيدة الغور ، القابلة للتشبيه بما كان يسميه الكتاب القدامى بـ « الاستعدادات » للمرض ، النفسي والعضـوي على حد سواء .

في نهاية المطاف ، هاكم ما يبدو لي ممكنـاً استنتاجـه من كل مـا تقدم :

١ ـ إن عدم نضج الجهـاز العصبي يمنع الطفـل ، قبل الشهـر

السادس من عمره ، من ممارسة تأثير عضـلي إرادي على المحيط (إذن انعدام الإحساس بالموضوع) ، ومن التمتع بإدراك تام لعالمه الـداخلي (إذن انعدام الإحساس الواضح بالذات) .

من هنا كان تمازج سكوني ، سلبي ، بين الموضوع والذات .

٢ ـ من البديهي أن الترابط بين هذا العجز عن الفعل في العـالم الخـارجي وبين العجـز عن إدراك ما يصـدر عن العالم الـداخـلي وعن تمييزه ، يحول دون قيام وظائف الأنـا الأولية في هـذا الطور . وفي ظـل غياب هذه الوظائف ، يتحتم جبراً أن تغيب الأواليات الدفاعية كذلك .

لذلك فإن الاختلالات التي يمكن أن تحدث خلال هذه الحقبة من الحياة ستؤثر في النفسية تأثيراً خطيراً (وربما نهائيـاً) ، نظراً إلى أن تأثيرها هذا يطال عناصر أساسية جبلّية .

من هنا كان قولنا بوجود المازوخية الأولية العضوية .

٣ ـ يمكننا ان نعدّ هذه المازوخية ، حالما تتأسس ، مسؤولةً عن أقوى العقبات التي تحول دون نمو الشخصية لاحقاً (تجميد العدوانية وما يستتبعه من افتقار في الطاقة ؛ مفعول مسبِّب للاختلال ومدمِّر يرتد من هذه العدوانية على الأنساق التي هي في أصل وظائف الأنا ، ومن هنا كان التأخير والنقص في هذه الوظائف الأساسية) .

وتكون هذه المازوخية مسؤولـة أيضاً عن التثبيتـات الأعمق غوراً والأشد عناداً . وربما عن هذه المازوخية تنشـأ أيضاً بعض المصـاعب العلاجية ، عنـدما لا تتـوصل تصفيـة المازوخيـة الثانـوية الى تحـرير الشخصية تحريراً كافياً من حاجتها إلى تدمير الذات .

إن مثل هذه السمات المميزة تشـابه في الظـاهر السمـات المميزة للشخص السوداوي : لكننا سنرى فيما بعد أن هنالك فرقاً أساسياً بين هاتين السيرورتين .

ثمة ايضاً نزعة خاصة بالمازوخية المعنويـة لم نتطرق اليهـا حتى الآن : وهي السلبية . فالمازوخي يطيب له أن يقف بمـلء إرادته مـوقفاً سلبياً . ويمكن لهذه السلبية أن تدمغ بخاتمها السلوك العام للشخص ، كما يمكن أن تنحدّ بالنشاط الجنسي .

وفي هـذه الحالـة الأخيرة ، يعـرف الشخص المـازوخي انفعـال الحب ، إلا أنـه لا يشعر بحـاجة إلى الفوز به . فهو يدع لـلآخرين أن يحبوه ، ولكنه هو نفسه لا يبادر إلى الحب . إنه سيكون ذلك الذي ينتظر ويريد أن يتلقى . وكذلك يكـون الأمر ، في أرجـح الظن ، على الصعيـد التناسلي .

لقد رأينا ، فيما يتصل بالانحراف المازوخي ، اهمية الانتقال من الطـور الجنسي السلبي القضيبي إلى الطور الايجـابي . ويستتبع نمـو الليبيدو هذا القبول بمركّب عدواني قوي ، وبالتالي استخدامه[١٣] . اما كبت الليبيدو قبل أن يكون الأنا قد اكتسب صلابةً معينة فيجعل الانتقال إلى هذا الطور الجنسي الجديد مستحيـلاً ؛ وكذلـك تكون الحـال إذا ما قيض للعدوانية سلفاً أن ترتد نحو الذات في أطوار اخرى ، نظراً إلى أن الميول الايجابية يمكن أن تُكفّ وتُعطّل من جراء ما يكـون قد طـرأ على الطـور السلبي من تقويـة وتعزيـز بفعل الشـروط التـربـويـة ومسلـك الوالدين .

وعندما تظهر المصاعب الاوديبيـة بدورهـا على هـذه الخلفية من السلبية ، يجنح الشخص المازوخي إلى ان يتبنى بسهولـة أكبر ، وعـلى نحـو نهائي ، مـوقفاً سلبيـاً ، متوافقـاً أتم التوافق مـع جملـة الميـول الأساسية للطبع المازوخي .

---

(١٣) راجع الأبحاث الآنفة الذكر للوفنشتاين وروث ماك ـ برانشفيك .

إذا اردنـا ان نحدد بصـورة خطاطيـة البنية الأسـاسية للطبـع المازوخي[14] ، فهاكم ما يمكننا قوله :

لم يستطـع المازوخي قط أن يتغلب عـلى الخيبـات الأولى للحيـاة الطفلية ؛ فأقام على حزنه لا يقبل عزاءً ؛ ومن هنا كانت حاجته الدائمة والأكثر إلحاحـاً من حاجـة اي شخص آخر إلى أن يُحَب ؛ إلا أن هـذه الحاجة تختلط لـديه بحـاجة إلى الألم . امـا الحب بدون ألم فيـرفضه ويطرحه جانباً ، او يحوله إلى ألم . وبما أن الخيبة قد وسمته بميسمها ، فإنه سيعمل على استثارتها واستيلادها دوماً من جديد . لماذا ؟ لأن هذه الخيبة المجدَّدة تسمح له ، مثلما سمحت له في الماضي الغابر ، أن يعيش الحب في الكراهية ، سوى أنها هذه المرة كراهية منقلبة عليه هو ذاته . وبالفعل ، إن العلاقات الانسانية منسـوجة دومـاً من الكراهيـة والحب الممتزجين بمقادير مختلفة بحسب الأشخاص . وهذا المزيـج قابـل لأن يتغير بحسب الظروف الواقعية والموضوعية للحياة ، إلا ان الأمر مختلف تمـام الاختلاف بـالنسبة إلى المـازوخي . إذ يبدو أن الـرابط الليبيدي بموضوع الحب لديه (وبالتعميم جميع الـروابط الوجـدانية) مجـدول بوجه خاص من الكراهية ، ولكنها كـراهية تسلـك دوماً الطـريق ذاته : ضده هو بالذات . وفي الواقع ، إن موضوع الحب أو موضوعاته تتأدى به إلى أن يحب ذاته عن طريق كرهه ذاته . فهو أيضاً نرجسي ، ولكن على طريقته التعيسة .

وقد ارتأينا ، بدالة هذه المظاهر المختلفة ، أنه في مستطاعنا اعتبار المازوخية مكمِّلة للسادية .

---

(١٤) هذا ما يوجب استبعاد التقلبات الفردية الناجمة عن غلبة عامل بعينه ، او ما يفتـرض ايضاً وجود عناصر غامضة إلى حدٍ ما لا نجد ما نصفها به سوى انهـا جبلِّية ، وذلـك بانتظار الوصول إلى تعريف أدق .

تشتق المازوخية في أرجح الظن من السادية ، ومنها تستمد الطاقة . فالقوة الغريزية الواحدة تتأدى ، بعد أن تكون خضعت لبعض التحويلات ، إلى تظاهرات متعاكسة . وتكون هذه التظاهرات موسومة على الأخص بميسم الخوف . وسيبقى الخوف متضمَّناً في المازوخية ، وسيتشابك بنسيجها ، وسيسهم دوماً في إعطائها طابعها الغالب .

في زبدة القول ، نعتقد أن هنالك ما يدعو إلى التمييز بين ثلاثة أنماط من المازوخية المعنوية . وكل واحد من هذه الأنماط يخضع لأواليات نفسية خاصة ويتأدى إلى تظاهرات سريرية مختلفة . وحتى عندما تتداخل هذه الأواليات وتتشابك هذه التظاهرات لدى الشخص الواحد ، كما يحدث في غالب الأحيان ، يظل في إمكاننا أن نميِّز بين هذه الأنماط الثلاثة المؤلِّفة لثلاث درجات في المازوخية .

يتصل النمط الأول على الأخص بالشخص الذي يعاني في نشاطه من ضروب شتى من الفشل والإخفاق . وتكون الأوالية هنا كيفية ارتجاعية بالترابط مع عقدة اوديب : أن يعاقب الشخص نفسه ليفلت من الخصاء . ويمكن لهذا الشكل ان يبقى كما هو ، اي استجابة عقابية موجهة ضد الذات ومصبوغة بقدر او بآخر بالمازوخية .

اما النمط الثاني فيمثله الرجل الذي لا يستثير الفشل فحسب ، بل يستطيب الألم . وترتبط الأوالية ايضاً بالصراع الأوديبي : إذ يتم صبغ الخوف ، وبالتالي العدوانية المنعكسة ، بصبغة ايروسية ؛ ومن ثم سيوفر بعض الإشباعات الليبيدية .

لا يتصف النمط الثالث بسلوك عقابي ذاتي فحسب ، بل كذلك وعلى الأخص بخاصية وجدانية قمينة بأن تسم بميسمها شخصية المازوخي بأكملها بحيث لا يعود يتقبل بعدئذٍ سوى الألم . وليست هذه السيرورة اوديبية إلا بصورة ثانوية . فهي متعينة في جوهرها بالنمو

الغريزي القبأوديبي ، وتنم بالتالي عن عضوية أقل نمـواً وتطوراً ، ومن هنا كان طابعها الأبعد غوراً ، « العضوي » ، كما قد نميل إلى القول .

هنا تكون السادية الأولية ـ والمحللون النفسيون يعرفون عنفها ـ قد تحولت برمتها إلى مـازوخية : فحب الـذات والآخرين أمسى كـراهية للذات .

مشاهدة تحليلية نفسية لطبع مازوخي :

قبل بضع سنوات،قدم لاستشارتي رجل في مقتبل العمر،صحيح المظهـر ، ولكن تعبيره ينم عن قلق وخجـل . ومثلما يحـدث في كثير من الأحيان في حالات مماثلة ، اشتكى هذا المريض في بادىء الأمر من بعض الأعراض المبهمة : سرعة غضب ، إرهاق ذهني ، واضطرابات خفيفة في الذاكرة . وانما بعد أن اطمأن ووثق بنا ، وبمساعدة استجواب موجـه بعناية ودقة ، اعترف لنا بما كان يؤلمه في الواقع : افتقار تام إلى الثقـة بنفسه وحاجة دائمة إلى أن يوافقه الآخرون على فعاله ويمتدحوه . وقد اكتسى هذا العرض الأخير تمام دلالتـه عندمـا علمنا أنـه كان الـرئيس المسؤول عن مصنع من أكبر مصانع البرازيل . فحينما كِلنا له الثناء على شغله مثل هذا المركز المرموق ، وهو لا يزال في ريعان الشبـاب ، جاءت استجابته نموذجية إلى حدٍ أنها كانت كافية لتوجيـه تشخيص المرض : « آه ! يا دكتور ، لو تعلم ! ... إن هذا العمل يدرّ بالفعل مئات الملايين ، ولكن ماذا تريد أن يفعل لي هذا ؟ إنه بالنسبة إلي مصدر عذاب وقلق ، أفسد بل سمّم حياتي كلها ، وقد يتفق لي أن أفكر كم كان سيسعدني لو كنت مجرد موظف بسيط ، وفي بعض الأحيان اتساءل عما إذا لم يكن من الأفضل لي أن يفلس المصنع لكي أتخلص منه ، علماً بأن هذا كله ليس في الواقع سوى ضرب من الجنون ، لأن أعمالي مزدهرة » .

عندما أعلمني ان ما كان يسميـه بـ « جحيمه » يعـود إلى بضع

سنوات خلت ـ وبالتحديد منذ أن تنازل له أبوه عن إدارة المصنع ـ بدا لي التشخيص بديهياً : فهذا الرجل ما كان يغفر لنفسه المركز الذي يشغله في الحياة ؛ فكان عليه أن يعذب نفسه ويطلب الألم كما لو ليفتدي نفسه ويكفّر عن خطيئته . وربما كان سيخرب ما بناه ليشبع مازوخيته . ومن ثم نصحته بأن يخضع لعلاج تحليلي نفسي . ولم يأخذ بهذه النصيحة إلا بعد عدة أشهر من التردد ومحاولات « المساومة » التي ما كانت ثروته لتبررها بتاتاً . وهو اليوم يغبط نفسه على كونه تابع العلاج . بيد أنه يتساءل ، بعد أن بيَّن له التحليل كم كانت حاجته عظيمة إلى التألم ، كيف استطاع ان يجد القوة ليفك نفسه من هذا الغُل .

هاكم ، باختصار ، بعض المظاهر المميزة لتاريخ حالته . والذكريان التاليتان من ذكرياته تظهران لنا على الفور كيف كانت طفولته ، وفي وقت لاحق حياته .

ذات يوم ، عندما كان في الرابعة من عمره ، سافر مع والديه ، وعندما سُئِل عما إذا كان « قضى حاجته » ، ردّ بالإيجاب ، إلا أنه أعلن بعد بضع لحظات أنه يرغب مع ذلك في أن « يفعل شيئاً » . فأجابه والده ، ساخطاً ، بأنه كان عليه أن يفعل عندما طُلب اليه ذلك ، وبأنه فات الأوان ، ولا بد من الرحيل . وهذا ما حدث بالفعل . إلا أن الوالدين أدركا في أثناء السفر أن الطفل ما عاد يستطيع أن يمسك نفسه . فأوقفا السيارة ، ونزل الأب معه وقاده إلى شجرة ليقضي حاجته بالقرب منها . ولكن كم كانت دهشته عظيمة عندما رأى أن الطفل ، الذي كان يجاهد بكل طاقته قبل بضع لحظات خلت لكي يتمالك نفسه ، وقف عاجزاً عن التبويل ؛ لم يعد في استطاعته أن يفعل ما حظَّره عليه أبوه في بادىء الأمر ، حتى ولو اذِن له بذلك فيما بعد . وستعيد حياته كلها إنتاج هذا الموقف ، حتى عندما لا يعود أبوه يلعب دوره إلا بصورة مجازية (الأنا الأعلى) .

الذكرى الثانية : في الخامسة من عمره ، حصل على مكافأة ، فإذا به يهلع هلعاً شديداً ويعود إلى البيت باكياً : فقد اعتقد أن تلك المكافأة عبارة عن عقاب . فعقدته الإثمية اللاشعورية كانت تجعله يخاف العقاب إلى حدٍ انه عندما فاز بجائزة ما كان يستطيع أن يصدِّق . وستجري حياته كلها على هذا المنوال : انتظار العقاب ، واستثارته إذا ما اقتضى الأمر ، وإذا حصل ، بالرغم من ذلك كله ، على « مكافأة » لم يكن أمامه مناص من أن يحولها إلى عذاب وألم .

كان ابو برتران (وهذا هو الاسم الذي سنطلقه على المريض) رجلًا قاسياً ، صارماً ، وذا سلطة طاغية ؛ اما الأم فكانت إمرأة مكبوحة ، هلِعة ، وممحوة الشخصية امام زوجها . وكان للأب أثر حاسم في تكوين الطبع المازوخي لبرتران . وقد نجم عن ذلك تثبيت بالغ الشدة والتعقيد بحيث أنه ، خلال اشهر طوال ، لم تدر الجلسات التحليلية النفسية إلا حول هذا الموضوع .

في أثناء ذلك ، وقبل أن يكون عمل التحليل سمح بالتغيير الذي سنتكلم عنه عما قليل ، عَمِل برتران بجهد وعناد لا ينضب له معين على إظهار ابيه في صورة مسخٍ حقيقي ؛ فقد كان ، على حد وصفه ، تجسيداً حياً للقساوة ، والصرامة ، والاستبداد ، ينهى عن كل شيء ، ويوجه سهام نقده إلى كل ما لا يتوافق بدقة مع الواجب الديني المبالَغ فيه إلى حد اللامعقول . وبحسب ما صوره برتران ، يمكن القول إنه غول حقيقي ، عادم المروءة والشهامة ، ولا يفعل سوى أن يصرخ ويعاقب .

كان برتران ، في وصفه لأبيه بهذه الصفات الرهيبة ، يطلعنا على مجرى حياته يوماً فيوماً ، كاشفاً عن سلوك غريب للغاية : إذ لم يكن لبرتران من شأنٍ غير أن يقلد طبع ابيه هذا ، ولكن فقط ـ وهذه نقطة مهمة ـ في ما كان عانى منه : القسوة ، الاستبداد ، الصراخ . وكان صارماً وقاسياً تجاه ذاته ، وأولاده ، ومستخدميه ، تماماً مثل ابيه .

مع ذلك كان يتألم بسبب ذلك ، لأنه ما يكاد يبدي عن فظاظة حتى يستبد به التبكيت . فكان يشعر عندئذٍ بالحاجة إلى التشكي والى اتهام أبيه من جديد . كان يتماهى معه في كل ما يمكن أن يؤلمه . وبالمقابل ، أظهر تحليله النفسي أنه منع نفسه من التمادي في التماهي إلى حد محاكاة النموذج في صفاته الشخصية ، الايجابية ، الرجولية ، وفي مرونته في الأعمال وحسّه البنّاء وبراعته في كسب حب مستخدميه برغم صرامته معهم .

إن برتران ، إذ كان لا يتماهى على هذا النحو مع أبيه إلا بقدر ما يمكن لذلك أن يضر به ويؤذيه ، وجد وسيلة ، بوساطة الأنا الأعلى ، لكي يبقى نفسه في موقف ضحيةٍ إزاءه . وكان ذلك ايضاً طريقة من الطرق ليبيِّن له كم عانى وتألم ، وليبرهن له على الأخص انه كان عاجزاً عن التصرف إلا كولد صغير أخرق مستأهل للتوبيخ . فما ان كان يرغب بقوة ، وبكامل وعيه وشعوره ، في أن ينجح في مشروع ما ، حتى كان يخفق ، كما لو أن اباه ماثل أمامه دوماً لكي يقول له : « لست سوى أخرق ، لا تصلح لشيء » .

لم يكن قادراً على الخروج من هذا المأزق إلا باتباعه « تكتيكاً » معيناً . وقوام هذا التكتيك أن « يبدو عليه وكأنه لا يفعل ذلك عمداً » . فقد كان ، مثلاً ، يحسن صياغة الأمر إذا ما أصدره وهو يهتم بشيء آخر ، كمراجعة بعض الحسابات أو التكلم بالهاتف ، الخ . ولكي يملي رسالة ، كان عليه أن يلجأ إلى الطريقة ذاتها . وحتى عندما يكون الأمر متعلقاً بلعبة الغولف ، فإنه إذ لعب بجدٍ واجتهاد ، داخله اليقين بأنه سيخسر . وعلى العكس من ذلك ، عندما كان يبدو غافلاً ، شارد الذهن ، كان كل شيء يجري على ما يرام . فلكأن النجاح لم يكن ممكناً إلا بشرط ألا يرغب فيه ، وألا يتحمل مسؤوليته ، كما لو أن النجاح بملء إرادته ، وعن سابق علم وتصميم ، يمكن أن يكون خطراً بالنسبة اليه . فكان يبدو

أنه يخشى النجاح أكثر مما يخاف الإخفاق .

كان ،من الناحية الوجدانية ، « يستفيد » من هذه الإخفاقات ؛ فكان إذا ما جلب على نفسه توبيخ أبيه (أو إذا ما أرهق نفسه بنفسه بالتأنيبات) ، أمكنه أن يهرع إلى زوجته مشتكياً لها لكي تشفق عليه وتعزّيه . وفي بعض الأحيان ، كان يمضي في نهجه هذا إلى حد اختلاق ضروب شتى من المتاعب لكي يأتي زوجته باكياً نادباً نفسه .

ما أمكننا أن نفهم هذه الاستجابات النموذجية على حقيقتها وأن نردها إلى مصدرها الدينامي الحقيقي إلا بعد شهور طوال كان همنا الأول خلالها أن ندع التحويل يتنامى ويتقدم وأن ننتظر بلوغه اقصى درجات توتره لكي نتدخل . ونعني بذلك اللحظة التي يبدو فيها المريض ، بدالّة موقفه اثناء الجلسات ، وكأنه بات ينتظر بتوق من المحلل الشيء ذاته الذي كان ينتظره من ابيه . وهكذا بدأ في إظهار نفسه مكبوحاً من قبلي كما من قبل ابيه ، وهذا ما قاده إلى تحميلي مسؤولية مصاعبه في إيصال العمل التحليلي النفسي إلى نتيجة جيدة ، تماماً مثلما كان يعزو مصاعبه العامة في الحياة إلى الطريقة التي ربّاه بها أبوه . ومن ثم ، تبنّى موقفاً سلبياً أكثر فأكثر في التحليل : فـ « لم يعد يفهم شيئاً » ، ولم يعد قادراً أن يفعل شيئاً إذا لم نمد له يد المساعدة ...

في النهاية ، عندما لم يحصل بهذه الوسيلة على أية استجابة ، قرر أن يلزم الصمت . وبدا عليه وكأنه يقول لنا بذلك ما يلي : « لا أفهم شيئاً ، لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، افعل بي ما شئت » . ومع أن سكوته صار مضنياً ، مؤلماً ، أكثر فأكثر بالنسبة اليه ، فإنه لم يقدر على العدول عنه إلا في اليوم الذي تراءى لي فيه أن الوقت قد حان لمساعدته . عندئذٍ فسرت له أن لسلبيته ولسكوته هدفاً واحداً : أن يستفزني لكي اتخلى عن الموقف الحيادي إزاءه وأن يدفع بي ، نظراً الى أنه لا يفعل ما يتوجب عليه فعله ويتصرف على نحو لا يطاق ، الى معاقبته ، على غرار أبيه .

لم يبدُ عليه أنه علّق أهمية كبيرة على هذا التأويل ، إلا أنه ، في الجلسات التالية ، دُهش لتلاشي رغبته في أن يلزم الصمت . وزيادةً على ذلك ، صار في مستطاعه أن يتذكر أحلامه التي كانت دالة كل الدلالة . فلعدة ليالٍ على التوالي يمكن أن تتلخص هذه الأحلام على النحو التالي : كان يجثو أمام رجل أكبر منه سناً ، له هيئة الكاهن ، وذو لحية طويلة . وكان هذا الرجل يطلب منه أن ينهض ، ثم يقبله ، ويكلمه بلهجة عطف وود . وسرعان ما جعلته تداعيات الأفكار يدرك أن الرجل المذكور يمثل المحلل في المقام الأول ، ثم أباه الذي كان يطلب منه ، مع السماح والغفران ، براهين عطف وحب . وبما أن موقفي لم يسمح له بالقيام بنقله المازوخي المعتاد ، فقد ظهرت في الحلم الرغبة الحقيقية ، المحجوبة بالحاجة الى العقاب : كان يريد ان يُحَب وأن يُقرَّظ من قبل ابيه [١٥] .

لقد تبع هذه الجلسات تقديم مواد طفلية مثيرة للاهتمام بقيت حتى الآن مكبوتة ، وتعود إلى مرحلة بعيدة من طفولته الأولى التي كان أصيب في اثنائها بمرض خطير . فبين السنة الاولى والثالثة كانت حياته في خطر . وكان أبوه ، وقد استبد به القلق ، يجلس بقربه دوماً ، يحيطه بعطفه وحنوه وعنايته . ويذكر برتران بوضوح رنّة صوته ، و « رائحة الرجولة » فيه ، والإحساس بلحيته تخزه وخزاً خفيفاً . فلما استعاد عافيته ابتعد عنه ابوه ، وصار بارداً ، صارماً ، بل فظاً ، إلا في لحظات نادرة ، وعلى الأخص فيما يبدو عندما يكونان منفردين . عندئذٍ كان يساوره انطباع بأن أباه ينظر اليه بعطف أكبر ، بل يهم بأن يبدي نحوه بادرة عطف وحب ، غير أنه يسارع إلى قمعها . وكان مجرد تذكره تلك البادرة يسبب له ضيقاً وانزعاجاً .

لقد تزامن إبلاله من مرضه مع ميلاد أخت له ، وهذا ما أسهم في

(١٥) كان العقاب يخفي الحاجة إلى الحب ويشبعها إلى حدٍ ما .

إبعاد والديه عنه أكثر . فراح عندئذٍ يعيش خيبته الكبيرة وكذلك خوفه الأول : فقد وجد نفسه متروكاً ، مهجوراً ، وشعر بأنه وحيد ، ضائع . ومن ثم تسلط عليه ، خلال طفولته كلها ، وفيما بعد عندما بلغ مدارك الرجال ، شعور بالهجران والوحدة . وكان عليه دوماً أن يحارب ما يسميه بـ « كابوسه الأبدي » الذي لم يكن سوى تخييل نموذجي : فقد كان يرى نفسه يحضر دفن والديه ، ثم تأخذه الرهبة إذ يجد نفسه وحيداً في الحياة .

يتضمن هذا التخييل عدة عناصر مُكثَّفة ، مُكوِّنة لعصاب برتران :

١ً ـ حَصَر الهجران ، وفقدان حب والديه .

٢ً ـ العدوانية المستشعرة ضدهما بعد الخيبة التي سببها له ابتعادهما عنه ، وهي عدوانية تذهب إلى حد تصورهما ميتين .

٣ً ـ عودة الحصر ، ولكن هذه المرة في صورة عقاب على كراهيته للوالدين .

يبدو أن برتران عانى معاناة فظيعة في تلك الحقبة . فالأوقات السعيدة الوحيدة التي يتذكرها هي تلك الأوقات التي كان يتفق له خلالها ، من وقت آخر ، أن يقع طريح الفراش . وكان هذا يكفي لإعادة والديه الى جانبه بصورة مؤقتة ، وعلى الأخص أبوه . فقد كان هذا الأخير يأخذ بنفسه حرارة الطفل بحركة مباغتة ، عنيفة ، لا تفارق ذاكرة برتران . ومنذ ذلك الحين ، فهم أنه ما عليه إلا أن يظهر بمظهر الضعيف أو حتى أن يصبح ضعيفاً فعلاً ، مريضاً ، كيما يجد من جديد لدى أبيه موقف عطف وحب . وبُعَيْد ذلك ، تخيَّل وسيلة أخرى : أن يسلك مسلك الولد المشاكس ، غير المطيع ، الذي لا يطاق . وعلى هذا النحو رسخ لديه الاقتناع بأن أباه سيوليه اهتمامه . كان يعرف أنه إذا ما ارتكب حماقةً ما ، فسوف يستدعيه والده في صباح اليوم التالي ، قبل الفطور ، الى

غرفته . وفيما يرتقي الدرج الذي يوصله إلى غرفة أبيه ، كان يستبد به جزع شديد ، ولكن « ما أعظم الفرج عندما ينتهي الأمر » ، أي عندما يضربه أبوه على إليتيه على ذلك النحو الطقسي المألوف .

لما بلغ إلى هذه النقطة من تحليله ، حيث اتضح له التثبيت الجنسي المثلي على أبيه ، بدأ يفطن الى أن ما يختبىء خلف الاتهامات الأبدية التي يوجهها اليه هو تعلقه الطفلي الحقيقي وأن المصاعب والمناقشات التي كانت قائمة بينهما ما هي إلا استطالة مموهة لهذا الرابط الوجداني . وفي نهاية المطاف استطاع ، ولكن بدءاً من تلك اللحظة فقط ، أن يحدثني عن أمه . وهذه واقعة يجدر التنويه بها ، لأنها تظهر ، مرة أخرى ، كيف يخفي الموقف السلبي الجنسي المثلي تجاه الأب الصراع الأوديبي ويموهه . فشخصية الأب ، والرهبة التي كان يوحي له بها ، والتعلق الذي تثبت عليه بقوة منذ الطور القبتناسلي ، كل ذلك أدى إلى أن يتخلى الابن بسرعة ، امام أمٍ ممحوة الشخصية وشديدة الخوف ، عن المقاومة ، وعن رغائبه المحرمية الموهنة اللاشعورية لكي يخضع بصورة نهائية للأب .

إلا أن ثمة ذكريات محددة سمحت لنا بأن نعثر مجدداً على أثر هذه الرغائب الموهنة . والغريب في الأمر أن برتران خلط دفعةً واحدة بين ذكرى الرغبات الجنسية تجاه امه والرغبات الجنسية التي استشعرها تجاه خادماتٍ ، كما لو أنه عمل دوماً بذلك على « خفض قيمة » الموضوع الجنسي الغيري . وبالرغم من ذلك ، نشأ بين برتران وأمه نوع من التفاهم الضمني على سر ينبغي حفظه . وكان لدى برثران انطباع بأن أمه ما كانت تجرؤ على الدفاع عنه عندما كان أبوه يوبخه أو يعاقبه كما لو أنها تخشى أن يفضح امرها . إلا أن ما كان يدفع به نحوها على الأخص هو تلك الحاجة الى الاشتكاء من قساوة أبيه . وبهذه الطريقة فقط كان يسمح لنفسه بأن يطلب عطفها ومحبتها . وقد بدا ، فضلاً عن

ذلك ، أن هذا الموقف كان متعيّناً ايضاً بحاجة إلى نفي الروابط الحقيقية (اللاشعورية) القائمة بينه وبين أبيه . فكان يبدو وكأنه يقـول بصورة مضمرة :

« بما انه شرير معي ، **فهذا يعني انه لا يحبني** » .

عندما تزوج برتران راح يسلك إزاء زوجته السلوك ذاته الذي كان يسلكه إزاء أمه . ولكن قبل أن نتطرق إلى هذا الشطر من حياته ، يبدو لنا أنه من المفيد الإشارة الى بعض عناصر حياته الجنسية الطفلية . فهو يتذكر التظاهرات الأولى لجنسيته ، وهي تظاهرات تعود إلى السنة الثالثة من عمره . وكانت عبارة عن انتصابات قوية وحركات استمنائيـة جرى الربط ، بسرعة ، بينها وبين رغبات مبهمة منصبة على نساءٍ : الخادمات وأمه . وسرعان ما ربط برتران هذه الذكريات ربطاً نهائياً بالخـوف من الجحيم . وقد استوجب الأمر على كل حال عدة أشهر من التحليل لحمله على ان يرى الرابط بين تظاهراته الجنسية ورهبته من الجحيم.فقد كانت مقاومته خير مقياس لخوفه من أن يستشعر من جديـد ذلك الإحســاس الطفلي بالذنب الذي يرتبط بتلك الرهبة .

لقد أسـهم هذا الإحســاس بالـذنب لديـه في تمخض الحاجـة إلى استثارة العقوبات من قبل أبيه . وقد أسلفنا الإشارة الى الحصر الـذي كان يسبق العقوبات ، وكذلك الى الانفراج الـذي كان يعقبهـا . وأظهر التحليل بوضوح أن هذا الحصر كان ذا علاقة بالخـوف من الخصاء ؛ فالانفراج الذي يستشعره بعد العقاب كان مرده إلى أنَّ ما كان يخافه في كل مرة (لاشعورياً) ما كان يتحقق ؛ فبدلاً من أن يرى اباه ، كما كان يخـاف ذلك خـوفاً مبهمـاً ، يقطع عضـوه التناسـلي ، كان الأب يكتفي بضــربه عــلى إليتيه أو بتـوبيخه فقط . وبـذلك كـان يتم تحـاشي الشرّ الأدهى .

كان هذا الخوف من الخصاء يتبدى بوضوح في كابوس نمطي رآه

برتران في تلك الفترة ، وظل يتكرر إلى أن بلغ سن الرشد . وهاكم الحلم : كان برتران يحس إحساساً مُلِذاً بأنه يصعد ويهبط ، كما لو على جناح الغيوم ، وفجأةً يرى أمامه حيواناً كاسراً ، مسخاً يقهقه هازئاً ويتهيأ لكي ينقض عليه ويلتهمه . ومن السهل علينا أن نتعرف في هذا الحلم صورة الأب القاسي والساخر ، الذي يعاقب ابنه بسبب الملذات الجنسية التي يبيحها لنفسه .

هذا يقودنا الى الكلام عن حياة برتران الجنسية في سن الرشد . فقد تزوج مبكراً ، ولم يكن قد عاشر قط أي امرأة اخرى . وتمت ممارسة العلاقات الجنسية الأولى على نحو أخرق ، فظ ، وفي حالة من الحصر الرهيب . فما عرف الزوجان طيلة حياتهما المشتركة الإشباع : قذف مبكر ، ورعشة جنسية بدون لذة . وبقيت المرأة ، بطبيعة الحال ، باردة . وسرعان ما تبنت سلوكاً أموياً تجاه برتران الذي بذل قصاراه ، على كل حال ، كما لنا أن نتوقع ، لكي يحملها على ذلك .

كانت هذه العلاقات الجنسية تُمارَس دوماً في ظروف تنم عن ضروب الكف التي يعاني منها برتران وزوجته على حدٍ سواء : فقد كان يجامعها من الوراء ، خفيةً ، خلسةً ، لكي لا يرى أحدهما الآخر ، الخ . وبدا أيضاً في التحليل أن برتران لم يعش ، إذا صح التعبير ، عقدة اوديب بصورة حقيقية إلا بعد أن تزوج . وهكذا بقي خلال السنوات الأولى من زواجه مأخوذاً ، بكل ما في الكلمة من معنى ، بأحلام يقظة كانت تمثل له أباه وهو يعاشر زوجته جنسياً .

وكان يخيل لبرتران أحياناً ، في أثناء المجامعة ، أن ثمة شخصاً يقف وراءه يراقبه . وكان من السهل أن نبيّن له أن مرد ذلك ، هنا أيضاً ، الى خوفه من أبيه . فهو لم يحوِّل فقط باتجاه زوجته الموقف الذي كان عاشه إزاء امه ، بل جرى كل شيء كما لو أنَّ ما لم يجرؤ على طلبه من أمه إلا بصورة وجلة ، خوفاً من غيرة الأب ، كان يطلبه من زوجته ،

التي صارت أماً ثانية . وكان الشيء الأساسي ، بالنسبة اليه ، أن يشتكي لها ، وأن يظهر بمظهر طفل مزعج ملحاح ، لا حول له ولا قوة ، ومسحوق من قبل أبيه . فكان يضخم أبسط الهموم وأبسط الحوادث عن قصد ودراية ، ويبالغ فيها الى حدٍ دراماتيكي أمام زوجته لاستثارة شفقتها . والشكل الوحيد من أشكال الحنو الذي كان يمكنه أن يتقبله منها هو الشكل الذي يكون مُعلّلاً ومقنّعاً بالشفقة والحماية الأموية .

إن هذه اللمحة المقتضبة من التحليل تظهر لنا جيداً كيف أنه تختبىء احياناً ، وراء الشكاوى والاتهامات الموجهة ضد أب صارم ، حاجة إلى أن يُحَب من قبل هذا الأب ؛ وكيف أنَّ مجرد ضربه يمكن أن يوفر له إشباعاً لاشعورياً ؛ وكيف أنَّ الأنا الأعلى ينوب بالتالي مناب أب صارم وفظ ، ويتابع معاملة الشخص المعني بالطريقة ذاتها من خلال معاقبته ؛ وكذلك كيف أن هذا الأنا الأعلى يعيد ، في آن معاً ، إنتاج صرامة الأب والعدوانية التي يقلبها الشخص على ذاته بعد خيباته الأولى ، وإحباطاته الليبيدية الأولى .

(٤)
المازوخية لدى المرأة

إذا كانت المازوخية لدى الرجل مشكلة معقدة ، فإنها لمعقدة بالقدر نفسه ، وربما أكثر ، لدى المرأة .

لكن لعل الطريقة التي جرت بها دراستها قد عقدتها أكثر مما ينبغي بعد . ونحن نلمع هنا على وجه التعيين الى جميع النظريات التي تقول إن سلوك المرأة بوجه عام وسلوكها الجنسي بوجه خاص يتضمنان **طبيعياً** درجة معينة من المازوخية . ومن السهل علينا أن نطعن في صحة شعور كهذا : إذ يكفي أن نلاحظ أنه إذا كانت مازوخية المرأة **طبيعية** ، فإنها لا تعود في هذه الحال مازوخية . وبالفعل ، لا يمكننا أن نعتبر الظاهرة الطبيعية باتولوجية ؛ والمازوخية تمثل على وجه التعيين استجابة باتولوجية .

إن الحضارات من النمط المذكّر ـ وكانت كلها كذلك بقدر أو بآخر ـ فرضت على المرأة موقف سلبية وخضوع وتبعية . ومرد ذلك في أرجح الظن إلى أن المرأة هي بيولوجياً أدنى من الرجل : فهي بوجه عام أضعف بدنياً ، ولا تملك عضواً جنسياً يمكن أن يسمح لها باتخاذ دور جنسي ايجابي أساساً .

علاوةً على ذلك ، فإن وظائف التناسل تشغل في حياة المرأة الجنسية مكانةً أعظم بما لا يقاس مما لدى الرجل . وهي ، فضلاً عن ذلك ، مؤلمة . إلا أن جميع هذه الصفات : دونية نسبية ، سلبية ، وحتمية عيش بعض فصول الحياة الجنسية في الألم ، تفرض نفسها على

المـرأة بفعل قـوانين الطبيعـة : فهي من ثم لا تطلبهـا لتستمـد منهـا إشباعات كان من المفروض أن تلقاها بصورة طبيعية في مضامير أخرى . وقد تكون المرأة مازوخية لو كان من الممكن ، في هذا المجال المحدَّد ، أن تسلك غير المسلك الذي تسلكه . والحال أن الواقع ليس بكـذلك . فعـلى الصعيد الاجتماعي ، مثلاً ، نراها تحاول ، حالما يمكنها ذلك ، أن تنضو عنها ثوب الخضوع وأن تعيش خارج نطاق التبعية للرجل .

أمـا فيما يتصـل بالصفـات الخـاصـة للحيـاة الجنسيـة ، فهي مفروضة عليها بيولوجياً . وكونها تقبل بهذه الصفات ، وتتكيف معها ، لا يبيح لنا أن نرى فيه استجابة باتولوجية مازوخية . يمكننا أن نطلق اسم المازوخي على الرجل الذي يتبنى عصابياً صفات السلـوك الانثوي ، إلا أن هذا لا يأذن لنا على الإطلاق باعتبار هذه الصفات ذاتها لـدى المرأة مازوخيةً ، وذلك ما دامت طبيعية عندها . من هذا الالتباس تحديداً نشأ سوء تفاهم وتجذَّر في أدبيات التحليل النفسي . ولعل فرويد ذاتـه أسهم بقسطه ، ودونما تعمد ، في سوء التفاهم هذا ، عندما وصف « المازوخية المؤنثة بأنها تعبير عن طبيعة المرأة »[1] ، بالرغم من أنه يفسر الواقعـة على النحو التالي : « عندما تسنح لنا الفرصة لأن ندرس حـالات طرأت فيهـا على التخييـلات المازوخيـة[2] صياغـة غنية للغـاية ، فسنكتشف بسهولة أنها تضـع الشخص في موقف أنثوي نمطي : حـالة خصـاء ، موقف سلبي في الجماع ، وولادة » .

من البديهي أن الرجل الذي يتصرف كما لو أنه مخصي ، والـذي يرغب في أن يلعب دوراً سلبياً في أثناء الجماع ، والذي يلتذ بأن يتخيل نفسه امرأة قيد المخاض ، هو انسان غـير سوي ومـازوخي . ولكن من البديهي ايضاً أن التشخيص ذاته لا يمكن تطبيقه على المرأة عندما تقبل

---

(١) فرويد ، المشكلة الاقتصادية للمازوخية .

(٢) تخييلات تميز المازوخية الانثوية لدى الرجل .

رمزياً بأن تُخصى (اي أن تُحرم من عضو جنسي مذكر) ، وبالتالي عندما تقبل بأنوثتها ، وعندما تؤدي الدور الذي تقضي به الطبيعة في الفعل الجنسي ـ وهو أن تُؤخَذ من قبل الرجل ـ وعندما ترضى بأن تنجب ، إشباعاً منها لغريزتها الأموية ، حتى في الألم[٣] ، وذلك ما دامت لا تستطيع أن تفعل شيئاً آخر !

من المثير أن نلاحظ أن الرجال ليسوا هم وحدهم الذي يميلون الى اعتبار المرأة مازوخية بطبيعتها ، فنحن نجد هذه النزعة حتى لدى بعض النساء من الكتاب .

فهيلين دوتش[٤] بالتحديد تجعل من المازوخية العنصر الضروري لتطور المرأة ولقبولها بأنوثتها .

وترى ماري بونابرت[٥] ايضاً ان نزراً قليلاً من المازوخية ضروري لتطور الانوثة الجنسي[٦] .

من العسير علينا أن نفهم لماذا تُعتَبر المرأة التي تقبل بأنوثتها مازوخيةً . أفلا يكاد يكون منطقياً ان نبحث في قوى أخرى غير المازوخية ـ تلك الظاهرة الباتولوجية ـ عن قابلية المرأة للقبول ببعض الخبرات المؤلمة المرتبطة ارتباطاً طبيعياً بحياتها الجنسية ، وحتى ببعض

---

(٣) فضلاً عن ذلك ، فإن الولادة تحت التخدير صارت مطلباً نسوياً وهي تطبق على نطاق اوسع فأوسع . وإن ثمة تقنية عضلية عصبية نفسية تسمح اليوم بإجراء ولادة بدون الم .

(٤) هـ . دوتش ، **التحليل النفسي للوظائف الجنسية للنساء** PSYCHOANALYSE DER WEIBLICHEN SEXUALFUNKTIONEN منشورات التحليل النفسي الدولية ، ١٩٢٥ . وكذلك **المازوخية الانثوية وعلاقتها بالبرودة**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، م ١٦ ، ١٩٣٠ .

(٥) م . بونابرت ، **السلبية والمازوخية والانوثة** ، في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي ، ١٩٢٨ .

(٦) هـ . دوتش ، **سيكولوجيا المراة** ، WOMAN PSYCHOLOGY ، نيويورك ١٩٤٥ .

المواقف التي تضعها في حالة دونية نسبةً إلى الرجل ؟ وأما فيما يتعلق بالحبل والإنجاب بوجه الخصوص ، أفليست الغريزة الأموية قوية بما فيه الكفاية ـ عندما يمكنها أن تتفتح بصورة حرة ـ لكي تتغلب بمفردها على بعض الهواجس والمخاوف ؟

إن فض البكارة ، وخوف المرأة من أن تولَج ، وكذلك آلام المعاشرات الجنسية الأولى ، يتم نسيانها بسرعة عندما لا تقف عقبات عصابية حائلاً دون تطور يُفترض فيه أن يعيد الى الجماع ، بصورة طبيعية وسريعة ، صفته اللاذّة التي تنتظرها المرأة .

والصحيح أن الايروسية الأقل تركزاً لدى المرأة ، ووضعها في اثناء الجماع ، يحتمان أن تكون صفات جنسيتها مختلفة عن صفات جنسية الرجل . وإذا كانت هذه الصفات ذاتها تتأدى بالرجل مباشرةً الى المازوخية عندما يستعيرها من المرأة،فهي لا تؤلف بالنسبة الى هذه الأخيرة إلا عناصر سوية . **وتضخمها** في ظروف كانت عكرت مجرى النمو الجنسي الطفلي هو وحده الذي سيقود المرأة الى انحراف او الى عصاب مازوخي .

ثم إن الانحراف المازوخي الظاهر استثنائي لدى المرأة ، على الرغم من أنه يُقال إنَّ النساء يُحببن أن يُضرَبن . وهن لا يقعن ضحية هذا الانحراف ، كما يقع الرجال ، إلا عندما تبحث طاقتهن الليبيدية في ذلك عن إشباع محوَّل ، إذا ما عز عليها أن تصل عن طريق آخر إلى إشباع سوي . والحق أن التخييلات المازوخية هي الأكثر تواتراً .

اما الطبع المازوخي بحد ذاته فلا يبدو لنا لا أكثر ولا أقل تواتراً منه لدى الرجل .

* * *

إن الليبيدو الطفلي ينمو ، لأجل من الزمن ، نمواً متماثلاً لدى كل من البنت الصغيرة والصبي الصغير . وهذه الحقبة تغطيها أطوار قبتناسلية : الطور الفموي ، والشرجي ، والقضيبي . وليس إلا في نهاية

هذا الطور الأخير تشرع الجنسية الأنثوية في سلوك مسلكها الخاص . ونظراً إلى أن البنت الصغيرة ، خلال هذه الفترة ، تكون لا تزال جاهلة بالفارق التشريحي بين الجنسين ، او لا تقيم له اعتباراً ، فإن اهتمامها الجنسي يكون مركزاً على بظرها ، بالطريقة ذاتها التي يركز بها الصبي الصغير اهتمامه على قضيبه . فالنشاط الاستمنائي للبنت الصغيرة يكون بظرياً ولا يختلف كثيراً عن نشاط الصبي الصغير . وتخييلاتها الجنسية متماثلة : فهي تعبر عن حاجة مبهمة ولاشعورية الى امتلاك الأم . وفي هذه الرغبة تدلل البنت الصغيرة على ايجابية ، مثلها مثل الصبي الصغير . وخلال هذه الحقبة تتماهى بقدر او بآخر مع أبيها .

عندما يبلغ هذا التماهي إلى درجة معينة ، يصبح محتّماً عليها ان تلاحظ الفارق القائم بينها وبين نموذجها ، ولو عن طريق الصبي الصغير . وتكتشف بالتالي فارق الأعضاء الجنسية أو تصبح حساسةً به ، وهذه الملاحظة تتأدى بها ، إذا لم يكن هنالك من حائل دون تطور سوي ، إلى الإقلاع عن رغباتها الجنسية الايجابية ، المذكّرة النمط ، إزاء أمها ، وتحثّها في الوقت نفسه على التماهي مع هذه الأخيرة .

ومما يسهل هذا التماهي ، من جهة أولى ، أن تكون البنت الصغيرة محبةً لأمها ومعجبةً بها ، كما أن ما يسهل ، من جهة ثانية ، انفصال البنت عن أمها بصفتها موضوعاً جنسياً ميلها اللاشعوري إلى أن تجعلها هي المسؤولة عما ينقصها : القضيب . عندئذٍ تدخل في المرحلة الأوديبية ،وتقف موقفاً أنثوياً إزاء ابيها ، وتأمل بصورة مبهمة في أن تحصل منه على طفل ، وهذا عزاء وتعويض عما تعتبره دونية جنسية . ولسوف ترغب في أن تنوب مناب أمها،وكثيراً ما تعبر عن هذه الرغبة بقولها : « فيما بعد سأتزوج أبي » . ومع كبرها بمرور الأيام ، سيقودها التطور السوي إلى نزع الصفة الجنسية عن أبيها بصفته موضوع حب ، وذلك ما دام لا يوفر لها الإشباعات التي كانت تنتظرها منه ، وستقودها غريزتها إلى بدائل قريبة بقدر او بآخر من المثل الأعلى

المذكرُ المتكوِّن على صورته .

هـذا هو التطـور السـوي ، السليم : إنـه يستتبـع قبـول البنت بالأنوثة ، بعد ما كانت ترفضـها في البداية من جراء الانجراح النرجسي ، وبعد ما تكون وجدت تعويضاً لها في الأمل في إنجاب طفل . وبذلك نفهم أكثر لماذا لا تكمل الأمومة الأنوثة فحسب ، بل توفر لها شروط تفتحهـا الكامل .

إلا أن هذا التكيّف مع الـلامساواة ومـع الفارق التشـريحي بين الجنسين ، وهو بمثـابة نقطـة الانطلاق للتـوجه الأنثـوي ، ليس ممكناً دواماً . فقد تأتي استجابات البنت الصغيرة مباينة تماماً ، مما يبعدها عن مسالك الأنوثة . ونحن نعني هنا تلك الاستجابات التي لا تخلو من تعقيد بحكم تلونهـا بقدر من المـازوخية العصابية . ويمكن لهذه البنت الصغيرة أيضاً أن تصر على إنكار ما لاحظته لتوها : غياب عضو جنسي لديها يشبه عضو الصبي . فهي لا تريد أبداً الإقرار بأنها مجـردة مما يبدو في نظرها ميزة . وهذا ما سيقودها تدريجياً إلى الإفصاح عن ميول مميِّزة لعقدة الذكورة لدى المرأة . ولسـوف تجنِّد كـل قواهـا لكي تنمِّي طبعاً وسلوكاً ذكوريـين ولكي تنكر أنـوثتها . وأرجـح الظن أن التحليل سيظهر لنا في هذه الحال أن عقدة اوديب لم تُواجَه لديها مواجهة سوية .

ومن المحتمل أنه حينما لاحظت نساء من هذا النمط غياب عضو ذكوري لديهن ، بـادرن إلى التماهي تمـاهياً قـوياً للغـاية مـع آبائهن ، وكَوَّنَّ ، بدالة سلوك بعينه صدر عن الوالدين ، أناً أعلى مذكراً أقوى من أن يكون في مقدورهن العزوف عنه . وعندئذٍ اضطررن إلى إنكار الحقيقة ونسيانها ، والى النكوص إلى الطور القضيبي الإيجابي .

هذا يبيِّن جيداً أن عقدتهن الـذكوريـة لم تكن بمثابـة خطوة إلى الأمام على طريق النمو والتطور : بل إن هـذه العقدة ، عـلى العكس من ذلك تماماً ، أعادت النساء إلى طور طفـلي يحتمل أنهن كن مـا زلن فيه جاهلات بغياب القضيب ، مما كان يسمح لهن بأن يتماهين مع آبـائهن

وبأن يلعبن على نحو مبهم دوراً ايجابياً ، مذكراً ، حيال الأم . وستحتفظ هؤلاء النساء فيما بعد بوهم الذكورة ، وسيتصرفن ، من جراء ذلك ، كما لو كنَّ رجالًا ؛ غير أن صفاتهن الذكورية غالباً ما ستكون مبتسرة ومشوّهة. وسيجدن أنفسهن مدفوعات دوماً إلى الدخول في منافسة مع الرجال. وبذلك سيكررن الموقف الطفلي الذي كن في أثنائه في منافسة مع آبائهن حيال الأم . وسيخفن لاشعورياً من الرجل ، اي المنافس ، بالكيفية ذاتها التي يخاف بها رجلٌ ، لم يصفِّ عقدته الاوديبية تصفيةً صحيحة ، من بدائل الأب . بتعبير آخر ، سيخفن لاشعورياً ، وهن يعشن على وهم الذكورة ، من الخصاء ، مثلهن مثل بعض الرجال . ولسوف يرغبن دوماً في أن يحللن محل الذكر ، وأن تكون الغلبة لهن ؛ بيد أنهن كثيراً ما تؤول الحال بهن إلى الفشل بسبب خوف لاشعوري من النجاح ومن التعرض بالتالي لخطر انتقام في صورة خصاء . وفي بعض الأحيان يتعرف المحلل منذ ابتداء التحليل النفسي هذا النمط من النساء . فهن لا يستطعن إطلاقاً ، مثلاً ، أن يقبلن بالتمدد خلال الجلسات التحليلية النفسية إذا كان المحلِّل رجلاً . وعندئذٍ يكشف التحليل لديهن ، بالدرجة الأولى ، عن استحالة القبول بموقفٍ دونيةٍ وسلبية امام الرجل . لكن الخوف الذي يظهرنه ، إذا ما أردنا إجبارهن مع ذلك على البقاء ممددات ، قبل أن يتسنى لنا شرح السبب لهن ، ينم بوضوح عن أنهن يرين في الموقف التحليلي خطراً حقيقياً .

أو انهن لا يخفن من المحلِّل إلا بعد أن تكون رغبة قوية قد انتابتهن في ان يتصدين له ، ويحللن محله ،ويتغلبن عليه . وإذا ما ماهين بينه وبين الصورة الأبوية ، استبد بهن إزاءه الخوف القوي والطفلي نفسه الذي كان يساورهن إزاء آبائهن ، وذلك كما لو انهن سيتعرضن لعقوبة الخصاء . وستسلك هؤلاء النساء في الحياة مسلك الرجال المازوخيين ، فيخشين اكثر ما يخشين على ذكورتهن:ومن ثم ستتمخض لديهن استجابات عقابية ذاتية مازوخية ، كثيراً ما تكون

محتجبة خلف سلوك ذكوري وعدواني في ظاهره ، لكي يبعدن عنهن خطر خصاء وهمي .

في حالات أخرى ، يتفق للبنت الصغيرة أن تتصور انها ما دامت لا تملك قضيباً فهذا معناه أن احدهم قد قطعه لها ، أي أنها خُصيَت . وستتخيل هذا الخصاء عقاباً مستأهلاً ، بحكم الممارسات الاستمنائية بصورة عامة ، وأحياناً بحكم الميول الاوديبية الأولى المعكوسة التي لم يتح لها أن تتبلور .

ونحن نعرف كيف تترسخ ، لدى بعض الصبيان ، الميول المازوخية التي لا غرض لها سوى إبعاد خطر الخصاء . أما لدى بعض البنات الصغيرات ، بالمقابل ، فإن الإحساس بالخصاء المتحقق والمرتبط بعقدة الذنب هو الذي سيطلق الميول المازوخية من عقالها . وهذه هي بالتحديد حالة البرودة المازوخية لدى بعض النساء اللواتي لا يغفرن أبداً لأنفسهن الاستمناء الطفلي . فالإحساس بالذنب لا يزيل الميول الى الاستمناء - بل على العكس من ذلك تماماً - ولا سيما أنَّ هؤلاء النساء باردات ، وبالتالي محرومات من إشباعات جنسية . ومن جراء ذلك ، فإن اي محاولة استمنائية محققة أو حتى مكبوتة تطلق العنان لاستجابات عقابية ذاتية مازوخية . لكن حتى باستثناء هذه الحالات التي تكون فيها البرودة مترافقة باستمناء مقبول بقدر او بآخر ، فإن مجرد إبقاء فكرة الأنوثة (مثلما هي متصوَّرة هنا في مولِّداتها ، أي كما لو أنها نتيجة خصاء) مرتبطة بعقدة ذنب أو قصاص لاشعورية يديم الحاجة إلى هذا القصاص . وتفيدنا الملاحظة التحليلية النفسية يومياً أن **عقدة الذنب اللاشعورية لا يمحوها العقاب ابداً** - مهما يكن هذا العقاب - **بل على العكس من ذلك تماماً** . وهذا ما يفسر المازوخية لدى هذا النمط من النساء اللواتي لا يقيهن ، مع ذلك ، الخصاء المتخيَّل واللاشعوري ، المقبول منهن باعتباره عقاباً ، من جملة الاستجابات العقابية الذاتية التي لا غرض لها سوى استدعاء الألم .

لقد وصفت هيلين دوتش لدى بعض النساء رغبةً لاشعورية في أن يُخصَين ، وهي رغبة نلتقيها ، بالتأكيد ، في صورة عقدة خصاء سلبية ، لدى كثيرات من النساء ممن يعانين من العصاب بقدر أو بآخر . وإن واحدة من أكثر تظاهرات هذه العقدة لفتاً للنظر تظاهرة تترجم عن نفسها بطريقة غريبة في موقف هؤلاء النساء أمام عملية جراحية يتحتم إجراؤها لهن : فهن يجدن لاشعورياً في هذه العملية إشباعاً كبيراً ويبقين متعلقات بطبيبهن الجرّاح وعارفات له بالجميل ، هذا ان لم يقعن في حبه . وتفسر هـ . دوتش ظهور هذه الرغبة في الخصاء ، لدى البنت الصغيرة،بطريقةٍ لا يبدو لنا أن من الممكن الأخذ بها . فهي تبدأ بالإشارة بسداد إلى أن الميول الايجابية السادية للطور القضيبي تستدمج ، على نحو مازوخي ، بدءاً من اللحظة التي يفقد فيها البظر قيمته كعضو مذكر . ونحن نوافقها بصدد هذه النقطة ، إلا اننا لا نعود نوافقها عندما تؤكد أنَّ هذا المدد المازوخي سيستتبع لدى البنت رغبة في أن تُخصى من قبل الأب .

بعد بضعة أسطر تكتب على سبيل التفسير : « في رأيي أن التوجه المازوخي لـ « القدر التشريحي »(٧) هو من طبيعة بيولوجية أي أنه تنظيم متعيِّن سلفاً ويقوم مقام الركيزة الأولى لتطور الأنوثة الباعث على الرضى ، والذي يكون لا يزال مستقلاً عن الاستجابات المازوخية المرتبطة بالإحساس بالذنب » .

إن الاحتجاج بعامل أصلي بيولوجي لتفسير المازوخية لا يبدو لنا هنا أيضاً مقنعاً . علاوة على ذلك ، فمن المؤكد أن كلمة خصاء ليست في محلها . إذ يشق علينا أن نتصور أنه من الممكن أن تتطابق لدى البنت الصغيرة مع المفهوم الذي تمثله فعلياً . وبالنسبة الينا ، يبدو لنا أن مجازفتنا بالابتعاد عن وقائع الملاحظة الفعلية تكون أقل إذا ما اعتبرنا هذا التوجه المازوخي الأول القاصر على نمط معين من الأنوثة ناجماً عن

---

(٧) إشارة إلى عبارة فرويد : « التشريح هو القدر » بصدد الفارق التشريحي بين الجنسين .

رغبة اكثر بساطة وأشد إبهاماً في آنٍ معاً في الخضوع ، على صعيد الأعضاء التناسلية ، لعنف من قبل الأب .

وبحسب ملاحظاتنا ، تُشتق هذه الرغبة بوضوح من تحول الميول الايجابية للطور القضيبي إلى ميول سلبية ، بدءاً من اللحظة التي تعي فيها البنت الصغيرة أنه من رابع المستحيلات عليها ، بحكم غياب عضو قضيبي ، أن تجد وسيلة تسمح لها بالممارسة الايجابية لرغباتها . والخوف الذي يمكن أن ينتابها حيال أب ، تخوض وإياه صراعَ مزاحمة وغيرة ، قد يكون كافياً ايضاً (وكذلك الحال لدى الصبي) لانقلاب الميول الايجابية المصبوغة بقدر من العدوانية إلى ميول سلبية ، اكثر ملاءمة للتكوين الأنثوي . ولا حاجة البتة إلى الاستعانة بعوامل غير قابلة للتحقق منها ، مثل « الميول البيولوجية المتعينة سلفاً » . وفضلاً عن ذلك ، فإن طريقتنا في فهم عقدة الخصاء تسمح لنا باستبعاد تصور مازوخيةٍ مباطنة للنمو الأنثوي .

يبدو لنا أن هذا النمو يرتكز على سلبية الطبيعة الانثوية . ولكن إذا كان من الممكن للسلبية أن تدفع باتجاه المازوخية ، فليست هي مقوِّمها المكوِّن . وانما مساهمة القوى العدوانية المنقلبة هي التي تخلق ، على هذه الخلفية من السلبية ، مازوخية المرأة ، على مثل المنوال الذي تخلقها به لدى الرجل . فعناصر النمو الخاصة بالبنت الصغيرة ، وهي العناصر النابعة من الفارق التشريحي بين الجنسين ، واتجاه البنت الصغيرة نحو السلبية على نحو أوضح وأكثر طبيعية مما نلحظه لدى الصبي الصغير ، ذلك كله ييسر انبجاس المازوخية لدى المرأة ، ولكنه لا يخلقها .

إن البنت الصغيرة التي لا تتوفر لها « الوسائل » العضوية لتمارس من الناحية الجنسية قسطاً على الأقل من عدوانيتها ، المرتبطة كما لدى الصبي ببعض أطوار نموها الليبيدي ، ستعكس باتجاه ذاتها هذه العدوانية بعنف أكبر بعد . إلا أن جميع المعطيات التي تساعد على تحويل قوى الصبي الايجابية ـ العدوانية إلى مازوخية تنطبق ، مع

التعديلات الواجبة ، على البنت الصغيرة . فعقدة الذنب والحاجة إلى العقاب بالاستجابات العقابية الذاتية توسعان نطاق المازوخية لدى المرأة وتغذيانها تماماً كما لدى الرجل .

إلا ان ثمة ملاحظة تفرض نفسها علينا هنا . فان تكن صفات النمو القبتناسلي هذه تساعد ، فيما يظهر ، على التوجه المازوخي لدى بعض النساء أكثر مما لدى الرجل ، فإن الشروط التي يتكون فيها الأنا الأعلى الأنثوي تأتي بمصحح تعويضي .

يكون الأنا الأعلى الأنثوي اقل صلابةً وصرامةً بوجه عام من الأنا الأعلى المذكَّر ، نظراً إلى انه ليس مرتبطاً ، في الأصل ، بالخوف من الخصاء ارتباطاً قوياً . وبنتيجة ذلك ، تكون عقدة الذنب أقل بروزاً لدى المرأة في اغلب الحالات . بناءً على ذلك ، وبالرغم من النظريات التي تريد أن تُخَص المرأة بطبيعةٍ مازوخية في جوهرها ، تكون المرأة أقل مازوخية بوجه عام من الرجل .

إلا أن التخييلات المازوخية كثيرة التواتر لدى النساء . ونحن لن نشدِّد على تخييلات الضرب بالسوط التي أسهبنا في الكلام عنها لدى الرجل : ففي هذه التخييلات يُضرَب طفل ما أو عدة أطفال ، امرأة أو رجل كذلك ، الخ . وكثيراً ما تمثل هذه التخييلات (لدى المرأة) رجلاً قذراً ، رث الثياب ، يضرب امرأة ما او يغتصبها . وفي أحيان أخرى ، فإن مسخاً حقيقياً أو حيواناً كاسراً هو الذي يقوم بها الدور . وتُصطنع هذه التخييلات لأهداف استمنائية ، او لإثارة الرغبة، أو كذلك للوصول الى الرعشة في أثناء الجماع .

إن إسهابنا في الكلام ، من خلال تعليقنا على مقالة فرويد : « ولد يُضرَب » ، عن تخييلات الجلد بالسوط ، يعفينا من الإلحاح من جديد عليها . ولنذكِّر باختصار أن المرأة ، باستدعائها هذه المشاهد ، تتماهى مع الطفل او مع المرأة التي تتلقى العقاب ، وأن الذي يعاقب يمثل الأب ، وأن التخييل بأكمله مشتق من عقدة أوديب . وهدف هذا التخييل هو

إنكار الرابط المحرمي بالأب ، في صيغة قريبة من الصيغة التالية : « بما أنه يضربني ، فهذا يعني أنه لا يحبني ، إذن ، لست بمذنبة » . إلا ان هذا ليس سوى جانب واحد من جوانب المشكلة ، ويمكن للتخييل ذاته أن يسمح للمرأة ، عن طريق العقاب المُستدعى باستمرار ، بأن تبقى لاشعورياً في موقف يدعو إلى العقاب ـ اي الموقف المحرمي ـ وبأن تحافظ على هذا النحو على توظيف الأب بصفته موضوعاً جنسياً .

أما التخييلات الأخرى ـ المسخ او الوحش الذي يَغتصِب ـ فهي تعابير عقابية ذاتية أو خافضة لقيمة الموضوع الجنسي . وهدفها هو السماح ، إلى حدٍ ما ، بإشباعات جنسية محظورة . وهي تعبر عن رغبة المرأة في أن تُرغَم على تلقي إشباع جنسي محظور في طور عقدة اوديب . فقد كان هذا الحظر قد قُبل آنئذٍ وجرى استدماجه ، فتواصل من ثم وجوده في اللاشعور ، بصفته أنا اعلى لدى المريضة التي لا يمكنها أن تحظى بإشباعات جنسية إلا عن طريق تخيلها لإخراج مسرحي يفرض فيه عليها الاغتصاب ، فلا تكون بالتالي مذنبة .

إن مخطط هذا الموقف يمكن أن يتكرر في المازوخية المعنوية عندما تسقِط المرأة ، في علاقاتها الاجتماعية او العاطفية ، على الشيء المرغوب فيه الإحساس ذاته بالذنب . فبدلاً من أن تسعى إلى الفوز بما ترغب فيه ، وبدلاً من أن تتصرف من تلقاء نفسها ، ستنتظر أن يرغمها أحد على ذلك ، وستتألم إذا لم يحدث لها ذلك ، وستنحي فيه باللائمة على محيطها . وسيفتح هذا الموقف منفذاً خطراً أمام سادية الغير . وهكذا ستتوافر لها أسباب شتى للشكوى والتذمر ، ولكن ضميرها سيكون مرتاحاً : فلن تكون هي « المذنبة » .

إن التظاهرات المازوخية التي تقدم وصفها ليست أنثوية حصراً : فالطبع المازوخي الأنثوي لا يختلف سريرياً عن طبع الرجل المازوخي . ونحن نجد فيه التراكب او التمازج ذاته لاستجابات الفشل والإخفاق وعقاب الذات ، نظراً إلى ان الحاجة ذاتها إلى التألم تمتزج بالحاجة إلى الحب أو تنوب منابها .

(٥)

دور المازوخية في اضطرابات القدرة الجنسية لدى الرجل

أسلفنا الإشارة ، عرضاً ، في الفصل المكرّس للمازوخية الشهوية ، إلى اضطرابات القدرة الجنسية المرتبطة بهذه المازوخية . وقد رأينا أنه في بعض الحالات لا يمكن أن يحدث انتصاب او قذف ـ او كذلك الظاهرتان معاً ـ إلا على أثر ممارسات مازوخية أو تحت تأثير تخييلات من النوع ذاته . عندئذٍ يمكن للجماع ، في أغلب الأوقات ، ولكن ليس دائماً ، أن يتم . ولكن قد يحدث أن يبقى الشخص ، بالرغم من هذه الممارسات المنحرفة ، عنيناً عنّة تامة . وبما أننا عالجنا هذا الكف في موضع سابق ، فلن نعود اليه .

إننا سنبحث هنا بالأحرى في المازوخية المعنوية وفي علاقاتها ببعض أشكال العنّة . وبوجه عام ، يمكننا القول إنه في الأشكال التي تشتق مباشرة من عقدة أوديب ، تتجلى المازوخية بوساطة أنا أعلى يكفّ ويعاقب.وفي هذه الحالة ، يكون دور المازوخية مبهماً للغاية ويبقى قاصراً على مظهرها العقابي الذاتي المحض ، الذي لا يمثل سيرورة نوعية .

وعلى العكس من ذلك ، وفي بعض أشكال العنّة ، تبدو المازوخية ، بصفتها طاقة غريزية منعكسة على ذات الشخص ، وكأنها هي العامل الاقتصادي المهيمن على العصاب . لنتفحص نمطاً أول متعيناً بازدواجية

بالغة الشدة تميِّز الموقف الوجداني للصبي إزاء أبيه في أثناء الصراع الاوديبي . فالأمر يتصل هنا بطفل تحركه عدوانية عنيفة ضد هذا الأب ، الذي يقف عقبة كأداء أمام رغبة محرمية لاشعورية . إلا أن هذه العدوانية تساوي في عنفها ، في الحالة التي نحن بصددها ، قوة العاطفة الايجابية ـ المتوطدة من قبل ـ التي يستشعرها هذا الصبي إزاء أبيه . ولحل الصراع الاوديبي ، ينبغي على الصبي أن يرجح كفة أحد هذين الشعورين على الآخر .

لا يندر أن يجد الصبي ما يغريه بأن يسلس قياده للميول العدوانية ، ولكنه لا يلبث في هذه الحال ، وكأنما استبد به الخوف ، أن يقلب هذه العدوانية على نفسه بصورة مباغتة ، محولاً إياها إلى مازوخية . وعندئذٍ نراه يتبنى موقفاً سلبياً وأنثوياً وخانعاً إزاء أبيه ، كيما يتمكن من الحفاظ على حبه . إلا أنه يجرد بذلك ذكورته المعنوية والتناسلية من قدرٍ كبير من الطاقة التي تمدها بها القوى العدوانية .

أما النمط الثاني فيمثله رجل يتبنى ، خوفاً من الخصاء وكما لو ليفلت منه ، سلوكاً مخصياً بقدر او بآخر . في هذه الحال ، يؤدي الكف إلى العنّة بفعل ارتخاء الانتصاب وقت الإيلاج . ونحن نعلم ان إنزال الشخص بنفسه ألماً أو عقاباً استباقاً للألم أو للعقاب الذي يخشاه من العالم الخارجي هو أوالية نموذجية للمازوخية . وإذا كان الخوف من الخصاء هنا شديداً إلى حدٍ يتوجب معه على الشخص كيما يفلت من الخصاء ان يستبق ـ بنوع ما ـ وضعه موضع التنفيذ (كمن يتماوت لكي لا يُقتَل) ، فهذا لأن ذلك الخوف هو بحجم العدوانية التي راودت الصبي خلال الطور الاوديبي إزاء خصم مُستشعَر على أنه خطر . وهذه العدوانية ، المنقلبة على الشخص ذاته ، هي التي تستثير كف الانتصاب .

ولدى نمط ثالث من الناس ، تكون العدوانية المسؤولة عن العنّة

موجهة ، إذا لم توقف وتحرف عن مسارها ، ضد المرأة . وبنية هذا الشكل الأخير من العنّة معقدة بما فيه الكفاية ، والكثير من عناصرها التكوينية يبقى محاطاً بالإبهام . ولا يمكن فهم هذه العناصر إلا على ضوء العلاقة القبتناسلية بين الأم والطفل : فثدي الأم هو العضو الذي يغذي بما يسيل منه من لبن . وهذه الصورة الأولى تنطبع في لاشعور الطفل الرضيع . وفيما بعد ، وعندما يتنبه الصبي ، بمناسبة انتصاب متطاول الأمد او استمناء ، إلى أن ثمة سائلاً يسيل من عضوه ، يميل إلى تنضيد هذا الأخير فوق صورة ثدي الأم . وعلى هذا النحو ، إذا وسمت إحباطات شديدة الوقع بميسمها علاقة الطفل الغذائية بالثدي الأموي ، فإن ما يسيل من العضو سيتخذ لاشعورياً معنىً عدوانياً .

لقد ثبت ، في تحليل بعض الرجال الراشدين ، أن القذف المضطرب او المُلغى يكون موظَّفاً ، إذا صح التعبير ، بهذه الكيفية الانتقامية . فهؤلاء الرجال يمسكون عن المرأة المني ، كما لو أنهم ، بفعلهم هذا ، يشبعون حاجتهم إلى ان يُخضعوا المرأة لما خضعوا له هم أنفسهم . وما يبدو واضحاً للتحليل ، في هذه الحالات ، هو أن المقوِّم الايجابي العدواني للطور القضيبي قد اتخذ طابعاً متضخماً ـ ثم حافظ عليه بعدئذٍ . وبالرغم من أنه لا يمكننا أن نكتشف دوماً علة هذا الاضطراب في المزيج الغريزي ، فإن ما ينجم عن ذلك ، على كل حال ، هو أن هذا الاضطراب يحوِّل تيار الليبيدو في مجرى عدواني ، على حساب العنصر الايروسي .

إذا كان النمو اللاحق يقود الأنا الأعلى للشخص المعني إلى الردّ على هذه العدوانية بمعارضة عنيفة وتامة ، فإن كبت هذه المعارضة قد يؤدي الى كف لمجمل الفعل الجنسي . ومن الناحية السريرية ، غالباً ما نلاحظ أن المصابين بعنَّة من هذا النمط يخفون سبب صعوباتهم بقولهم إنهم يخافون أن يوجعوا نساءهم أثناء الفعل الجنسي . وما لا يعلمونه هو أنهم يخافون لأنهم يشكّون بنوع ما في أنفسهم ، في عدوانيتهم الخاصة .

من المثير أن نلاحظ أن هؤلاء الرجال أنفسهم يرخون العنان لعدوانيتهم لتتجلى في سلوكهم المعنوي تجاه زوجاتهم . فكثيراً ما يعذبونهن بألف طريقة وطريقة ، كما لو أن قسماً من العدوانية المكفوفة تتحرر لديهم بسهولة أكثر في صورة سادية معنوية . وتنضاف التبكيتات والتوبيخات التي ينحون بها على أنفسهم إلى الآلام التي تسببها لهم العنّة وتمد مازوخيتهم بغذاء وفير .

وإلى جانب هذا النمط الخاص ، هنالك الرجل الذي تدفع به الحاجة الى ايلام المرأة أو تخييب أملها إلى أن يضن عليها بكل شيء ، بما فيه تظاهرات ذكورته . ثم يقلب على نفسه هذه العدوانية ، وبعنف مماثل ، ويضن من ثم على نفسه أيضاً بكل شيء ؛ وهكذا يصير عنيناً .

إن واحدة من السمات المشتركة بين مختلف هذه الأنماط من الرجال المصابين بالعنّة تتمثل في أنَّ المكسب الاقتصادي لعصابهم يتسم بواحدة من الصفات البارزة للمازوخية المعنوية : إرضاء الأنا الأعلى . وما هذه سوى استطالة للقلق الطفلي : استئهال حب الوالدين او المحافظة عليه مهما كلف الثمن . وكثيراً ما تعمل مازوخيتهم في خدمة هذه الحاجة .

إن التعبير الأكثر غرابةً عن هذه المازوخية ، والذي ألححنا عليه بقوة في موضع سابق ، يتمثل في العنين الذي ما هو ، من ناحية التكوين النفسي ، سوى جنسي مثلي كامن . وهذه هي حالة الصبي الذي يكون حلَّ عقدة اوديب عن طريق عكسها . فقد أقام ، إزاء ابيه ، على موقف من السلبية وصار عنيناً . فجميع الآلام التي سينزلها بغيره (أو بنفسه) ، وجميع ضربات القدر ، على حد تعبير فرويد ، ستكون بالنسبة اليه بدائل عن العنف الذي كان يتمنى لو أن أباه أنزله به .

يقول فرويد : « إنها مفاجأة غير سارة بالمرة عندما يكشف لنا التحليل عن أن سبب العنّة النفسية الخالصة موقف مازوخي واضح

جداً ، وربما متأصل الجذور منذ فترة طويلة[1] . وهذه بالتأكيد أشكال العنّة الاشد استعصاء ، وشفاؤها يقتضي أطول الوقت . والمشكلة الأساسية التي تثيرها هذه العلاجات هي عينها التي يطرحها وجود المازوخية حيثما التقيناها : تحرير الميول العدوانية الكامنة في المازوخية ، ومن ثم إدماجها المتكيِّف ، برسم استعمالها التناسلي في إتمام الحياة الجنسية .

المازوخية في الجنسية المثلية المذكَّرة :

سبق أن بيَّنّا ، في فصل المازوخية الشهوية ، كيف أنَّ بعض حالات الجنسية المثلية تترافق بتظاهرات مازوخية منحرفة . وفي دراستنا للمازوخية المعنوية ، أمكن لنا أن نلاحظ أن الطبع المازوخي يمكن أن يشتق لا من توجه جنسي مثلي كامن وأن يمتزج به فحسب ، بل أن يجد فيه ايضاً سنداً ليبيدياً .

إذن لن نعود إلى هذا الموضوع في هذا الفصل المكرَّس للعلاقات بين المازوخية المعنوية وبين الجنسية المثلية السافرة . وللوهلة الاولى ، قد تبعث هذه المجاورة بين انحراف وبين عصاب مازوخي على الدهشة . إلا إننا كنا اوضحنا في موضع آخر[2] كيف أن الانحراف الجنسي المثلي البسيط يمكن ان يميَّز عن الجنسية المثلية العصابية ، وأن هذا التمييز ، الذي ثبتت صحته سريرياً وعلاجياً على حدٍ سواء ، أملته طبيعة الأنا الأعلى في كلتا الحالتين . والحال أن الأنا الأعلى الصارم والعقابي في الجنسية المثلية العصابية يستدعي الى الأذهان بطبيعة الحال فكرة

---

(١) فرويد ، « ولد يُضرَب » . المجلة الفرنسية للتحليل النفسي .

(٢) س . ناخت ، باتولوجيا الحياة الحبية PATHOLOGIE DE LA VIE AMOUREUSE ، المجلد ١ ، دينويل ، ١٩٣٧ .

المازوخية . إلا أن هنالك أسباباً أخرى ، فيما يبدو ، تدعو الى الاندهاش من تعايش الجنسية المثلية والمازوخية المعنوية . ومن ذلك أن علةً كثيرة التواتر من العلل القمينة بأن تقود الفرد الى الجنسية المثلية تتمثل بالخوف من الرجل ، صورة الأب ، مما يؤدي الى اللواذ **بالتماهي الأنثوي السلبي مع الأم** ، للإفلات من العدوان المرتهب .

والحال أن هذه الأوالية ذاتها يمكن أن تتأدى ايضاً بالفرد ، مثلما سبق ورأينا ، الى المازوخية ، وبخاصةٍ في صورة طبع مازوخي . وذلك هو اصلاً ، بالنسبة الى فرويد ، النابض الوحيد للمازوخية المعنوية .

إذن ، إن يكن خطر العدوان قد استُبعِد في الحالة الأولى - اي حالة الجنسية المثلية - فلا يكفي ، في الحالة الثانية ، أن نقول إنه لا يُستَبعد ، بل ينبغي أن نضيف أن عدوانية الآخر تمسي مطلوبةً ومنشودةً من قبل مازوخية المريض . وعندئذٍ ، لا نعود نفهم جيداً كيف يمكن لهذا النمط من الجنسية المثلية أن يتقارن مع المازوخية ، وذلك ما دامت واحدتهما تستبعد الاخرى على ما تشير الدلائل .

إلا أن نمط الجنسية المثلية الذي غالباً ما نكون مدعوين إلى ملاحظته من الناحية التحليلية النفسية يكون متشابكاً مع المازوخية المعنوية . لكن هذا التناقض ظاهري ليس إلا : فنادراً ما يكون عصاب من الأعصبة ، أو حتى عرض من الأعراض ، متعيِّنين بعلة رضِّية واحدة . فكلاهما يتعيَّن بعدة عوامل ، يتراكب واحدها مع الآخر لتوكيد التوجه غير السوي ، إما لأن الشروط التي يعيش فيها الطفل تشوِّش مجمل تطوره ، أو لأن مرحلة بعينها من مراحل النمو قد تشوشت ، فوقع بالتالي خلل في انسجام سائر المراحل .

والأمر كذلك بالنسبة إلى الجنسية المثلية ؛ ومن هنا كان تعدّد الانماط التي تتظاهر بها . وهكذا نجد ، مثلاً ، أن هذا النمط الخاص المعقد من المازوخية لا ينتج فقط عن الهرب الى الجنسية المثلية واللواذ

بهـا في مواجهـة أخطار الصـراع الاوديبي . فهذا الهـرب لا يتم دفعةً واحدة ، على الأقل في الحالة التي نحن بصددها هنا . فقـد وُجدَت اولاً لدى الصبي ، الذي سينتهي به الحال إلى الانقلاب الجنسي المثلي ، رغبة واهنة في الكفاح : فبدأ يتمرّد عـلى أبيه . بيـد أنه تخـلى فيما بعـد عن الكفاح ، إما لأسباب داخلية ، أو تحت تأثير ظروف خارجية . لكن بداية التوجه العدواني هذه ستتحول ، حالما سيتم خنقها، إلى مازوخية ، حتى قبل أن يكون التثبت على الجنسية المثلية أتى بحل نهائي للصراعـات . وسوف يتعزز هذا الاستعداد المازوخي فيمابعد عندما سيضع الشخص المعني شـذوذه الجنسي المثلي مـوضع التطبيق . كمـا أن أناه الأعـلى ، بحكمه على هـذا الانقلاب بـالصرامـة ذاتها التي يحكم بهـا على الحب الجنسي الغيري ، يزيد ايضاً من شدة التوجه المازوخي الأول .

تطال هذه التطورات الطبقة النفسيـة المناظـرة للطور الاوديبي ، وبالتالي التناسلي . ولكن صراعات المراحل القبتناسلية ، كما كنا حاولنا أن نثبت ذلك غير مرة ، هي التي توفر للمازوخية نوابضها الأكثر قوةً لأن حالة الإحباط الليبيدي تحرر عندئـذٍ مقداراً كبيـراً من العدوانيـة التي ستقدِّم ، بعد أن تنعكس ، حفزةً أوليّة حاسمة للمازوخية .

فضـلاً عن ذلك ، ان يكن الأب ، في حـالـة الصبي المتجـه نحـو الجنسية المثلية ، هو الذي يُحمَّل ، بسبب تدخلاته ، تبعة ذلك الحيدان للغرائز العدوانية ، فـإن مواجهـة عقدة اوديب ستتم في هـذه الحال في شروط أسوأ بعد . وسيكون اللواذ بالجنسية المثلية أسرع بقدر ما أنه لن يمثل سوى حلقة إضافية في سياق السيرورة المازوخية . وقد نشـرنا في موضع آخر مشاهدةً نموذجية في هذا الخصوص[٣] . وكان موضوعهـا

---

(٣) س . نـاخت ، التحليـل النفسي لـلاعصبـة النفسيـة PSYCHANALYSE DES PSYCHONÉVROSES ، منشورات ف . الكان ، ١٩٣٥ ، ص . ١٤٩ .

شاباً جنسياً مثلياً ينمّ سلوكه العام عن طبع مازوخي : فقد كان يستخدم كل شيء ، بما فيه علاقاته الجنسية المثلية ، برسم الفشل والعقاب والإذلال . وهاكم ، على كل حال ، ما كتبه لنا في أثناء انقطاع عارض لعلاجه :

« إن النقطة المهمة ، والأساسية ، لحالتي كانت بدون أدنى شك المازوخية . فقد سيطرت المازوخية على حياتي النفسية كلها . وقد اهتديت الى أثرها في كل فعل من أفعال وجودي ؛ فإنَّ أقدم ذكرياتي ، منذ نعومة أظفاري ، هي ذكريات مازوخية . وأعتقد أن اصل مازوخيتي يعود إلى اللذة التي كنت أحس بها ، وأنا طفل ، عندما كان أبي يمارس استبداده علي ويتولى تأديبي . كنت من أولئك الذين يُقال عنهم : « إنهم حقاً غير محظوظين » . وبالفعل ، كنت أشعر بلذة حارقة عندما كنت أفشل في الأفعال التي كان يمكن أن تعود علي بإعجاب الآخرين ، أو عندما كنت أخسر ، وأُغلَب على أمري .

« إني اتساءل عما إذا لم يكن الإحساس بالدونية إزاء الآخرين ، وبخاصة إزاء النساء ، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهذه المازوخية . فقد كنت التذّ بهذا الإحساس ، ولكي أغذيه وأحافظ على استمراره ، كنت أتدبر عن قصد أسبابه » .

كان أمكن للتحليل أن يحدد من قبل لدى هذا المريض أصل مازوخيته ، وهو أصل يعود زمنه بالتحديد إلى المرحلة القبتناسلية الشرجية . وفي وقت متأخر نسبياً ـ وهذا ما كان ينم عن تثبيت ، وبالتالي عن اضطراب في نموه منذ ذلك العهد ـ كان يتفق لهذا المريض أن « يبلل سرواله » . وكان أبوه ، كل مرة ، ينزل به عقاباً ، له في المقام الأول صفة إذلالية . بل كان نظم اغنيةً حول هذا الموضوع ، وكان ينشدها مع باقي أولاده ، لكي يزيد في خجل الابن الذي ارتكب غلطةً خطيرةً جداً في نظره . ويذكر المريض أن التأديب جرى يوماً امام الضيوف ، إذ قال

الأب : « إني مضطر إلى تأديبك على مرأى من الناس » .

لقد قضت هذه الأحداث كلها على المريض بتعاسة بالغة ، إلا أنها ولّدت فيه بوجه خاص كراهية رهيبة تجاه أبيه . وهذه الكراهية هي التي كانت مصدر مازوخيته ، ولم يتأتَّ له أن يعيها إلا في اثناء التحليل .

ومما له دلالته أنّ هذه الكراهية ، على شدتها ، كُبِتَت كبتاً عميقاً إلى حدٍ أن الصبي صار ، فيما بعد ، يطلب العقوبات ويستثيرها بعد أن أفلح في إضفاء طابع إيروسي عليها ، وبالتالي في إعطاء مازوخيته الناشئة ركيزةً صلبة ، ليبيدية . ولم يفعل طبع الأب الصارم بله السادي سوى أنه ضاعف المشاهد التي كان من شأنها أن تزيد في تورط الابن في مازوخيته . وانما على هذه الأرضية الممهَّدة على هذا النحو جاء الطور الاوديبي ليسرِّع التطور باتجاه الجنسية المثلية . وقد أفلح التحليل النفسي على اية حال في شفاء هذا المريض . وقد طال أمد العلاج ، إلا أنه تمخّض عن نجاح باهر . فقد استقرت حياته منذ عدة سنوات ، وهو الآن متزوج ، وله طفل ، ويعيش في سعادة .

إن الشروط « الدينامية » لشفائه جديرة بالإشارة اليها، لأنها تثبت أهمية العامل المازوخي في هذا النمط من الجنسية المثلية . وبالفعل ، أُطلقت الميول العدوانية من عقال كبتها بعنف مهول ، وانما بالقدر نفسه شافٍ . فعلى مدى شهور طوال ، ظل المحلِّل موضوع فيضٍ حقيقي من العدوانية ما كان يفصح عن نفسه أصلاً إلا من خلال أحلامٍ أو تخييلات ، كان المريض يشاهد فيها دوماً المحلل مقتولاً ، أوْ مسحوقاً ، أو مذبوحاً .

هنالك نمط آخر من الجنسية المثلية تكون فيه الأم هي الموضوع الرئيسي للصراعات التي تأدت إلى الشذوذ ، كما تكون مركزاً لتفجر العدوانية خلال المرحلتين القبتناسلية والتناسلية . وفيما بعد يُظهِر هؤلاء الجنسيون المثليون الكثير من العدوانية إزاء المراة .

لن نعالج هنا نمط الجنسي المثلي الذي يسلك بالفعل سلوك السادي والذي لفت نونبرغ[٤] الانتباه اليه . بل سنكتفي بدراسة نمط الجنسي المثلي الذي تكون لديه الميول العدوانية مكبوتةً وتبقى كذلك ولا تفصح عن نفسها إلا في صورة معاكسة ، أي في صورةٍ مازوخية .

المازوخية في العصاب الوسواسي[٥] :

إن العصاب الوسواسي هو الحالة العصابية التي تقدم لنا خير الأمثلة على المازوخية : فجميع أوالياتها تفعل هنا فعلها بجلاء ساطع . فما من مريض ـ خلا السوداوي ـ يبدو ، حتى لغير المحلل النفسي من المراقبين ، مستشرساً ضد نفسه وضارياً في قسوته كجلاد لنفسه مثل العصابي الوسواسي .

لقد حددت اليوم النظرية التحليلية النفسية بصورة نهائية وإجماعية العناصر النفسية المنشأ المميِّزة للعصاب الوسواسي :

١ ـ أنا أعلى قاسٍ قسوة سافرة ، قواه السادية تغذيها عدوانية قوية منعكسة ، بوساطته ، على ذات الشخص .

٢ ـ الازدواجية الوجدانية الناجمة عن انفكاك نمطي بين الدوافع الغريزية العدوانية والليبيدية .

٣ ـ إشباع ليبيدي نكوصي ، وبوجه عام عدواني ، مبطَّن بعقابه

---

(٤) هـ . نونبرغ : الجنسية المثلية ، والسحر ، والعدوان ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٣٦ .

(٥) يدرج التصنيف التحليلي النفسي بحقٍ في عداد العصاب الوسواسي حالات لا تتميز بالوسواس (من افكار او افعال) فحسب ، بل تتميز كذلك بصفات خاصة ترافقها دوماً : شك ، خمول (ناجم عن الازدواجية الوجدانية) ، تبكيتات مرضية ، ميول موسومة بقدر او بآخر بـ « الزهدية » (الناجمة عن تضخم الاخلاقية العصابية) .

الذاتي ، هذا العقاب الذي هو بمثابة دلالة حقيقية للعرض الوسواسي (وفائدته الاقتصادية) .

إن كل عنصر من هذه العناصر المازوخية النمطية يمكن أن يوجد في أساس حالات عصابية أخرى . إلا أن العناصر الثلاثة مجتمعةً تميِّز العصاب الوسواسي وتبرر وصفه بأنه كيان مرضي حقيقي . وإن استعراضاً مقتضباً جداً لتطور الأفكار التحليلية النفسية بصدد العصاب الوسواسي سيبيِّن لنا كيف أن اكتشاف واقعة المازوخية سمح بتأويله بكل الجلاء المطلوب. فقد درس فرويد العصاب الوسواسي منذ أول مقالاته : « الأذهنة العصبية الدفاعية » (١٨٩٤) ، « الوساوس والأرهبة » (١٨٩٥) و « ملاحظات تفصيلية حول الأذهنة العصبية الدفاعية » (١٨٩٦) . وقد اثبت في هذه المقالات دور أواليات الدفاع (ABWEHR) واواليات النقل في نشوء الوسواس . فهذا الأخير يمثل ، ما ان يتكوّن ، مخرجاً لكفاح خيض غماره ضد ذكريات أو ممارسات جنسية مني كبتها بالفشل فوجدت في العرض إشباعات بديلة .

لقد أشار فرويد سلفاً ، في هذه المقالات ، الى عنصر العدوانية المكبوتة . إلا أن هذه النظرية ما كانت تفسر العصاب الوسواسي تفسيراً تاماً .

وبالفعل ، لم تكن الأواليات الموصوفة تنطوي ، من جهة اولى ، على اي شيء نوعي ، وذلك بما أنها كانت تصلح للتطبيق ايضاً على أعصبة اخرى ، وعلى وجه التعيين على الأعراض الهستيرية . ومن جهة ثانية ، لم تكن تفسر على الإطلاق الطابع الخاص لاستجابات الجهاز النفسي بكامله ، وهي استجابات تستثيرها الأعراض الوسواسية وتسم بميسمها المميز المظهر النمطي للغاية لهذا العصاب : حالة وجدانية مضنية منسوجة من الخجل ومن تأنيبات الضمير وتبكيتاته . والحال أن هذه الاستجابات الوجدانية لا تشكل العنصر الأكثر تمييزاً للعصاب الوسواسي فحسب ، بل كذلك الأكثر أهميةً ، لأن هذا العنصر هو الذي

يجعل المريض يتألم أعظم الألم ، ولأنه هو الذي يتسبب في تلك الكثرة من الأفعال الغريبة والشاقة على النفس التي تسمى بحق « طقوسية » المريض العصابي الوسواسي والتي لا يلبث وجوده كله أن يكتظ بها على نحو مضحكٍ مبكٍ في آن واحد .

في مقالةٍ بعنوان « الأفعال الاستحواذية والشعائر الدينية » ، ألمَّ فرويد للمرة الأولى ، على حد علمنا ، على ما أعتقد ، بمسألة الروابط التي من المحتمل أن تكون قائمة بين الشعور بالذنب والوسواس(٦) . إلا انه لم يكن من الممكن صياغة نظرية تفسيرية كاملة لأواليات العصاب الوسواسي إلا عندما اصبح كل ما يتصل بعقدة الشعور بالذنب (عقاب ذاتي وأنا اعلى) واضحاً .

إن هذه النظرية تجعل من العصاب الوسواسي عصاباً مازوخياً ـ سادياً في المقام الاول . فهي تظهر لنا أن حياة العصابي الوسواسي ، « اقتصاده الوجداني » ، تسيطر عليها عدوانيةٌ جامحة منقلبة دواماً عليه هو بالذات عن طريق أنا أعلى يستمد دوره العقابي وقسوته غذاءهما من ذلك الفيض من العدوانية على وجه التعيين . وعلى هذا ، فإن استجابات الأنا الأعلى حيال الدوافع الغريزية العدوانية ، التي تجد في الأعراض الاستحواذية شبه إشباع بديل ، هي التي تفسر المظهرَ الثاني لتلك الدراما المستبطنة التي يمثلها العصاب : أفعال استعطافية ، طقوس الإلغاء ، الخ .

إنَّ تدخل الأنا الأعلى هو الذي يميِّز ايضاً الرهاب من الوسواس ، وهو تمييز تخطيء التصنيفات التقليدية للطب العقلي عندما لا تأخذ به .

---

(٦) فرويد : **الأفعال الاستحواذية والشعائر الدينية** ، صدر للمرة الأولى في مجلة علم النفس الديني سنة ١٩٠٧ . **مجموعة بحوث قصيرة حول نظرية العصاب** ، م ٢ (انظر الترجمة العربية للمقال في **ابليس في التحليل النفسي** ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٤٨ ـ ٥٩ . « م ») .

والرهاب الذي يمثل ، هو الآخر ، عودة دافع غريزي لم يكبت كبتاً كاملاً فتلبس شكل فكرة رهابية ، لا يستتبع إلا استجابة خوف من قبل الشخص المعني .

مثالٌ شائع ونمطي : إن أماً مصابة برهاب قتل ابنها تفكر على النحو التالي : إني أخاف أن أقتل ابني ؛ إلا أنها لن تتصرف أبداً ، ما دامت رهابية ، كما لو أنها **فعلت شيئاً ما** لتقتل هذا الطفل .

وبالمقابل ، إن المرأة المصابة بالعصاب الوسواسي ستفكر على النحو التالي : كان من الممكن أن أقتل ابني لو فعلت هذا أو ذاك ؛ وستتصرف بالتالي تحت تأثير الأنا الأعلى كما لو أنها ارتكبت فعلاً تلك الجريمة ، وستصدر عنها طائفة بكاملها من الأفعال او الأفكار الإلغائية أو الاستعطافية ، لكي تمحو تلك الجناية او لتكفِّر عنها . ومن المفيد أن نشير إلى أنه من المطرد أن نلتقي ، في التحليل ، وراء فكرة قتل الابن هذه المتواترة نسبياً في حالات الوسواس لدى النساء ، دافعاً غريزياً طفلياً موجهاً في الأصل ضد الأب ، بصفة رغبة لاشعورية في خصائه . والرغبة المُعبَّر عنها في وسواس قتل الابن تعبر عن رغبة نكوصية ومزدوجة وجدانياً إزاء العضو الذكوري (الذي يرمز اليه هذا الطفل) . وقد نشر ش . أوديبه دراسةً مثيرة جداً للاهتمام حول تحليل نفسي لواحدة من حالات وسواس قتل الابن هذه[7] .

وقد يجوز لنا القول إن الأنا الأعلى للعصابي الوسواسي لا ينخدع بالتركيبة العصابية وإنه يقدِّر الدافع الغريزي العدواني الذي يرمز اليه العرض بحق قدره . وبالتالي سينصب نفسه قاضياً أمام جريمة . وقد كنا قدمنا منذ بضع سنوات ، في أثناء درس سريري ألقيناه مع لوفنشتاين تحت رعاية البروفسور كلود حول « نتائج التحليل النفسي في الوساوس » ، مريضةً كانت قصتها نمطية من هذه الناحية .

---

(٧) ش . اوديبه ، العصاب الوسواسي ، في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي ، ١٩٢٧ ، المجلد ١ .

عاشت هذه المريضة ، على مدى سنين طويلة وصعبة جداً سبقت العلاج ، في ظل فكرة استحواذية كانت تصور لها أنها مجرمـة . فكانت تعتبر نفسها مذنبةً بموت أي شخص يمتّ اليها بصلة قريبة أو بعيدة ، وتعزو موته الى بادرة خرقاء بـدرت عنها أو الى إهمـال من جانبهـا ، او كذلك إلى عدوى مرضٍ مميت كانت هي ناقلتها . وبناءً على ذلك ، قلّصت وجودها إلى أدنى حدٍ من النشاط لكي تتجنب هذه « المجازفات » . إلا أن الوجود مهما تقلّص يبقى يتطلب بعض الأفعال الضرورية . وكان أبسط هذه الأفعال يصبح بالنسبة اليها مصدر عذاب وشقاء ، لأنه كان عليها أن تبحث حالاً عن أدلةٍ على أن هذا الفعل الذي قامت به لم يؤدِ إلى اي نتيجة مشؤومة بالنسبة الى أي شخص كان . وبما أنها ما كانت تتوصل قط ، بطبيعة الحال ، إلى إيجاد حجةٍ قاطعة قمينة بأن تثبت بـراءتها ، فإنها كانت تخلص دوماً الى الاستنتاج بأنها مجرمة !

كان إحساس شعوري بالذنب يجعل حيـاة هذه المـريضة مؤلمـة للغاية ، كما كان يوجهها نحو زهد حقيقي . وعلاوة على ذلك ، عندما رأت أنَّ هذا لا يكفي ليوفر لها تهدئة تكفيرية ، لجأت الى جميع ضروب إماتة الجسـد لكي تشبع إحسـاسـها الشعـوري بالـذنب . واخيـراً ، كـانت تجـاهد ، عن طـريق مجموعـة من الأفعـال الاستحـواذيـة التشفعيـة والاستعطافية ، لكي تنال الغفران عـلى « جرائمهـا » ، إذ كانت هنـالك بالفعل جريمة بالنسبة الى أناها الأعلى كما سنرى لاحقاً . وقد استطاع التحليل النفسي لهذه المريضة أن يستثير لديها سلسلة متصلة الحلقات من الخبرات المؤلمة ، مكرراً بشيء من المشابهة مراحل رضيّة مختلفة من تطورها النفسي كانت تأدّت جميعها إلى إحباطات ليبيدية ترتب عليهـا ، كالمعتاد ، تحرر دوافع غريزية عدوانية عاتية .

لقد حدثت الرضة الأولى في الثالثة من عمرها ، لـدى ميلاد أخت لها ، إذ اتخذ ردّها على هذا الميلاد شكـل أعراض عصـابية : فـالطفلة الفرحة والمحبة التي كانتها الى ذلك الحين صارت حزينةً ، وانفصلت عن

أمها وحردت منها ، وباتت تمتنع بكل الوسائل الممكنة عن الأكل ، الخ .

تلك كانت هي خيبتها الأولى : فالإحباط الذي شعرت به القت التبعة فيه على أمها ، فحقدت عليها ، ولكنها سرعان ما كبتت هذا الحقد ، فلم يعد يجد من تعبير خارجي عنه سوى في الاستجابات المشار اليها آنفاً .

هكذا تحدد التوجه الأول للحفزات العدوانية إزاء الأم . وفيما بعد ، راحت هذه الكراهية تنقلب أكثر فأكثر عليها هي بالذات ، لكي تجعل منها في أول الأمر فتاةً حية الضمير ومعانية من ضروب الكف ، ومن ثم عصابيةً وسواسية حقيقية .

وجاءت الواقعة الرضيّة الثانية بعد ثمانية عشر شهراً لتتراكب مع الأولى : فقد هجر الأب أسرته بصورة نهائية . وهكذا انقطعت السبل امام التوجه الايجابي نحو الأب ، وهو التوجه الذي كان صعباً في الأصل بسبب التثبيت الوجداني الازدواجي على الأم ، بعد أن فَقَدَ موضوعه . وعلى الأثر حمَّلت الطفلة أمها ، عن خطأ او صواب ، مسؤولية هذا الهجران الجديد ، هذا الإحباط الثاني ، فكان أن تضاعف كرهها لها .

هكذا بقيت البنت الصغيرة وحيدةً في مواجهة أمٍ كان لها بدورها أسبابها لتكون مريرة النفس . وبالفعل كانت هذه الأم تضطهدها بقدر او بآخر ، وتعيق على كل حال نموها وتطورها . ومع ذلك أفلحت في أن تجد لها خطيباً وهي في السابعة عشرة من عمرها . ولكن هنا ايضاً تدخلت الأم لتبعد الخطيب . فنجم عن ذلك حالة إحباط ثالثة ألقِيَت فيه المسؤولية على كاهل الأم ايضاً .

في ذلك الوقت تحديداً ظهرت الوساوس الأولى . وقد أظهر تحليلها أنها لم تكن سوى تعبير يكاد لا يكون منكرًّا عن العدوانية (وعلى وجه التعيين عن الرغبة في القتل) المستشعرة ، في مختلف الأحداث المذكورة ، ضد الأم . ولنذكّر بأن الفكرة الاستحواذية عند هذه المريضة يمكن تلخيصها على النحو التالي : « لقد قتلت او سأقتل شخصاً ما ،

فأنا مذنبة » . وما كانت هـذه الغفليـة تخفي هـوية المـوضوع الحقيقي المستهـدف : الأم . ولهذا السبب عنـدما كـانت المريضـة تؤكـد أنهـا مجرمة ، كان لهذا الاتهام ، بالنسبة إلى **اناها الأعلى** ، ما يبرره .

إن قصة هذا العصاب تظهر لنا جيداً انه لأجل طويل من الزمن ، ووصولاً إلى يوم فسخ الخطوبـة الذي كـان بمثابـة النقطة التي جعلت الكيـل يطفح ، أمكن رغم كـل شيء قمـع العـدوانيـة ضـد الأم ـ وهي العدوانية التي ما كانت أفلحت قط في كبتها كبتاً كاملاً ـ فأخذ هذا القمع صـورة طبع مـازوخي : فقد كـانت الفتاة حـزينةً ، منـزوية ، ممحـوة الشخصية ، تعاني من أوجاع معنوية ، وتمارس ديانتها بتفـانٍ مسرف تعويضاً منها عن يقينها المؤلم بأنها في حالة دائمة من الخطيئة .

لم يكن من الممكن للتفجـير الأخير للعـدوانية أن يبقى محصـوراً ضمن نطاق هذا الارتداد المازوخي . ويبدو أن القوى الكابتة غلبت على أمرها ، فتركت قسماً من العدوانية يسلك طريق التعبير الملتوي في صورة وسواس : أن تقتل شخصاً ما (أي أن تقضي على أمها) . وهذا ما يثبت لنا أن الوسواس يمثل **محولة تظهير** ، وبالتالي محاولة إشباع عدواني ؛ ومن هنا كانت الاستجابة العقابية للأنا الأعلى الذي يتصرف كما لو كان الأمر أمر عدوانٍ حقيقي . وقد رأينا ، في حالة هذه المريضة ، كيف كان هـذا الأنا الأعـلى يفرض مـوقفَ شعورٍ جـارف بالـذنب مـع لازمتـه : الممارسات التكفيرية .

إن قصة هذا العصاب على نحو ما وصفنـاه تبدو بسيطـة جداً ، ولكن كان لا بد ، كيما نعيد بناءها ، وكيما نقدم البرهان على صحة مـا لخصناه في بضعة اسطر قليلة ، وعلى الأخص كيما نجعل المريضة تتمثل ذلك كله وتستوعبه ، من مجهود تحليلي دام أكثر من سنتين .

لقد رأينا ، في اثناء العلاج ، بَكَرة خيوط العصاب وهي تتفكك أمام أنظارنا . وطرداً مع تحليل المازوخيـة ، كان الأنـا الأعلى يكتسب بعض المرونة ، فإذا بالعدوانية تتحوَّل عن شخص الفتاة لتتجه نحو الخارج ،

ولم يحدث ذلك بدون أن تصحبه بعض تعقيدات عابرة .

على هذا النحو فإن تلك المريضة الخاضعة والممحوة الشخصية ، والمسحوقة بإحساسها بالذنب ، صارت ، خلال فترة ما من تحليلها ، غضوباً ، مستبدةً ، وعدوانيةً تجاه أختها إلى حدٍ أوجب أن تقيم في المستشفى لفترةٍ ما. وبعد ذلك رأينا هذه العدوانية المحررة تسلك طريقاً أكثر بدائية ، بل طفلياً ؛ فعندما لم تعد المريضة محض فتاة خبيثة وشريرة ، راحت تراودها نوبات شراهة حقيقية ، فتلتهم كل ما تجده في خزنة الطعام[٨] . وليس من الصعب علينا أن نرى في هذه الاستجابة ظهوراً متجدداً لساديةٍ فموية موصوفة ، والقرينة على ذلك أن المؤن التي كانت تلتهمها على هذا النحو كانت لا تُكتسب إلا بعرق جبين تلك الأخت نفسها التي كانت هي الضحية المباشرة لتلك الاستجابات العدوانية .

وإنما بعد انقضاء هاتين المرحلتين التصريفيتين طرأ بعض التحسن على الأعراض الاستحواذية واختفت الاستجابات التكفيرية . لكن النتيجة الأكثر وضوحاً هي اكتشاف المريضة لحياة الحب . فقد عقدت صلة غرامية موفقة ، وهذا ما يثبت حدوث إعادة تنظيم ليبيدي كان من شأنه أن صهر الحفزات العدوانية والحاجات الإيروسية في « مزيج » سوي ، موجّه نحو العالم الموضوعاني الواقعي .

لقد اخترنا هذه الحالة لأن قصتها البسيطة نسبيا تظهر الأهمية التي تتم بها ، في صورة وسواس ، عودة العدوان الذي لم يتم كبته كبتاً كاملاً ، والاستجابات العقابية الذاتية التي يستتبعها . وبالتالي فإن هذه الحالة تؤكد على البنية الدينامية ، المازوخية ـ السادية أساساً ، للعصاب الوسواسي ، كما يثبت ذلك المضمون العدواني للعرض الوسواسي ، والاستجابات العقابية التي يحدّدها ، والمتطلبات البالغة الصرامة للأنا الأعلى عند العصابي الوسواسي ، ذلك الأنا الأعلى

(٨) علينا أن نتذكّر هنا أنَّ تلك التي ستصبح مريضتنا امتنعت بعد الخيبة الأولى ـ ولادة اختها ـ عن الاكل لمدةٍ ما .

المشحون بعدوانية منعكسة على ذات الشخص .

وتكون هذه السيرورة أكثر فعالية بقدر ما تكون الاضطرابات قد وسمت بميسمها الطور السادي الشرجي ، وهذا هو واقع الحال في أكثر الأحيان . وفضلاً عن ذلك ، فإن بعض السمات الطبعية لدى الشخص المصاب بالعصاب الوسواسي تحمل بوضوح ذلك الميسم .

المازوخية في السويداء :

لئن درسنا هنا بمزيد من التمعن إسهام المازوخية في السويداء ، فما ذلك لأنَّ هذه السويداء هي الذهان الوحيد الذي يكون موسوماً بميسم المازوخية . بل على العكس من ذلك : فالقوى المازوخية ـ السادية تتغلغل باندفاع في كل ذهان . ولكن كما كان اختيارنا وقع بين جملة الأعصبة على العصاب الوسواسي باعتباره مازوخياً ـ سادياً نمطياً ، كذلك فإن السويداء في مجموعة الأذهنة تبدو موسومة اكثر من غيرها بميسم القوى الغريزية العدوانية ، الموجهة مباشرةً ضد ذات الشخص .

نحن نعرف مدى صعوبة الاستكشاف التحليلي النفسي للأذهنة . وللوهلة الأولى يدهش المحلل النفسي إذ يكتشف بسهولة لدى المريض السيكوباتي سيرورات سيكولوجية يتجشم مشقة فائقة في توضيحها لدى العصابي . ومردّ ذلك إلى بنية الجهاز النفسي بالذات للمريض السيكوباتي . فأناه الضعيف ، الذي لم ينمُ بما فيه الكفاية ، يعارض بوهن غرائز اللاشعور البدائي (« الهذا ») التي تعبر عن نفسها ، نتيجة لذلك ، تعبيراً مباشراً أكثر ، بدون أن تمر بمختلف أواليات الدفاع التي يستخدمها أنا العصابي الأكثر صلابةً . بيد أنَّ صعوبة ـ بل احياناً استحالة ـ تطبيق التقنية التحليلية النفسية ترجع الى بنية الشخصية الذهانية بالذات .

لقد كان فرويد اقام من البداية معارضةً بين الأعصبة ـ وهي

ظاهرات تحويل مرضية نفسية[٩] ـ وبين الأذهنة ، وعلى وجه التعيين الأذهنة الفصامية ـ وهي ظاهرات مرضية نفسية نرجسية .

مؤدى القول أن توظيف الليبيدو في العالم الموضوعاني يكون ، في الأذهنة ، طفيفاً ، بل منعدماً احياناً ، ومن هنا كانت استحالة حدوث تحويل ، وهو العامل الرئيسي في التقنية التحليلية النفسية . ومن ثم فإن ما كانت تفتقر اليه المباحث التحليلية النفسية في الأذهنة في كثرة من الأحيان هو سياق ذلك الاستكشاف الطويل والجاد الذي يتلبس ، بحكم إمكانيات المقابلة والمقارنة ، قيمةً تجريبية . من هنا كان الطابع النظري الصرف في كثير من الأحيان للأبحاث المنشورة في الماضي عن الأذهنة .

بيد انه تم اليوم تجاوز هذا الطور من البحث التحليلي النفسي الى حد بعيد ، وذلك بفضل الأعمال التي بدأها فيدرن[١٠] ، ثم تابعها كنايت[١١] وروزن[١٢] ، ثم تعمق فيها أكثر أيضاً ف . فروم ـ رايخمان[١٣] ، وهي أعمال بدأت عام ١٩٤٧ وتتابعت مثمرةً على مدى عدة سنوات . أما في فرنسا ، فقد استأنف راكامييه[١٤] هذه المباحث ذاتها وتابعها ، ونحن نعلم الآن أنه من الممكن أن تقوم علاقة تحويلية بين مريض ذهاني وطبيبه . وعلى هذا ، يمكن للذهانيين أحياناً أن يُعالَجوا بنجاح من قبل محللين نفسيين لهم إلمام وخبرة ببعض التقنيات المكيَّفة .

---

(٩) يعني فرويد هنا بكلمة تحويل TRANSFERT نقلاً DÉPLACEMENT للتوظيفات الليبيدية والعدوانية .

(١٠) فيدرن ، تحليل الذهانيين ، المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٣٤ .

(١١) كنايت ، **التحليل النفسي لمرضى المستشفيات** ، نشرية مستشفى مينينغر ، ١٩٣٧ .

(١٢) روزن ، **معالجة الذهان الفصامي** ، فصلية التحليل النفسي ، ١٩٤٧ .

(١٣) ف . فروم ـ رايخمان ، **التحويل في الفصام** ، فصلية التحليل النفسي ، ١٩٤٧ .

(١٤) ب . س . راكامييه ، في **التحليل النفسي اليوم** LA PSYCHANALYSE AUJOURD'HUI ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٥٦ .

كانت السويداء ، علاوةً على صفاتها المباطنة المختلفة بعض الشيء ، صالحةً للتقصي التحليلي النفسي بفعل نموها الدوري الذي تتخلله فترات « راحة » يفقد خلالها السوداوي السابق السمات الذهانية التي تتلبسها شخصيته في أثناء النوبات .

من جهة أخرى ، ما كان لأعراض السويداء إلا أن تسترعي انتباه المحللين النفسيين وتستوقفه . فالسوداوي يتبدى ، دفعة واحدة ، من خلال أقواله ، أسير « صراع ضميري » موسوم بميسم الألم المعنوي ، والتكبيتاتِ التي يرهق نفسه بها ، والاتهاماتِ التي يكيلها لنفسه ، والعقوبات القاسية التي يطلبها ، والصيام الذي يلزم نفسه به ، بل وفي بعض الأحيان الانتحار الذي يأتي بمثابة تتويج لتدميره لذاته . فكل شيء متمحور لديه حول تدمير الذات والعدوانية : فهو في حالة إفلاس ، وكذلك اسرته ، بل إنَّ العالم برمته يبدو وكأنه يغور في هاوية الدمار والهلاك .

إنَّ المحلل النفسي يتعرَّف بلا مشقة في هذه الأعراض تفجراً حقيقياً للعدوانية الموجهة في آن واحد ضد العالم الخارجي وضد الذات في صورة مازوخية . ونحن مدينون لكارل ابراهام بأولى الأبحاث حول الحالات السوداوية[١٥] . فقد أظهر فيها أهمية دور الازدواجية الوجدانية إزاء الموضوع ثم إزاء الذات نفسها ، وأهمية دور السادية التي تغدو مازوخيةً بانقلابها على الذات ، وأخيراً أهمية دور التثبيتات القبتناسلية ، وبخاصة الفموية . وتفسر هذه الأخيرة على وجه التعيين رهاب المناظر الطبيعية لدى السوداويين . ومؤخراً ، قام باحثون آخرون بدراسة

(١٥) ك . ابراهام ، مقدمات لاستكشاف الجنون الهوسي ـ الاكتئابي والحالات القريبة منه ولمعالجتها بالتحليل النفسي ، في المجلة المركزية للتحليل النفسي ، م ٢ ، ١٩١١ ؛ وكذلك استكشاف المرحلة الأبكر من المراحل القبتناسلية لنمو الليبيدو ، في المجلة المركزية للتحليل النفسي ، م ٤ ، ١٩١٦ .

تحليلية نفسية للسويداء[١٦] .

غير أن البحث الأساسي حول هذه المسألة يبقى دائماً بحث فرويد ذاته : « الحداد والسويداء »[١٧] . ففي هذه المقالة ، يعود فرويد الى العناصر التي كشف عنها النقاب ابراهام : الازدواجية الوجدانية ، ارتداد العدوانية ضد الذات ، والتثبيت الفموي . وعلى أساس هذه العناصر المجتمعة شاد نظريةً في السويداء تبقى الى اليوم النظرية التي تسمح لنا بأحسن فهم لهذا المرض الغريب والمؤلم . فهو يقيم بادىء ذي بدء مقاربةً بين حالة الحداد وحالة السويداء . فحالة الحداد السيكولوجية هي بمثابة ترجمة لانسحاب الليبيدو الذي ، بعد أن يفقد موضوعه ، ينطوي على ذاته لفترة من الزمن ـ فترة الحداد ـ في داخل الأنا ، لكي يتوظف من جديد فيما بعد عن طريق انتقاله إلى موضوع جديد . ويسلك السوداوي في بداية النوبة مسلك من يخضع لسيرورة الحداد هذه ذاتها .

فضلاً عن ذلك ، قد يتفق أحياناً ان يتسبب الفقدان الحقيقي لشخص عزيز في نشوء حالة سوداوية . ولكن في أغلب الأحيان لا يكون فقدان الموضوع لدى السوداوي فقداناً للموضوع ذاته ،وانما فقط فقدان

---

(١٦) رادو ، مشكلة السويداء ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٢٧ .
ـ فنيخل ، الانحرافات والاذهنة والاضطرابات الطبيعية ، في المجلة الدولية للتحليل النففسي ، ١٩٣١ .
ـ دوتش ، حول سيكولوجيا الحالات الهوسية ـ الاكتئابية ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٣٣ .
ـ جيرو ، بنية الاكتئاب ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٣٦ .
ـ م . كلاين ، حول المنشا النفسي للحالة الهوسية ـ الاكتئابية ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، ١٩٢٧ .
ـ لاغاش ، الحداد ، السويداء ، الاكتئاب ، محاضرة غير منشورة ، ١٩٣٧ .

(١٧) انظر الترجمة العربية في علم ما وراء النفس ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٣ .

للموضوع بصفته موضوع حب ؛ وذلك كنتيجةٍ ، مثلاً ، لهجر او لخيبةٍ لا تعوَّض . بيد أن السوداوي بوجه عام ، بالرغم من أنه لا يكوِّن فَقَدَ شيئاً في الواقع ، يسلك مسلك من فَقَدَ شيئاً أساسياً . يقول فرويد : « إنه يعرف أنه فَقَدَ شيئاً ، لكنه لا يعرف ما هو هذا الشيء » . فالفقدان في هذه الحالة لاشعوري محض . ولكن سرعان ما سيسلك السوداوي ، بعد هذا الفقدان ، سلوكاً في منتهى الغرابة . فيبدأ بالاشتكاء من نفسه ، وبكلماتٍ تدل على أن الفقدان الحقيقي هو فقدان أناه : « لم أعد أعرف شيئاً ، لم أعد قادراً على أي شيء ، لا أستطيع شيئاً ، ولا أحب شيئاً ، الخ » .

وعلى هذا فإن ما يتضح حتى الآن هو أنه يستشعر فقدان الموضوع لديه على أنه فقدان لنفسه،وسرعان ما سيدهشنا سلوكه اكثر بعد ؛ فسوف نسمعه يعترف بحقارته وخسته ، وبخبثه وبأسوأ عيوبه ، وقد يتهم نفسه بجرائم فظيعة ، ويطالب بأقسى الأحكام وأشدّها صرامةً ، لا بل بعقوبة الإعدام ، ويصرح في نهاية المطاف بأنه يريد أن يدمِّر ذاته .

علينا ان نرى في هذه الشكاوى والاتهامات عدوانيةً جامحة منقلبة ضد الذات . وقد اشار ابراهام ، في أول مقالاته ، الى هذه الواقعة ، معتبراً اياها ظاهرةً من ظاهرات المازوخية . ولكن هنا يتدخل تأويل فرويد ، وهو بمثابة اكتشاف حقيقي ، لينير سيكولوجيا السوداوي كلها : **إن المريض يتوحَّد مع الموضوع المفقود** . فالشكاوى ، ونكران الذات ، والمآخذ ، والاتهامات ، والقساوة الحقيقية التي يعامل بها نفسه ، والأذى الذي يلحقه بنفسه او الذي يريد إنزاله بنفسه (الانتحار) ، كل هذا يكون موجهاً الى الموضوع المفقود . ولا شيء يسيء السوداوي كأن يحاول أحدهم أن يناقضه حينما يتهم نفسه بأبشع القبائح ، او أن يمنعه من إيذاء نفسه . ذلك أنه يستشعر حاجةً ماسةً الى تفريغ هذه العدوانية ، في فعل انتقام حقيقي ضد موضوع الحب

المفقود : إن عودة العدوانية هذه تنجم لديه عن **تماهي الموضوع مع الذات** .

إن هذا التماهي هو الذي يفسر الضراوة الحقيقية التي يعامل بها السوداوي ذاته . وهو يجد فيه أيضاً وسيلةً لكي يحل نفسه محل الموضوع للحفاظ عليه في ذاته .

إن هذا التماهي القوي يفترض في البداية اختياراً موضوعانياً نرجسياً[١٨] ، وهذا ما يفسر لماذا يستشعر السوداوي الفقدان الواقعي او الذاتي للموضوع على أنه فقدان للذات .

إلا أن هذا التوظيف النرجسي لن يكون كافياً بحد ذاته لتحفيز الهذيان السوداوي . فهذا التوظيف يُلاحَظ ايضاً في حالات أخرى لا تتأدى إلى السويداء . ولو توقف السوداوي ، في النكوص ، عند تماهٍ نرجسي ما ، لما أصيب بالسويداء . إلا أنه يمضي الى أبعد من ذلك في نكوصه ، وصولاً إلى الطور الأولي الأولي السادي ـ الفموي . ومن ثم فإن تماهيه مع الموضوع يتم بصورة لاشعورية ووفق النمط الأثري (الاركيولوجي) للاستدماج الفموي الافتراسي[١٩]. وقد رأينا في دراستنا العامة للمازوخية كيف أن العدوانية الأولية التي تحررت من جراء إحباط ما ، تتجه ، في تلك المرحلة من النمو ، نحو الذات ، وذلك بقوة وعنف يتناسبان طرداً مع مدى اتحاد الذات مع الموضوع المُستدمَج . وقد أكد جميع الباحثين الذين سنحت لهم فرصة تحليل السوداويين على وجود هذا المقوِّم الفموي السادي العظيم الشأن الذي كان أول من نبه الى وجوده لدى السوداوي ابراهام وفرويد ، ومن بعدهما رادو[٢٠] ،

---

(١٨) النرجسية الثانوية .

(١٩) او الآدمي CANNIBALE : نسبة الى الآدمية ، اي اكل لحم البشر . « م » .

(٢٠) يرى هذا الباحث في القساوة التي يعامل بها السوداوي ذاته عقاباً قميناً بان يجعله يفوز مجدداً بحب الوالدين اللذين يمثلهما الانا الاعلى . فكأن الانا يريد ان يقول للانا الاعلى : =

شيلدر ، فنيخل ، ولاغاش ، الخ . وفضلاً عن ذلك ، تظهر لنا الملاحظة المعتادة أن السوداوي يستسلم لاشعورياً ، في المضمون «الظاهر» لهذاء اتهام الذات وفي تخييلاته ، لطقوس افتراسية وآدمية بكل ما في الكلمة من معنى .

باختصار ، يحدث لدى السوداوي ما يلي :

١ ـ توظيف نرجسي للموضوع .

٢ ـ من جراء ذلك يستشعر السوداوي فقدان[٢١] الموضوع على أنه فقدان مؤلم للذات .

٣ ـ يردّ على هذا الفقدان بتماهيه مع الموضوع لكي يحافظ عليه في داخل ذاته .

٤ ـ لكن نظراً الى التثبيتات القبتناسلية الفموية القوية التي تكون وسمت بميسمها المريض السوداوي ، فإن ذلك التماهي يتم بصورةٍ نكوصية وفق النمط الفموي لاستدماج الموضوع .

٥ ـ في هذا الطور الفموي يكون المقوِّم العدواني على درجة عالية من الشدة ؛ ومن ثم يكون النكوص لدى السوداوي فموياً ـ سادياً .

إن هذه النقطة الأخيرة بالغة الأهمية ، لا من وجهة نظر المازوخية التي نأخذ بها هنا فحسب ، بل كذلك لأنها تعطي مفتاح كبرى المشكلات التي تطرحها السويداء : مشكلة الغلو في تدمير الذات إلى حد الانتحار .

إن النكوص الخاص الذي يميِّز السويداء يحرر العدوانية الأولية الفموية النوعية . فهذه العدوانية كانت ، في السابق ، مقنّعة ومكبوحة من قبل الازدواجية الوجدانية إزاء الموضوع ، تلك الازدواجية التي تبرز بروزاً قوياً لدى السوداوي . وحالة الإحباط التي يولِّدها فقدان الموضوع

ـ « انظر كم اعاقب نفسي بقساوة لكي استأهل حبك ! احببني ! » س . رادو ، **مشكلة السويداء** .

(٢١) هذا الفقدان يمكن ان يكون واقعياً ، أو رمزياً ، او في غالب الأحيان ذاتياً . ولا يكون الفقدان في هذه الحالة الأخيرة سوى نتيجة الحاجة الى تكرار موقفٍ طفلي .

هي علامة على انفلات او ثَوَران حقيقي للعدوانية يستهدف الموضوع ، ولكن بما ان هذا الأخير يتوحد مع الذات ، فإذا الذات هي التي تكابد من العدوانية بقوة وبلا هوادة .

إن هذه العدوانية الموجهة ضد الذات المغزوة من قبل الموضوع هي اللون الغالب في اللوحة السريرية للسويداء : **تدمير الذات** . ولكن هل يشكل تدمير الذات هذا سيرورةً مازوخية ؟ علينا أن نعطي جواباً سلبياً إذا كنا نتشبث بدقة بتصور المازوخية الذي دافعنا عنه على امتداد صفحات هذا البحث ، والذي يقول إن المازوخية تنجم عن عودة ، عن **انعكاس على الذات نفسها** ، للعدوانية الموجهة في الأصل ضد الموضوع . فهل لهذه العودة وجود حقيقي لدى السوداوي ؟ كلا ، وذلك لأنه إذا كانتَ العدوانية تستهدف الموضوع قصدياً ، فإنها في الواقع موجهة ضد الذات ، إذ انها من خلال **الذات** تصل لاشعورياً إلى الموضوع .

إن تداخل الذات مع الموضوع يتخذ لدى السوداوي طابعاً يتجاوز بكثير طابع التماهي المعتاد . فهو **علامة على السيرورة الذهانية** . فليست الذات هي التي تتخذ هنا بقدر أو بآخر الموضوع مثالاً او نموذجاً للتماهي معه : وإنما الموضوع هو الذي **يغزو** الذات . وهذا ما يثبت لنا جيداً كم تكون علاقات السوداوي بالعالم الموضوعاني مضطربة من جراء السيرورة الذهانية . فعندما يشنّ السوداوي حرباً ضارية على ذاته ، فما ذلك لأنه لم يستطع الوصول إلى الموضوع ، أو لأنه يلوم نفسه لأنه أراد أن يفعل ذلك ، أو لأنه فعل ذلك (كالعصابي الوسواسي مثلاً) ، بل فعلاً وصدقاً لأنه عندما يضرب نفسه يضرب لاشعورياً الموضوع .

لقد أراد بعضهم أن يقيم مقاربةً بين العصاب الوسواسي والسويداء . وبالفعل ، نلحظ في كلتا الحالتين وجود تثبيتات سادية فموية وسادية شرجية قوية . كما نلحظ أحياناً ، من الناحية السريرية ، وجود

طور وسواسي في بداية النوبة السوداوية . وقد أمكن في بعض الحالات أن يُلاحظ ، خلال فترات الراحة ، وجود طبع وسواسي حقيقي لدى المهووس الاكتئابي . بل أمكن ، خلال تحليل نفسي لشخص سوداوي ، ملاحظة ظهور مرحلة وسواسية قصيرة(٢٢) . بيد أنه توجد بين العصاب الوسواسي والسويداء اختلافات لا في درجة السيرورة الواحدة فحسب ، بل كذلك اختلافات بنيانية وديناميةا .

قلنا : اختلافات بنيانية ؛ وذلك لأنَّ أنا السوداوي أنا ذهاني ، اي أنه لم ينمُ بما فيه الكفاية : فهو ضعيف ، وعاجز عن اللجوء الى أواليات الدفاع المعتادة لدى العصابي الوسواسي ؛ إنه يستسلم لغزو العدوانية بدون أن يدافع عن نفسه . وعندما يدافع هذا الأنا عن نفسه ، لا يعود سوداوياً ، وتكون أوالية الدفاع المستخدمة عندئذٍ هي اوالية الإسقاط . وذلك هو واقع الحال في العديد من حالات أهذية الاضطهاد المذهبة التي تبدأ بأعراض سوداوية .

لقد لاحظت هـ . دوتش أنَّ السوداوي يستغرق خلال العلاج التحليلي النفسي في عملية إسقاط بارانويائي للقوى العدوانية ، لكي يتّقي شر تدمير ذاته . وقد سنحت لنا الفرصة لأن نتابع لعدة سنوات معالجة مريضة مصابة بنوبةٍ سوداوية نموذجية انغمست ، بعد محاولة علاج تحليلي نفسي ، في هذاء بارانويائي . وكان من الممكن أن نلاحظ ، لدى هذه المريضة ، التأثير الواضح - والمحرِّر بالنسبة إلى الأنا - لاسقاط العدوانية في صورة هذاء اضطهاد . فما ان بدأ هذاؤها الاضطهادي وتحررت ، من جراء ذلك ، من عدوانيتها المنصبّة عليها هي نفسها ، حتى عادت لا تشكو من شيء ، وصارت فرحة ، ومغتبطة كل الاغتباط ، على ما كان يبدو ، باتهام أولئك المضطهِدين المزعومين بدلاً من أن تتهم نفسها(٢٣) .

---

(٢٢) جيرو - لاغاش .

(٢٣) س . ناخت ، **البنية اللاشعورية للأذهنة** ، في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي ، ١٩٣٣ .

هاكم ما يتعلق بالفارق الدينامي : إن العدوانية التي يخضـع لها أنا السوداوي خضوعاً مباشراً تختلف عن العـدوانية التي يـرهق الأنا الأعلى بها العصابي الوسواسي : فالأولى عدوانية محضة ، بينما الثانية عدوانية صارت مازوخيـة . وقد سنحت لنـا الفرصة في موضـع سابق لنظهر أنه من الخطأ اعتبار السادية (العدوانية) مساوية للمازوخية ، وذلك لأنه عندما تتأدى الطاقة الغريزية العدوانية الى المازوخية ، فإنها تسلك طريقاً تخضع خلاله لتحولات مختلفة ، وعلى وجه التعيين تحت تأثير الخوف . فالمازوخية إذن هي عدوانية **متحولة** . **والطاقة تبقى هي هي في جوهرها** ، إلا أنها ، بانقلابها ضد الأنا ، وبتحولـهـا على وجـه التحديد إلى مازوخية ، **لا تعود مجرد عـدوانية** ، مثلهـا في ذلك مثـل الطاقة الكهربائية التي يمكن أن تتحوّل إلى ضوء او إلى قوة محركة ، تبعاً للتحويل الذي تكون قد أخضعت له .

والحال أن عدوانية السوداوي لا تخضع لهذا التحول . فهي تتجه دفعةً واحدة نحو الذات وتصيبها مباشرةً في صورة تدمير ذاتي .

إن هذه السيرورة ، عندما نفهمهـا على هـذا النحو ، تـأتلف مع تصور فرويـد عن العدوان عـلى الذات[٢٤] . ولنـذكّر بـأن المازوخيـة ، بحسب هذا التصور ، هي التعبير البيولوجي عن غريزة التدمير او غريزة الموت التي اذا لم يُحيَّد مفعولها بما فيه الكفاية عن طريق تمازجها بالميول اللييبدية ، الإيروسية ، عاودت نشاطها الأولي التدميري الذاتي[٢٥] .

---

(٢٤) فرويد ، **المشكلة الاقتصادية للمازوخية** .

(٢٥) إن الأواليات التي تحدد الحالات الاكتئابية لا تتراكب دوماً مع أواليات السويداء ـ س . نـاخـت وب . س . راكـامييـه في : **حضـور المحلـل النفسي** PRÉSENCE DU PSYCHANALYSTE ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٦٣ .

(٦)
ملاحظات علاجية

إن المحلل النفسي لا بد أن يواجه ، في كل علاج تحليلي نفسي ، وفي مرحلة أو في أخرى ، المازوخية .

فسواء أفي بداية التحليل النفسي أم في نهايته ، أم في مرحلة متوسطة ، تنصب المازوخية ، سواءً أفي صورتها المنعزلة بصفتها طبعاً مازوخياً أم باعتبارها عنصراً من العناصر المكوِّنة لعصاب بعينه او لشذوذ بعينه في الحياة الجنسية ، أقول : تنصب المازوخية واحدة من **أعتى العقبات** أمام العلاج ، وبالتالي أمام شفاء المريض . ولكن المحلل النفسي الفطِن سيجد في مختلف التظاهرات أو الاستجابات المازوخية واحدةً من أفضل الروافع العلاجية ، كما سيجد فيها في الوقت نفسه عناصر ثمينة لتوجيه خطته العلاجية . وهذا إلى حد لا يبدو لنا معه أننا نغالي إذا قلنا إن تحليل العناصر المازوخية يمثل بالنسبة الينا أنجع عمل في مجرى أي علاج تحليلي نفسي كان ، ذلك لأنه يُعاش وجدانياً من قبل المريض بأعلى درجة .

ونحن نعرف اليوم أن **المعرفة الوجدانية** بالعناصر الجبلّية للعصاب (بالتعارض مع معرفة عقلية خالصة) ، وهي المعرفة التي تكتسب في أثناء العلاج التحليلي النفسي ، يمكن أن يكون لها وحدها أثر علاجي حاسم .

يبدو أن ثمة واقعتين ، عظيمتي الأهمية ، تميّزان العلاج التحليلي النفسي للمازوخية : حاجة المريض إلى التألم ، وعمل التقنية التحليلية النفسية على تحرير العدوانية المكبوحة والمحتجبة لديه خلف المازوخية . فالحاجة الى التألم تشكل جزءاً لا يتجزأ من المرض . وضرورة تحرير عدوانية المريض عاجلاً او آجلاً تمثل الشرط الأساسي لشفائه . وبالتالي ، لا يسعنا تصور علاج تحليلي نفسي يهمل هاتين الواقعتين . وأما فيما يتصل بالحاجة إلى التألم ، فنحن نعرف أنها يمكن أن تنتصب في وجه المحلل النفسي صعاباً حتى قبل بدء العلاج . فنظراً الى الهدف الذي ينشده العصاب ـ وهو إشباع الحاجة إلى الألم ـ سيحاول المريض لاشعورياً أن يتوقى من كل تدخل علاجي يهدد بالتشويش على التسوية العصابية التي عليها يعيش .

إنه سيتخذ من الانطباعات الذاتية التي تكون ساورته حيال المحلل النفسي حجة يتذرّع بها لكي يتحاشى العلاج . ولقطع الطريق ، بقدر المستطاع ، على هذا التهرب ، ينبغي على المحلل النفسي أن يحافظ على الموقف الموضوعي الذي تأمر به التقنية التحليلية النفسية : عليه أن يكون متحفظاً بدون تصلب ، متسامحاً بدون إفراط ، وعلى الأخص متفهماً ولكن بدون أن يظهر لا إشفاقاً ولا استهجاناً .

إن من واجب المحلل النفسي ، بصفة عامة ، أن يشرح للمريض بصورة موضوعية فوائد العلاج التحليلي النفسي ومصاعبه . وعندما يجد المحلل النفسي نفسه أمام مريض ذي شخصية قادرة على أن تتحمل الحقيقة وترضى بعلاج لا تُخفى فيه عن المريض اي صعوبة أو مشقة يمكن أن يتضمنها ، فعندئذٍ يستطيع أن يغبط نفسه : فإن علاجاً « يوضع » ، كما يقال في اللغة الفلسفية ، سلفاً ودفعة واحدة تكون له حظوظه من النجاح . لكن ليس هذا واقع الحال دواماً . فأمام بعض المرضى ، وبغية مساعدتهم ، قد يجد المحلل النفسي نفسه منقاداً ،

لإقناعهم بضرورة الاستشفاء ، إلى التشديد على فوائد العلاج التحليلي النفسي . وفي حالات أخرى بالمقابل ، وبهدف التحرر من أية مسؤولية ، قد يرغب المحلل النفسي بالأحرى في التشديد على مخاطر التحليل النفسي ومصاعبه . وإزاء شخص مازوخي ، يتحتم على المحلل النفسي قبل كل شيء أن يحاذر التردد إلا بأقل قدر بين هذين الميلين اللذين يمكن ان يعودا على العلاج بالضرر .

بيد أن تجربتنا الشخصية تحدو بنا بالأحرى الى الامتناع عن تسهيل الأمور أكثر مما ينبغي (مثلاً : التشجيعات ، والتوقيت الملائم للمريض بقدر أو بآخر ، الخ) على مازوخي قابل لمعالجة تحليلية نفسية . فالإفراط في التسهيلات قد يدفع به أحياناً إلى الابتعاد عن العلاج . وبالمقابل ، فإن كثرة الصعوبات قد تتأدى به الى استخدام هذا العلاج لتغذية مازوخيته . إلا أنه من الممكن التخفيف من هذا المحذور الأخير ، ثم تنحيته ، إذا ما قبل المريض بالعلاج ، وذلك لأن التحليل سيجعاه قادراً شيئاً فشيئاً على إعطاء الأشياء وزنها الصحيح ، وعلى تخفيض تدريجي لقيمة المازوخية . ولفترةٍ ما ، تتراوح مدتها بحسب الحالات ، فإن المازوخي ، نظراً الى حاجته إلى استغلال جميع الظروف لكي يعذِّب نفسه ، لن يرى من علاجه سوى جانبه غير المُستحَب بالنسبة اليه : الوقت الذي يكرِّسه لهذا العلاج ، النفقات التي يتكبدها ، والإزعاجات التي تنجم عن ذلك أحياناً ، الخ .

إن هذه الطريقة في الإحساس لا تشبع لديه فقط الحاجة إلى الاشتكاء ، وهي حاجة شائعة لدى جميع المازوخيين ، بل تخفف كذلك من وطأة إحساسه اللاشعوري بالذنب . ومن ثم فإن العلاج سيجري استخدامه ـ إذا صح التعبير ـ وكأنه عقاب ذاتي ، مما سيحرر المريض وسيتيح له أن يحرز تقدماً سريعاً في سلوكه في الحياة ، وسيقدم كذلك بعض المواد التي تسمح لعملية العلاج التحليلي النفسي أن تبدأ بإتيان مفعولها .

إن هـدف العلاج التحليـلي النفسي حمل المـريض عـلى أن يعبِّـر (وبالتالي أن يعي) عن مضمون نفسيته الـلاشعوريـة واستجابـاتها ، وذلك بمساعدة التأويلات التي يقدِّمها له المحلل النفسي . وإنَّ تمثل هذه « المواد » اللاشعورية سيبدِّل تدريجياً شخصية المـريض بحيث يقيض لهـا أن تتحـرر من الأعـراض العصـابيـة . ومتـابعـة هـذه العمليـة السيكولوجية تعيقها في كل لحظة وآن المقاومات التي يقابلها بها المريض لاشعورياً . وأصول هذه المقاومات ومغزاها السيكولوجي كثيرة متعددة ؛ ولكن من الواضح والبديهي ، فيما يتعلق بالمازوخية ، أن هذه المقاومات تكون الى حد كبير متعيِّنة ومعزَّزة دوماً بـالحاجـة الى عقاب الـذات والى الفشل . والتأويل الذي يقدمه المحلـل النفسي في هذا الاتجـاه ، ويكرره بأناةٍ وبلا كلل ، لا مناص من أن يشق طريقه في خاتمة المطاف .

لكننا نعرف أن التوضيحات والتنويرات الأكثر أرابة ، والتأويلات الأكثر رهافة والأقرب الى الحقيقة للحوافز اللاشعورية الأعراض،لا تكفي لشفاء مريض ، وذلك ما دام هذا المريض لا يستوعب وجدانياً ما يتيح له العلاج التحليلي النفسي أن يعرفه عن ذاتـه . فالتفسيـرات والتأويـلات التحليلية النفسية لن يكون لها على ما يبدو أي مفعول علاجي إذا جرى ادراكها عقلياً فقط . وإنَّ ما يخلق الجو الوجداني المرجو والمرغوب فيـه هو استجابات التحويل المختلفة ، تلـك التي تضفي على العقـد الطفلية الموغلة في الزمن معنىً راهناً . ولا شك في أن ملاحظة هذه الاستجابات بأناةٍ وانتباه ، وتأويلها الصحيح في الوقت المناسب يشكلان ، بالنسبـة إلى المحلل النفسي ، العمل الأكثر دقة ، وإنما الأكثر فعالية ايضاً . ولهذا سنشدد هنا بوجه خاص على دلالة التحويل في علاج المازوخية .

لن نتوقف عند السمات العامة لظاهرة التحويل : فهو لا يعيد فقط (وهذا بديهي) إنتـاج السلوك المعتـاد ، مع كـل ما ينطـوي عليه من تعقيدات ، إزاء المحلل النفسي (من هنا كانت إمكانية الاستفـادة ، عن

طريق التحليل ، من الجـو الراهن والحي الـذي ينشأ عـلى هذا النحـو لتفكيك تشابكات هذا السلوك وردّه إلى قيمته السوية) ، بل يكرر كذلك المراحل المختلفة لتطور شخصية المريض ، وبـالتالي للعنـاصر المكونـة لعصابه وفق تسلسل زمني أو منطقي بقدر أو بآخر . نحن نعرف ما يميِّز سلوك المازوخي : حاجته الى التألم ، الى معاقبة ذاته ، والى الإخفـاق ؛ ونحن نعرف كذلك أن هذا السلوك يترجم عن قـدر كبير من العـدوانية المحـررة ـ والمنعكسة من ثم ـ التي تتـولد عن الخيبـات والتحظيـرات والإحباطات الليبيدية التي يصعب احتمالها . كما أننا نعرف ما هو قوام « مكسب » المـازوخية بصفتهـا وسيلة للبلـوغ إلى إشباعـات ليبيـديـة نكوصية . ومن البديهي انه سيتم تحويل جميع هذه العناصر ، بصورة متفاوتة في سفورها ، في العلاج وحيال المحلل النفسي . وعلى هذا الأخير أن يكـون واعياً لـذلك ، فـلا يُؤخَـذ في أي من شبـاك الاستـراتيجيـة المـازوخية : ظهـور المريض بمظهـر التعيس استدرارا لشفقـة المحلـل النفسي ، واستفـزازه ليسلك سبيـل الصرامـة معه وليـوفر لـه بالتـالي إشباعات ليبيدية هي دوماً نكوصية ؛ او كذلـك غلو المـريض في سلبيته ليحمل المحلل النفسي على أن يخرج عن حياده ، فيوفر له بذلك نوعاً من الإشباع لميوله الجنسية المثليـة الكامنـة ، الخ . ومن البـديهي أنه من واجب الطبيب أن يقاوم هذه الاستفـزازات ، وأن يتمسك بـدوره ، وهو دور « المرآة التي لا تعكس سوى ما نريه لها » (فـرويد) . وسيكـون لزاماً عليه أن يقنع لفترة طويلة من الزمن بـدور صعب ، دونما نتيجـة ظاهرة .

على المحلِّل النفسي أن يتجنّب القول بينه وبـين نفسه ذات يـوم ، مثلاً : « سأقرِّعه قليلاً لكي أجعل الأمور تتقدم » . فلو اقترف مثلاً هذا التهور ، الذي يستشعره المريض على أنه انتصـار ، لبدد كل جهوده هباء ولكان عليه عندئذٍ أن يعاود العمل من جديد . ولن يرى أبداً اليوم الذي سيهتف فيه المريض من تلقاء نفسه : « أجل ، أحب ان أراك تمسك بي

أخيراً ، فهذا يطيب لي » ؛ أو أيضاً : « يا للغرابة ! يساورني انطباع بأني ارغب بأي ثمن في أن أسمعك تشتكي مني وتشفق علي ، لأحس عند ذاك بأني محبوب قليلاً من قبلك ، فيخف عذابي قليلاً » ؛ أو كذلك : « إني أعلم جيداً أنني لا أطلب منك طول الوقت أن تساعدني إلا لأنني أريد أن أكون أمامك مثل طفل ضعيف يساعده الآخرون ، أو مثل امرأة يمتلكها شخص قوي ويديرها » . عندئذٍ ، يكون التحليل النفسي قد أنجز عملاً علاجياً جيداً لأن المريض لن يتأخر أبداً عن أن يضيف قائلاً ، بصورة متفاوتة في وضوحها وصراحتها : « ولكن ما كل هذا إلا ضرب من الحماقة ، فلديَّ في الحياة ما هو أهم من أن اتوسّل الى الآخرين أن يعاقبوني لكي أشعر براحة الضمير ، أو أن يحبوني كأني امرأة » .

عند هذه المرحلة من العلاج ، يكون المحلل قد ربح نصف اللعبة . نقول : نصفها فقط ، لأنه يبقى أن يقتدر المريض على الاستمرار في هذا الاتجاه الجديد . وحتى يستمر ، لا بد له له ألا يخاف من الاستمرار . فعلى هذا النحو نصل الى المرحلة الحاسمة في العلاج : المرحلة التي ستسمح للمريض بأن يتحرر من عدوانيته المنعكسة ، مما يعني أن يتخلّص من مازوخيته . ويتوافق هذا الطور من التحليل مع « انعكاس حقيقي في مجرى الرياح » . فبيت القصيد ، من الآن فصاعداً ، هو إبعاد قوى العدوانية المحتواة في المازوخية عن شخص المريض وتوجيهها الى الخارج . ويبدو لنا بوضوح ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأواليات المولِّدة للمازوخية ، أن هذه المرحلة من العلاج يمكن أن تبتَّ في مآله .

وسيكون لزاماً على المريض أن يسلك ، نحو الشفاء ، الطريق ذاته ، ولكن في اتجاه معاكس لذاك الذي اتبعه سابقاً عندما كانت شخصيته تتنظَّم على الصعيد المازوخي . إلا أنه سيصطدم ، في طريقه ، عاجلاً أو آجلاً بالعقبة ذاتها : الخوف من عدوانيته الخاصة . وفي طور

أول ، لن يكون في مستطاع المريض أن يستجيب لهذا الخوف إلا بالأعراض : تفاقم او انتكاس . وفي هذا الطور بالتحديد يمكننا أن نلاحظ الاستجابة العلاجية المعروفة التي وصفها فرويد : اشتداد الخوف من الخصاء ، تفاقم مشاعر الإحساس بالذنب ، والحاجة إلى الفشل ، الخ . ولكن في هذه المرحلة من العلاج يظهر لنا تحليل المواد النفسية التي يمدنا بها المريض أنّ قسماً كبيراً من هذه الاستجابات مركّز الآن على شخص المحلِّل ، أي أنه **أصبح ذا طابع راهن** بفعل التحويل .

عندئذٍ سيتم تحليل هذه الاستجابات على صعيد « راهن » المريض و « مُعاشه » ، وسيساعد على تجاوز الفهم العقلي المحض ليسمح للمريض **بإدماج وجداني** للمواد النفسية اللاشعورية .

على هذا النحو سيتحقق الهدف الأساسي للعلاج التحليلي النفسي : تعزيز الأنا ، والبلوغ به الى **النضوج** . فالأنا المُعزَّز على هذا النحو سيتعدى اكثر فأكثر على الدوافع الغريزية اللاشعورية وسيسيطر عليها . يقول فرويد : «إنَّ ما كان **هذا** يجب أن يصبح **أنا** » . ولنقل إن العمل التحليلي النفسي يتأدى الى الشفاء عن طريق **تعدٍ تدريجي من قبل الأنا على « الهذا » أو اللاشعور الأولي** .

إن المريض ، الذي قويت لديه على هذا النحو وظائف الأنا ، يصبح قادراً على أن يقيس المدى الذي يفصل بين مخاوفه اللاشعورية ، الطفلية ، التي يحجبها العصاب وإنما التي يخضع لها أيضاً ، وبين العالم الواقعي ، أي عالم الراشدين الذي يتعين عليه أن يحسب له وحده حسابه . وباختصار ، سيفهم أنَّ كل شيء ينمّ لديه عن سلوك لا يزال يسيطر عليه الخوف من أن يُعاقَب بصرامة ، لا بل أن يُخصى ، حتى من قبل المحلِّل النفسي ، ولكنه سيفهم أن مخاوفه هذه ليس لها أي أساس .

فإذا كان الأمر يتصل ، مثلاً ، بمريض عنين ، فستراه عندئذٍ يستعيد شيئاً فشيئاً نشاطه الجنسي ؛ وإذا كان الأمر يتعلق بعصابي

وسواسي ، فسنراه يتحرر من نير وساوسه ، الخ . ولكن مما يثير الدهشة أن تتفجر ، في وقت واحد مع ظهور علامات التحسن هذه ، نوبات حقيقية من القلق .

آية ذلك أن ثمة مرحلة اساسية من العلاج لم يتم تجاوزها بعد : مرحلة تحييد المازوخية الكامل والنهائي عن طريق تحرير الحفزات العدوانية المحتواة فيها . ويجب أن يتم هذا التحرير من الناحية النظرية في إطار التحليل ، أي أن يسلك الطرق التي يقدمها له التحويل . وغني عن البيان أنَّ المقصود بذلك ليس أن نجعل من المازوخي سادياً ، بحجة أننا نريد شفاءه . وعلى كل حال ، فإن هذا التطهير الشافي للميول العدوانية المكبوتة سابقاً لا يكون بوجه عام ، وبالرغم من عنفه المحتمل ، إلا مؤقتاً وتعبيراً عن حالة انتقالية . إذ سرعان ما سيقتدر الأنا ، الذي يكون أعاد بناء نفسه بفضل التحليل وصار راشداً ، على أن يتحكم بدوافعه الغريزية ويكيِّفها . وليس من المرجو كذلك أن تبقى تلك الميول العدوانية المظهَّرة مجرد استجابات تحويلية ، فلا تجاوز إطار العلاج . بيد أن الأمور لا تتطور دوماً في هذا المنحى . فثمة أسباب خارجية أو داخلية ـ نسبةً إلى التحليل ـ يمكن أن تتدخل : ومن قبيل ذلك الالتقاء مصادفة بشخص يغري ويجتذب اليه بسلوكه المازوخي العدوانية المحررة حديثاً . وتفريغ العدوانية الذي يُمكن أن يحدثه هذا الموقف الجديد سوف يجري تحليله ، ومن ثم تخفيفه . وفي هذه الحالة ، كثيراً ما تكون مهمة المحلل النفسي أصعب مما لو كان الأمر متعلقاً بظاهرات تحويل .

إن هذه الاستجابات الخارجية لا تتصف دوماً بصفة الخطورة : فالأمر لا يعدو أن يكون ، في اغلب الأحيان ، أمر ميول دون أن يتعداها إلى الانتقال الى الفعل والتحقيق . فالمرضى الذين نحن بصددهم كانوا حتى الآن ممسوحي الشخصية . وهم يريدون ، في محاولاتهم الأولى

للنهوض السوي ، أن يفرضوا انفسهم ولو طوحوا بالعقبات بقوة مجاوزة الحد . وذلك أن الذين كانوا سابقاً من الضحايا يغريهم أن يأخذوا بثأرهم بصورة فظة وعنيفة .

لكن ، في حالات أخرى ، قد يكون لهذه الاستجابات طابع ضار . لذا نردد القول مرة اخرى إنه من الأفضل دوماً أن نراها تتظاهر إزاء المحلل . ففي إطار العلاج ستحتفظ هذه الاستجابات على الأقل بصفتها الوهمية والعادمة الشأن . وسوف تترجم عن نفسها بأفكار بغيضة حيال المحلل النفسي أو بأحلام وتخييلات سادية . وقد تواجهنا في بعض الأحيان محاولات حقيقية لإيذاء الطبيب ، وفي الحالات الطفيفة ، لا تعدو أن تكون محاولات صبيانية لتمزيق بساط او سجادة او أي غرض يخص الطبيب ؛ ولا يندر ـ وهذا مُستكره أكثر ـ ان يحاول المريض إيذاء محلله بما يذيعه عنه من إشاعات مغرضة ، مثلاً . وهكذا يبدو وكأنه من الضروري أن يتمكن المريض بكل هدوء وثقة من أن يشحذ « سلاحه الأول » ، بنوعٍ ما ، على ظهر المحلِّل : تلك هي مخاطر المهنة .

من الضروري أن يكون المريض على ثقة ، إلى حد ما ، من أنه يستطيع أن يسمح لنفسه بسلوك من هذا القبيل ، وإلا لَكَبَتَ من جديد عدوانيته ولما شفي ، أو لنَقَلها إلى موضوع آخر ، وهذا سيكون له بدوره محاذيره ، وعلى المحلل النفسي دائماً أن يطمئن المريض ، وأن يذكره بأنه حر في التعبير عن أي شيء في التحليل . وهذه الطمأنة ضرورية ، إلا أنها ليست دوماً كافية . فقد كنا نحلِّل لدى أحد مرضانا منذ وقت طويل الخوف الذي كان يمنعه من أن يظهر عدائيته إزاءنا . وفي أحد الأيام ، ولدى خروجه من الجلسة ، وجه إليه شرطي ملاحظة عادية لأنه لم يقف عند ممر المشاة ، فما كان منه إلا أن نزل من سيارته ، وراح يجادل الشرطي ، ثم صفعه . وبعد هذه الحادثة فحسب فهم أنَّ ما كان أرغم نفسه على إخفائه في أثناء التحليل ، آثر ان يعبر عنه في مكان آخر ، وأنه

لـو كان فهـم ذلـك من قبل لـوفر عـلى نفسه ، عـلى الأقل ، المـلاحقـة القضائية .

لا يكفي أن يقول المحلل ويكرر القول للمريض أنه يمكنه أن يظهر عدائيته ، بل إنه يتوجب عليه أن يفعل ذلك إذا ما اراد الشفاء . إنمـا ينبغي أيضاً للمريض أن يكون قادراً على التغلب على الخوف الطفلي الذي توحي اليه هذه الاستجابات . وإذا لم يستطع التغلب عليه ، فهذا يعني أن أناه لم ينمُ بعد نمواً كافياً تحت تأثير العلاج ، وأنه ما يزال يستجيب باستجابات طفلية . ولكن في بعض الأحيان قد يكون المحلل النفسي هـو المسؤول ، لاشعـورياً ايضـاً ، عن هـذه الصعـوبـة التي يستشعـرهـا المريض . وآية ذلك أن هذا الأخير يكون قد لاحظ ، او بالأحرى شعر ، في معرض حديث أو نقاش دار بينهما ، أنَّ المحلل يريد دوماً ان يكون على حق ، وأن يكون هو الأقوى ، أو أنه لا يستطيع أن يتحمل أن يقـول له أحد أشياء غير مستحبة ، بـالرغم من التـوكيدات اللفظيـة التي قطعها للمريض وتعهده بالتزام الحياد والموضوعية . إن عـلى المحلل أن يبـذل قصاراه للحؤول دون تولّد انطباعات كهذه لـدى مريضـه . إلا أنَّ هذه المسألة ، مهما تكن مهمة ، تخرج عن نطاق هذا الكتاب بجانبها التقني الصرف .

لِنقل فقط إنه ينبغي على المحلل أن يفعل كل ما في مستطاعه لكي يجعل المريض يفرغ عدوانيته من خلال استجابات التحويل العلاجي ، هذه الاستجابات التي لا يمكن أن تزعجه ابداً من الناحية الموضوعيـة والتي تكون ، بالمقابل ، مفيدة جداً للمريض بصفتها وسيلة للتحرر .

هذا يأخذ كامل أهميته « حضورُ » المُعالِج وموقفه الداخلي الدفين الذي ينبغي أن يكون منسوجاً من الانفتاح والاستقبال غـير المشروط ـ وهو موقف شدّدت عليه كثيراً في موضع سابق[1] .

---

(١) س . ناخت ، **حضور المحلل النفسي** ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، ١٩٦٢ .

فإذا ما مرت هذه المرحلة عاد كل شيء فانتظم واستتب ، وهو ما يبعث على الطمأنينة للمريض وللطبيب في آن واحد . آية ذلك ـ هذا ما ينبغي التنويه به تلافياً لأي سوء فهم ـ أن الشخصية التي تغيّرت ونضجت بفعل العلاج لا بد أن تقتدر على إعطاء العدوانية مكاناً **متكيفاً ومتلائماً مع الاشتغال الصحيح السليم للدوافع الغريزية** . وعلى هذا ، لا يكون المطلوب بحال من الأحوال من المريض أن يجاهد لخنق كل بادرة عدوانية .

إن المُعالَج ، الذي لم يعد مريضاً ، قد تخلص الآن من مازوخيته . وعندئذٍ تنطرح مسألة إنهاء العلاج ، وكثيراً ما تتولَّد عنها مصاعب جديدة . وبالفعل ، قد يكون إنهاء العلاج التحليلي النفسي مماثلاً في الصعوبة ، إن لم نقل اكثر صعوبة من البدء به . ومشكلة إنهاء العلاج هذه كثيراً ما تضع على حجر المحك ، من جديد ، المُحلَّل والمُحلِّل معاً . فإن إيقاف العلاج ، وانفصال المريض عن محلِّله ، يمكن أن يشكلا صعوبة حقيقية بالنسبة إلى المُحلَّل حتى ولو جرى تحليله على الوجه المرام .

إن الاستجابات المرتبطة بفكرة إنهاء العلاج تكون مثبطِّة للغاية للعزيمة ، وبخاصة لدى المازوخي الذي يكون الخوف من أن يبقى وحيداً ومن أن يفقد حب والديه قد لعب لديه دوراً مهماً للغاية . وهذا إلى حدٍ قد تحدث معه في بعض الحالات للمريض الذي كان كل شيء يجري لديه على ما يرام انتكاسة قد توحي للمحلِّلين غير المجربين بأنه لا بد لهم من أن يعاودوا العملية التحليلية من جديد . وهذا مجرد ظاهر خداع ، ولا يعدو في حقيقته أن يكون محاولات من قبل المريض للتهرب من الخطوة الكبيرة التي يتعين عليه أن يقدم عليها بانفصاله عن محلِّله : أي أن يصبح فعلاً وحقاً راشداً وأن يعيش أخيراً حياته كرجل .

إن المحلل النفسي هو من يتعين عليه أن يقدِّر بسداد ما إذا كان

الوقت قد حان ، وما إذا كان المريض اكتسب حقاً القدرة على أن يسلك ذلك المسلك . ذلك أن دفع المريض إلى ترك التحليل في وقت أبكر مما ينبغي يمكن ان يكون عملاً اخرق ، كما أنَّ بقاءه قيد التحليل لوقت أطول مما ينبغي قد يكون أكثر خرقاً بعد .

قد يضطر المحلل النفسي ، في بعض الأحيان ، إلى اللجوء إلى مساومة تترك للمريض باباً مشقوقاً : فهو يتفق معه على أن يبقى على اتصال به ـ وهو اتصال ستتباعد فتراته اكثر فأكثر بصورة تلقائية ، وستكون الحياة هي خير معين على ذلك .

هذه هي أخص مظاهر العلاج التحليلي النفسي للمازوخية وأميزها في اعتقادنا .

وقد ارتدى عرضنا لهذه المظاهر بالضرورة طابعاً نظامياً يمكن أن يوحي بأن مختلف أطوار هذا العلاج تجري هي الأخرى بانتظام . ونحن نعرف جميعاً أن الأمر ليس كذلك من ناحية التطبيق ، إذ أن مختلف عناصر العصاب تتداخل فيما بينها وتتشابك باستمرار في أثناء الجلسات التحليلية النفسية . والمحلل النفسي هو من يتعين عليه أن يختار ، في كل وقت ، ومن ركام المواد التي يمده بها المريض ، ما يسمح بتأويل مفيد .

إن التوجيه الحكيم الذي كان صدر عن فرويد يستأهل أن نستعيده في هذا الصدد في أذهاننا : « ينبغي ألا نشرح للمريض أكثر مما هو قادر على استيعابه » .

ملاحظات تتصل بأصول الوقاية

هل يمكننا أن نستخلص من كل ما تقدّم قوله بعض المبادىء في أصول الوقاية ، وهل يمكننا بالتالي أن نصل إلى علم أفضل في الصحة

العقلية ، وإلى وقاية حقيقية من الأعصبة ؟ لقد كان من المفروض أن يكون ذلك نتيجةً من النتائج المنطقية للمشاهدات التحليلية النفسية . ولكن تفصيل جميع المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ، والكلام عن الأخطاء المرتكبة ، والآمال المسوغة ، يتجاوز بكثير إطار هذا الفصل .

لنذكِّر فقط بأن هذه الجهود تميل إلى إنشاء علم تربوي يأخذ بعين الاعتبار نمو الغرائز ، وعلى وجه التعيين نمو الليبيدو والعدوانية كما وصفه وحدّده لنا التحليل النفسي . بيت القصيد إذن أن نرسم للوالدين وللمربين خطاً للسلوك قميناً بأن يخفف من المصادمات التي قد تحوِّل اتجاه هذا النمو عن مجراه السوي وتلحق ضرراً بتفتحه في إطار التكيّف الاجتماعي . وتطرح المازوخية ، بوجه خاص ، من هذا المنظور ثلاث مشكلات كبرى :

١ ـ مشكلة العدوانية : ما الموقف الذي ينبغي اتخاذه حيال ميولٍ وحفزات عدوانية ملازمة لنمو الليبيدو ؟

٢ ـ مشكلة التحظيرات التربوية التي لا مفر منها : كيف يمكننا ، في الوقت الذي نفرض فيه هذه التحظيرات ، ان نخفف او حتى أن نتجنب الاستجابات التي تعرف باسم « استجابات الإحباط الليبيدي » لدى الطفل ؟

٣ ـ مشكلة العقاب البدني او المعنوي : هل تحاشي العقوبات بأي ثمن واجب أم لا ؟

لِنُحاذر من التعلل بالأوهام : فلو أمكننا الإجابة تماماً (وبطريقة مُرضية) عن هذه الاسئلة ، لكان هذا معناه أننا لم نحل مشكلة الوقاية من المازوخية فحسب ، بل ربما أيضاً الوقاية من الأعصبة بوجه عام .

لكن لا عناصرنا الإعلامية ، ولا تجربتنا على الأخص ، تبيح لنا أن نستخلص استنتاجات قاطعة ونهائية من المعطيات الانسانية البيولوجية

والاجتماعية البالغة التعقيد . وأقصى ما نستطيعه الآن أن نحاول طرح هذه المشكلات طرحاً جيداً وأن نتلمس فيها طريقنا على نحو أوضح بقليل مما في السابق .

لِنَعد الآن الى المشكلة الأساسية التي تطرحها المازوخية : مشكلة العدوانية . إن أمرها يبدو لنا ، للوهلة الأولى ، بسيطاً جداً : فهنالك ، من جهة أولى ، قوى عدوانية مباطنة لطبيعة الانسان ؛ ويظهر ، من الجهة الثانية ، ان وأد هذه القوى قد يؤدي إلى المازوخية . وقد يبدو الجواب على هذا الأساس سهلاً : لنمنع إذن حصول هذا الوأد ، فنتجنب بالتالي ظهور ميول مازوخية . لكن المشكلة في الواقع أكثر تعقيداً .

نحن نعني بالعدوانية تياراً من الدوافع والحفزات تنبثق عنه تظاهرات متباينة ظاهرياً ، لكن قاسمها المشترك انها متكوِّنة من شيء واحد هو **الطاقة الغريزية** .

وعلى هذا فإن الطفل الذي يعضّ الثدي الذي يغذيه ، او الذي يحطم لعبته ، يسلم نفسه في الحالتين كلتيهما لفعل عدواني ؛ ويمكن لهذا الطفل ذاته أن تساوره فيما بعد مشاعر تتراوح بين البغض والحقد والرغبة في إلحاق الأذى بالآخرين ، وربما كذلك الرغبة في القتل : وهذه بالتأكيد تظاهرات عدوانية . ولكن عندما يرغب في امتلاك موضوع ما ، أو حيازة شيء ما ، أو السيطرة على شخص ما ، او حتى **الانتقال إلى الفعل** ليس إلا ، فإن العدوانية هي التي تمده ايضاً بالطاقة الغريزية النوعية التي سيكون بحاجة اليها .

إن **مصدر الطاقة** هذا نفسه هو الذي سيغذي أيضاً ، في الحياة الراشدة ، الطموح ، أو الشجاعة ، أو العمل مثلما سيغذي العنف أو الإجرام . إذن ما الذي يتوجب على المربي أن يدعه يفصح عن نفسه ، أو أن يشجع عليه ، أو أن ينهى عنه في السلوك العدواني للطفل ؟ كيف

يمكنه أن يفعل لكي يقوِّم الميول العنيفة واللااجتماعية بدون أن يجازف بحرف هذه الطاقة عن مجراها أو بكبتها ، وهي الضرورية لنمو الشخصية وفيما بعد سندها ؟

يبدو أن اي تحظير شامل أكثر مما ينبغي ، ومعبَّر عنه بعنف أشد مما ينبغي ، يجازف ، إذ يسد كل مخرج للعدوانية ، بأن يجبر الطفل على أن يقلب هذا التحظير ضد ذاته في صورة المازوخية .

ويبدو أنَّ الأقل خطورة ألا ننصب بصورة دائمة ومطردة الحواجز امام هذه العدوانية ، وأن نترك لها أن تجد عقبات لها بها قِبَل ، أو هي على قدِّها كما يقال ، في الاستجابات العفوية التي ستستثيرها لا محالة في المحيط طرداً مع إفصاحها عن نفسها . ومن المؤكد أننا نستطيع ، بدون أن نترك أثراً رضياً في الطفل ، أن نحول دون أن يخدش أو يعضّ أو يجرح ، وأن نمنعه من إتلاف الأشياء . ولكننا نستطيع فيما يتعلق بألعابه الخاصة أن ندع له الحرية كاملة في أن يحطمها حسب أهوائه ، تاركين له متنفساً حراً للغرائز ، وهذا ضروري لنمو الشخصية وتطورها . إلا انه قد يكون من المفيد أن نساعد ، عن طريق ألعاب مناسبة ، على تنمية حس البناء والتزيين والخلق لديه ، ذلك الحس الذي يستخدم استخداماً ايجابياً قسماً كبيراً من طاقته الوجدانية ، فيساعده بأمان أكبر بكثير من أي تحظير على الحد من ميوله التدميرية .

إن وسطاً طفلياً ، من سن مماثلة ، يشكل أرضيةً ممتازة لنمو الصغار الذي يستعملون قواهم فيما بينهم بدون خطر الاصطدام بالعقبة المنيعة التي يمكن أن يمثلها تحظير او رد فعل حاد من جانب الأشخاص الكبار من ذوي النيات الحسنة ، وذلك ما دام الطفل سيعتبر تحظيراً كهذا أو رد فعل كهذا بالغ القوة ولامفهوماً في وقت واحد . ومن المؤكد ان الأمور تزداد تعقيداً عندما يوجه الطفل حفزاته العدوانية ضد والديه أو مربيه ، وذلك لأن عاملاً آخر يهيمن عندئذٍ على جميع هذه المسائل :

الكيفية التي سيتصرف بها الأشخاص الكبار . فإذا جاءت ردود فعل هؤلاء طبيعية ، بسيطة وحرة ، كان لها حظ كبير ، مهما تكن الكيفية التي تفصح بها عن نفسها ، في ألا تلحق ضرراً بالطفل .

ولكن إذا ما ردّ الوالدان على عدوانية الطفل بعدوانيتهم الخاصة او حتى بمازوخيتهم ، فلن تترتب على ذلك سوى تعقيدات مؤسفة . وهذا يطرح مسألة توازن الوالدين او المربين أنفسهم ، وهي مسألة تتحكم بجميع المنظورات التربوية للتحليل النفسي .

قد يتفق لوالدين خضعا لعلاج او لتعليم تحليلي نفسي غير كافٍ أن يقعا في اخطاء فادحة : فبعد أن تنوَّرا بصدد مصاعبهما الطفلية الخاصة ، راحا يتصرفان إزاء أولادهما تصرفاً موسوماً **بخوف حقيقي من الخوف** الذي يمكن أن يستشعره الطفل . من هنا يكون حرصهما المفرط على تجنيب الطفل اي ظرف قد يواجه فيه الخوف في اي صورة كانت ، وهذا لا يمكن أن يكون له تأثير مفيد على نمو الشخصية التي تُحرم بذلك من وسيلة رئيسية للتمرن وممارسة قوتها .

ثم إنه ليس من المؤكد أن في مقدورنا ، مهما فعلنا ، أن نجنِّب الأطفال الخوف . يورد ستيف بورنشتاين فندهولز مثالاً مثيراً للاهتمام من هذا المنظور[٢] : صبي في الرابعة والنصف من عمره ، في أوج عقدة اوديب ، عدواني إزاء ابيه ، قال لهذا الأخير في أحد الأيام : « أبي سأقطع لك عضوك » . فاغتنم الأب ، الذي كان على علمٍ بالخطر الذي يمكن ان يولِّده لدى الطفل الخوف من الخصاء ، هذه الفرصة لكي يطمئن ابنه قائلاً له إنه بالمقابل لن يفعل له ذلك .

كانت النتيجة مفجعة : فقد جاءت استجابة الطفل معاكسة تماماً

---

(٢) اغاليط في البيداغوجيا التحليلية النفسية . في مجلة التربية التحليلية النفسية ، ١٩٣٧ .

لما كان متوقعاً. فقد هجره النوم ، ووقع فريسة الخوف من أن تهاجمه حيوانات كاسرة ، فضاعف من تخييلاته العدوانية إزاء أبيه . وآية ذلك أنه لم يصدقه ، لم يستطع أن يتصور أن اباه يحس بالأشياء إحساساً مغايراً لإحساسه هو .

لقد أشار كاتب هذه المشاهدة بسداد إلى أنه كان من الواجب إعطاء الطفل انطباعاً بأن عدوانيته تُحمل على محمل الجد ، لا أن تُعامل بازدراء ، لكن بدون تهديده مع ذلك بأي صورةٍ من الصور . وقد كان على الأب أن يجيب بكل بساطة إنه لن يدعه يفعل ذلك ، وإنه ليس من المسموح ان يقطع المرء أي شيء كان من لحم الآخرين ، الخ . على هذا النحو ينبغي أن يُترك للطفل إمكانية او وهم ممارسة عدوانيته ضد العقبات التي ستصطدم بها بصورة طبيعية ، وإلا فإن عدوانيته ستكون عرضة لأن تستَبطن وتُعكس على الطفل ذاته ، فتتأدى به الى المازوخية . وإن على كل تربية تأخذ بعين الاعتبار المعطيات التحليلية النفسية أن تنشد هدفاً مزدوجاً : أن تفسح في المجال امام أنا قوي لينمو ويتطور حيال أنا أعلى مرن .

لبلوغ هذا الهدف ، ينبغي ان نسمح للطفل أن يقيس الحدود المعيَّنة لعدوانيته وأن يتوقف عندها ، ولكن بدون اللجوء الى التهديدات أو العقوبات . وقد اتّضح للملاحظة التحليلية النفسية على كل حال أن ليست العدوانية « السوية » (إذا جاز لنا أن نطلق هذه الصفة على العدوانية التي تفصح عن نفسها بصورة طبيعية وموازية للتظاهرات الليبيدية الأخرى) هي التي يمكن أن تزرع صعاباً في طريق نمو الطفل ، وإنما هي على الأخص العدوانية التي يمكننا أن نطلق عليها اسم العدوانية الارتجاعية . وتنطلق هذه العدوانية الأخيرة عندما تولِّد بعض الظروف لدى الطفل حالةً مؤلمة من الإحباط الليبيدي . ونحن نعرف كم تكون حالة عدم إشباع هذه غير محتملة من قبل الطفل في كل مرحلة من

مراحل نموه . وإن واحدة من النتائج المؤسفة لذلك تتمثل في التفجر المسرف للعدوانية الممتزجة امتزاجاً طبيعياً بالدوافع الغريزية الأخرى .

يتجلى الإحباط بقدر اكبر من الوضوح عندما يكون الطفل محروماً من الحنو ، أو ـ وهذا اكثر تواتراً ـ عندما يُسحب منه هذا الحنو بصورة مباغتة أو عنيفة . ويعسر علينا أكثر اسكتشاف الإحباط عندما يكون الأمر أمر افتقار إلى إشباع ايروسي نوعي يتطلبه كل طور من الأطوار الليبيدية التي يمر بها الطفل : الطور الفموي ، الشرجي ، الخ . ولا يكون الإحباط بحكم ذلك أقل عنفاً . فكل المرضعات يعلمن أن الطفل الذي لم يتلقَ تغذية صحيحة يصبح مشاكساً .

لقد شدد المحللون النفسيون على الايروسية الشرجية ، مثلاً ، تشديداً يغنينا عن إطالة المكوث عندها : فإن اي تقييد للاشباعات التي يقتضيها النمو الليبيدي يكون من جملة نتائجه المخلّة بالتوازن النفسي إطلاق العدوانية بمقادير مسرفة . ولندع جانباً ـ لأن هذا يخرج عن نطاق بحثنا ـ حالة الطفل الذي يصير كائناً لااجتماعياً . ولنذكّر بالأحرى بأن هذه العدوانية تنقلب في معظم الحالات ، ولأسباب أطلنا دراستها بصدد الأواليات المولِّدة للمازوخية ، ضد ذات الشخص وتغدو هي الركيزة الأساسية للمازوخية .

لزام على المحللين النفسيين إذن ألا يأخذهم الكلل أبداً من تذكير أولئك الذين تقع على عاتقهم مسؤولية تربية الأطفال بالدور الرضي للتحظيرات ـ المبررة بقدر أو بآخر ـ التي يفرضونها على بعض الإشباعات الضرورية للنمو الليبيدي ، وبخاصةٍ عندما لا يعرفون كيف يطمئنون أطفالهم ، من جهة مقابلة ، الى حبهم لهم .

إن معظم هذه التحظيرات لا يمليها في كثير من الأحيان سوى عماءٍ ذاتي يكون الدافع اليه العقد الطفلية للمربين أنفسهم .

أما بالنسبة إلى العقوبات فقد سبق وأسهبنا في تحليل دورها في نشوء المازوخية ، وبصورة رئيسية في الفصل المكرَّس للانحراف المازوخي . ومن حقنا أن نريد تجنب التكرار . لنذكِّر فقط بأن العقاب ، على النقيض مما قد نميل إلى الاعتقاد قبلياً،لا يضطلع بالدور الرئيسي في التوجه المازوخي للشخصية . وقد حاولنا في موضع آخر أن نبيِّن أن مفعول العقاب ، حتى في حالة الانحرافات ، يرتهن على الأخص **بالظروف الوجدانية** التي عاش في ظلها الطفل المعاقَب . إلا أن العقاب يكون في أغلب الأحيان عديم الجدوى ، واحتمال تحوله إلى خبرة رضيَّة لا بد أن يصرف الناس ـ لنأمل ذلك ـ عن الرغبة في عودة تلك الأيام ـ التي انصرمت لحسن الحظ ـ التي كانت تتم فيها التربية بالاستعانة بالقصاصات والضربات . إلا أنه من المألوف أن نلاحظ أن طفلاً ، متيقناً أصلاً من عطف والديه وحبهما له ، يمكن أن يتلقى منهما عقاباً مبرراً بدون أن ينجم عن ذلك بالنسبة اليه أي أذى وجداني ، بل إننا لنشاهد ، من خلال تحليل الراشدين ، كم كان يمكن للعقاب ، في بعض الحالات ، أن يساعد على حل بعض المواقف المتوترة من جراء عقدة ذنب مبهمة أو مخاوف غير معبَّر عنها من الخصاء . فهنا يجري كل شيء كما لو أن العقاب يوفر للطفل الوسيلة لكي يعرف على « أي أرض يقف » ، وبالتالي لكي لا يعود يخشى ما هو أسوأ . وهذا يصدق ، بطبيعة الحال ، على الحالات التي تكون فيها روابط وجدانية قوية وسوية قائمةً بين الطفل وبين الوالد الذي يعاقبه .

وبالمقابل ، فإن النتائج الأكثر مدعاة للأسف يمكن أن تنجم عن العقاب إذا ما استشعره الطفل على أنه ظلم وجور ، وبخاصةٍ عندما لا تكون جملة الظروف الوجدانية والعائلية مثالية .

لنأخذ الحالة الشائعة (التي يسهل علينا أن نلاحظ ارتكاساتها في الممارسة الدارجة) التي يكون فيها الطفل بمثابة كبش محرقة للخلاف

بين الوالدين . أو لنأخذ أيضاً الحالة الأخرى التي يمارس فيها الوالدان لاشعورياً ساديتهما إزاء الطفل ، متذرعين بذرائع حميدة جداً في ظاهرها ، مما ينمي لديه المازوخية التعويضية التي ستسمح له بأن يلتذ ، بنوع ما ، حتى بسوء معاملتهما له . وقد يحدث عندئذٍ أن تشكل ساديةُ الوالدين ومازوخيةُ الطفل شبكة تصبح فيها المازوخية - السادية هي العملة الوحيدة للتبادلات الوجدانية . فلكي يتمكن الطفل من أن يعيش ، لا يجد أمامه من مخرج سوى المازوخية .

هكذا نجدنا منقادين دوماً ، في ما يتصل بالتربية ، إلى أن نعلق الأهمية الكبرى على سلوك الوالدين ، أي على توازنهما الوجداني النفسي الخاص بهما .

إن والدين سليمي العقل والجسم لقادران أن يحققا الشرطين القمينين بخلق المناخ الأكثر مواءمةً لنمو الطفل : محبة ثابتة ، دائمة ، متوازنة ، وهي آمن ملجأ من العواصف التي قد تعصف بالنفس الطفلية ، وموقف طبيعي ومتفهم إزاء التظاهرات الليبيدية ، وعلى الأخص التظاهرات الجنسية .

ثبت المراجع

— K. Abraham, Ansätze z. Erforschung u. Behandlung des manischdepressiven Irreseins Zustände, Zentralbl. f. Psa. II, 1911— Untersuchungen über die früheste prägenitale Entwicklungsstufe der Libido, Int. Z. F. Psa., 1916.

—F. ALEXANDER, Strafbedürfnis und Todestrieb, Internationale Zeitschrift für Psychoanalyse, XV, 1929— Psychoanalyse der Gesamtpersönlichkeit, 1927; Int. Psychoanalytischer Verlag, Wien— Zur Theorie der Zwangsneurosen und der Phobien, Int. Zeitschrift für Psychoanalyse, 1927.

— Marie BONAPARTE Passivité, Masochisme, Féminité, Revue Française de Psychanalyse, 1928.

— A. BALINT, Die Grundlagen unseres Erziehungssystems, Int. Zeitschrift für Psychoanalyse Pädagogik, 1937.

— Steff BORNSTEIN, Missverständnisse in der Pyschoanalytische Pädagogik, Int, Zeitschrift F. Psa. Pädagogik, 1937.

— E. BIBRING. Zur Entwicklung und Problematik der Triebtheorie, Int. Zeitschrift F. Psa., 1936.

Th. BENEDEK, Todestrieb und Angst, Int. Zeitschrift F. Psa; 1931.

— Y. BLOCH, Das Sexualleben unserer Zeit, Berlin.

— H. CODET et R. LAFORGUE, Échecs sociaux et besoin inconscient d'auto- punition, Revue Française de Psychanalyse, 1929.

— A. COFFIGNON, La Corruption à Paris, 1898.

— H. DEUTSCH, Der Feminine Masochismus und seine Beziehung zur Frigidität, Int. Zeitschrift F. Psa.. 1930— Psychoanalyse der weiblichen Sexualfunktionen, Int. Psa. Verlag, Wien— Pyschoanalyse der Neurosen, Int. Psa. Verlag, Wien.— Zur Psychologie der manisch— depressiven Zustände, Int. Zeitschrift F. Psa., 1933.
— P. DHEUR. Les Amoureux de la Douleur, Paris, 1900.
— G. DUMAS, Un cas de masochisme, Journal de Psychologie, 1905.
— R. DUPOUY, Du Masochisme, Annales Médico- Psychologiques, 1929.
— A. EULENBURG, Sadismus und Masochismus, Wiesbaden, 1902.
— H. ELLIS, Étude de Psychologie Sexuelle, Mercure de France.
— S. FREUD, Trois essais sur la théorie de la sexualité, trad. par B. Reverchon, N.R.F., Documents Bleus— un enfant est battu, trad,par H.Hoesli. Rev.F. Psa., VI— Triebe und Triebschiksale. 1915. Gesammelte Schriften, B.V., Int. Psa. Verlag, Wien— Trauer und Melancholie, 1916, Ges. Sch., B.V.— Die in Erfolg scheitern, Ges. Sch., B.X.— Einige psychische Folgen der Anatomischer Geschlechtunterschiedes, Ges. Sch., B.XI.— Le Probléme économique du Masochisme, 1924, trad. par E. Pichon et H. Hoesli, Rev. F. Psa., II, 1928— Essais de Psychanalyse, Payot. Paris.— Einführung zum Narzismus, Ges. Sch., B. VI.— Die Abwehr Neuro- Psychosen, 1894, Ges. Sch., B.I.— Obsessions et Phobies, 1895, Revue de Neurologie. Paris— Uber die Abwehr- Neuropsychosen, 1896, Ges. Sch., B.I.— Zwangshandlungen und Religionsübungen, 1907, Sammlung

Kleiner Schriften zur Neurosenlehre, t. II.
— P. FEDERN, Beitrage zur Analyse des Sadismus und Masochismus, Int. Z. F. Psa., 1913-1914.
— O. FENICHEL, Perversionen, Psychosen, Charakterstörungen, Int. Psa. Verlag. Wien, 1931.
— G. GERO, Der Aufbau der Depression, Int. Z. f. Psa., 1936.
— K. HORNEY, Das Problem des weiblichen Masochismus, Int. Z. Psa., 1934— Die Flucht aus der Weiblichkeit, Int. Z. F. Psa., 1926.
— M. KLEIN, Die Psychoanalyse des Kindes, Int. Psa. Verlag, 1932.
— KRAFT-EBING, Psychopathia Sexualis. Paris.
— M. KLEIN , Zur Psychogenese der Manisch— depressiven Zustände, Int. Z. F. Psa., 1937.
— E. JACOBSON, Wege der weiblichen über- ich Bildung, Int. Z. F. Psa., 1937.
— A. HESNARD et R. LAFORGUE, L'Auto- Punition, Rev. Fran. Psa., 1931.
— E. JONES, Die Psychoanalyse und die Triebe, Imago, 1936.
— J. LAMPL DE GROOT, Zu dem Problem der Weiblichkeit, Int. Z. F. Psa., 1928.
— R. LOEWENSTEIN, D'un mécanisme auto- punitif, Rev. Franç. Psa., 1928.— De la passivité phallique chez l'homme, Rev. Franç, Psa., 1935.
— R. LAFORGUE, Étude sur J.—J. Rousseau, N. R. F., 1927.
— D. LAGACHE, Deuil, Mélancolie, Manie. Conférence inédite.
— A. MOLI, Die konträre Sexualempfindung, Berlin, 1899, XVI, 6515 gr. in-8. F. 45.
— MOREAU DE TOUR, Quelques inductions psychologiques concernant la monomanie du suicide, Union Médicale, 1948.

— B. MENG, Zur Psychologie der Stafe und des Strafens, Zeitsch. F. Psa. Bewegung.

— S. NACHT, Remarques sur un cas de névrose obsessionnelle avec représentations sado- masochistes, Rev. Fr. Psa., 1931— Psychanalyse d'un cas d'homosexualité, Revue Fr. Psa., 1930- 1931 (avec J. Vinchon)— La structure inconsciente des psychoses, Rev. Fr. Psa.,1932— Psychanalyse des Psychonévroses. F. Alcan, Paris, 1936— Pathologie de la vie amoureuse, R. Denoël, Paris, 1937.

— H. NUNBERG, Schuldgefühl und Strafbedürfnis, Int. Z. F. Psa., 1926— Allgemeine Neurosenlehre, Hans Huber, Berne- Berlin, 1932— Homo- sexualilät, Magie und Agression, Int. Z. F. Psa, 1936.

— Ch. ODIER, Contribution à L'Etude du Surmoi. R.F.P., 1927.

— S. RADO, Das Problem der Melancholie, Int. Z. F. Psa., 1927

— W. REICH, Der Masochistiche Charakler, Int. Z. F. Psa., 1932—Der Triebhafter Charakter, Int. Psa. Verlag, Wien.1925.

— Th. REIK. Geständniszwang und Strafbedürfnis, Int, psa. Verlag, Wien, 1925.

— L. STERN, Sacher- Masoch, B. Grasset, Paris.

— J. SADGER, Die Leher von den Geschlechtswerwirrungen, F. Deuticke, 1921— Ein Beitrag Zur Verständnis des Sadomasochismus. Z. F. Psa., 1926.

— C. F. von SCHLICHTTEGROLL, Sacher- Masoch und Masochism, Dresden, 1901.

— P. SCHILDER, Entwurf einer Psychiatrie auf Psychoanalatysche Grundlage, Int. P. Verlag, Wien, 1931.

— TRENEL, Revue Médicale Normande. 1902.

— SCHRENK-Notzing, Die Suggestion-Therapie, 1892.

— E. WEISS, Todestrie u. Masochismus, Imago, 1935.

الفهرس

مدخل ٥

(١) تاريخ المسألة ١٠

(٢) المازوخية الشهوية ٣١

(٣) المازوخية المعنوية ٦٩

ـ الطبع المازوخي ٧١

ـ مشاهدة تحليلية نفسية لطبع مازوخي ٩١

(٤) المازوخية لدى المرأة ١٠٢

(٥) دور المازوخية في اضطرابات القدرة الجنسية لدى الرجل ... ١١٤

ـ المازوخية في الجنسية المثلية المذكرة ١١٨

ـ المازوخية في العصاب الوسواسي ١٢٣

ـ المازوخية في السويداء ١٣١

(٦) ملاحظات علاجية ١٤١

ـ ملاحظات تتصل بأصول الوقاية ١٥٢

ثبت المراجع ١٦١

دراسات نفسية

صادرة عن دار الطليعة

- **علم النفس في مائة عـام**
  فلوجــل
- **مدخل الى ميادين علم النفس ومناهجه**
  د. بكداش / د. رزق الله
- **الفحص النفساني :** مبادىء الممارسة النفسانية ، تقنياتهـا ، خطواتهـا ، اشكالاتها .
  د. مصطفى حجازي
- **الاتصال الفعال في العلاقات الانسانية والادارة**
  د. مصطفى حجازي
- **الانسان والجنون**
  اشتيفـان بنديـك
- **ذكاء الاطفال من خلال الرسوم**
  د. نعيم عطية
- **التحليل النفسي للذات العربية :** انماطها السلوكية والاسطوريـة
  د. علي زيعـور
- **الكرامة الصوفية والاسطورة والحلم :** القطاع اللاواعي فـي الذات العربيـة
  د. علي زيعـور
- **الدراسة النفسية الاجتماعية بالعينة للذات العربية**
  د. علي زيعـور
- **العقلية الصوفية ونفسانية التصوف**
  د. علي زيعـور
- **قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية**
  د. علي زيعـور
- **غسل الدمـاغ**
- **اصول الطب النفساني**

د. فخري الدباغ

2811100000630

هذا الكتاب

□ ساشا ناخت ، مؤسس معهـــد التحليل النفسي في باريس ، ونائب رئيس الجمعية الدولية للتحليل النفسي ، يحاول في هـــذا الكتاب أن يقدم إحاطة شاملة ، وصفاً وتأريخاً وتحليلاً وعلاجاً ، بواحدة من اكثر تظاهرات الحياة النفسية المرضية انتشاراً ومن اكثر امراض الحياة الجنسية خطورة . وهو يرى في المازوخية لا انحرفاً جنسياً فحسب ، بل كذلك عُصاباً . ويقسمها الى ثلاثة أنواع : المازوخية الشهوية ، والمازوخية المعنوية ، والمازوخية الأنثوية . وإن تكن ظاهرة المازوخية الشهوية معروفةً من أيام سقراط وأرسطو — وكلاهما كان من ضحاياها — فإن المازوخية المعنوية بالمقابل تحظى باهتمام ساشا ناخت الأول من حيث انها ، في أغلب تظاهراتها ، لاشعورية . وفي الفصل المهم الذي يكرّسه للمازوخية الأنثوية يطعن في صحة الفرض الشائع القائل إن المرأة مازوخية بطبعها.

□ كتاب أساسي يقول : كيف ولماذا يمكن أن يكون الألم ، على ما في ذلك من مفارقة ، مصدراً للّذة ؟

دارُ الطّليعَة للطّباعة وَالنشر
بيروت

الثمن : ١٥ ل. ل.
او ما يعادلها